سعيد الأفغاني

استاذ العربية في كلية الآداب

في أصول النحو

مطبعة الجامعة السورية

١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

سعيد الأفغاني
أستاذ العربية في كلية الآداب



طبعة ثانية

مطبعة الجامعة السورية
١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منزل الكتاب بلسان عربي مبين ؛ والصلاة والسلام على المبعوث هداة للعرب ورحمة للعالمين .

كانت كليات الجامعة السورية قبل العام الدراسي (١٩٤٨ - ١٩٤٩) تتبع في تدرج طلابها نظام السنين المرعي في جامعات بريطانيا وأمريكا ومصر ، ثم رأى الاكثرون من الاساتذة في كلية الآداب وكلية العلوم اتخاذ نظام الشهادات المرعي في جامعات فرنسا ؛ فسمى قسم اللغة العربية في كلية الآداب لطلابه شهادات ثلاثاً يؤدونها على النسق الآتي :

١ - شهادة تاريخ العرب والاسلام في السنة الثانية

٢ - 〃 علوم اللغة العربية 〃 الثالثة

٣ - 〃 الآداب العربية 〃 الرابعة

أما السنة الأولى فسميت شهادتها بـ (الثقافة العامة) ويتلقى فيها الطلاب محاضرات في اللغة العربية وآدابها وفي التاريخ والجغرافية ، وفي علم الاجتماع ، مع دروس في اللغة الأجنبية التي يتابع الطالب دراستها طول السنين الأربع دون انقطاع .

وكان عليّ وضع منهاج للنحو والصرف في شهادة (علوم اللغة العربية) على وجه ينسجم فيه في الجملة هو ومناهج التفسير والحديث وعلوم البلاغة وفقه اللغة في الشهادة نفسها ، فآثرت ان يدرس الطلاب النحو فيها عن طريق الادوات ، وأن تكون ثقافتهم فيه ثقافة شواهد كما هي ثقافة قواعد ، فاخترت لهم بحوثهم جاعلاً مرجعهم الاساسي

فيها كتاب (مغني اللبيب) لابن هشـام ، أما الصرف فيدرسون بحوثاً فيه من وجهتي النظر الكوفية والبصرية في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف) لابن الانباري .

وقد ارتحت الى ثمرات هذا المنهج مدى سنتين ، وقدمت بين يدي دراستهم تلك ، محاضرات أربعاً في (الاحتجاج، والقياس، والاشتقاق، والخلاف) هي مادة هذا الكتاب.

حرصت في هذه المباحث على ان يتزود الطـلاب بمادة صالحة فيها مع مسايرة النظرة التاريخية على قدر الامكان ، وراعيت فيهـا مستواهم وحاجتهم ، ولولا ذلك اوجب طي بعض ما نشر ونشر بعض ما طوي ، فكثير من القضايا مررت به خطفاً لانه بحث بإسهاب في دراستهم السابقة .

وكنت أود التريث في الطبع حتى أنهي موضوعات اخرى في (الادوات في اللغة العربية) وأعيد النظر فيما كتبت ، لكن عناء الطلاب في الاستملاء والنفقة الغالية التي يكلفهم إياها النسخ بالآله الكاتبة ، ثم كثرة الخطأ والتصحيف من بعد العناء والانفاق..

كل ذلك حمل مجلس كلية الآداب على اقتراح الطبع في مطبعة الجامعة السورية .

وأنا موقن بأن بين هذه المحاضرات والكمال الذي أتصوره لها مراحل فساحاً ، وأن عمل الانسان أبداً في حـاجة الى الاصلاح ، وأن الخطوات العلمية لا تسدد إلا بالنقد يُسْهِم فيه كل من عنَّ له رأي صالح ، وأنه مـا من أحد يصغر عن أن يَنْـقُد كما أنه ما من أحد يكبر عن أن يُنْـقَد . ولست أضمن من عملي هـذا اكثر من أني بذلت فيه جهداً بإخلاص ؛ فان خرج منه قارئه المثقف ممتلئاً إيماناً بالعربية وخصائصها ومنطقيتها ثم بتقصيرنا حيالهـا التقصير الاكبر ، رجوت أن يكون من ذلك حافز للقادرين على الاتمام ، وكان ذلك حسبي من جهدي .

أسأل الله أن يجعلنا في عداد النافعين المنتفعـين « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وأن يزيدنا علماً وعملاً صالحاً ، ويأخذ بأيدينا جميعاً إلى ما فيه خير البلاد والعباد .

دمشق : كلية الآداب

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

سعيد الأفغاني

قواعد النحو وتصنيفها ؛ فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والاسلام ، ولا بأس من عرض تاريخي سريع لبعض أحداثه المتتابعة :

بدأ اللحن قليلا خفيفاً منذ ايام الرسول على ما يظهر ، فقد لحن رجل بحضرته فقال : « أرشدوا أخاكم فانه قد ضل » [1] والظاهر ايضاً أنه كان معروفاً بهذا الاسم نفسه « اللحن » بدليل ان السيوطي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا من قريش ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن » [2] وقد كان أبو بكر الصديق يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن » .

فاذا بلغنا عهد عمر رأينا المصادر تثبت عدداً من حوادث اللحن، فتذكر أن[3] عمر مر على قوم يسيئون الرمي فقرعهم فقالوا : « إنا قوم **متعلمين** » فأعرض مغضباً وقال : « والله لخطؤكم في لسانكم أشد علي من خطئكم في رميكم » وورد الى عمر كتاب أوله : **من أبو موسى الاشعري** » فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب [4] سوطاً . والأنكى من ذلك تسرب اللحن إلى قراءة الناس للقرآن فقد قدم أعرابي في خلافة عمر فقال : « من يقرئني شيئاً مما أنزل على محمد ؟ » فأقرأه رجل سورة براءة فقال : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين **ورسوله** ...» [5] فقال الأعرابي : « إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه »

---

(١) الخصائص لابن جنى ٢/٨ (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٥)،وروي في ارشاد الاريب عن عبد الله بن مسعود ١/٨٢

(٢) المزهر للسيوطي ٢/٣٩٧ طبعة (دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة) بعناية محمد احمد جاد المولى ورفيقيه ، ورواه السيوطي في الجامع الصغير عن الطبراني وقد ضعفه المحدثون .

(٣) ارشاد الاريب ١/٦٧ مطبوعات دار المأمون ،

(٤) هو ابو الحصين بن ابى الحر العنبري كما في وفيات الاعيان (٥/٩٩) ، وكان ابو موسى قد استكتبه بعد زياد .

(٥) سورة التوبة ٩/٣

فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال : « يا أمير المؤمنين ، إني قدمت المدينة ... وقص القصة فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابي» فقال: « كيف هي يا أمير المؤمنين؟ » فقال: « ... أن الله بريء من المشركين ورسولُه .. » فقال الأعرابي: « وأنا أبرأ ممن برئ الله ورسولُه منهم » . فأمر عمر ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة . »[١] ولعمر تنسب تلك القولة المأثورة: « تعلموا العربية فانها تثبت العقل وتزيد في المروءة »[٢].

وتكاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعْلم المشهور في تاريخ النحو : فقد دخل عليها أبوها في وقدة الحر بالبصرة « فقالت له : « يا أبت ما أشدُ الحر ! » رفعت (أشد) فظنها تسأله وتستفهم منه :أيّ زمان الحر أشد ؟ فقال لها « شهرا ناجر . » فقالت : « يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك. »[٣]

وتتقدم خطوة في الزمن فيقص علينا ابن قتيبة أن رجلا دخل على زياد فقال له: «ان ابينا هلك وان أخينا غصبنا على ميراثنا من ابانا » فقال زياد : « ماضيعت من نفسك اكثر مما ضاع من مالك » وأن أعرابياً سمع مؤذناً يقول : « اشهد ان محمداً رسولَ الله » فقال : « ويحك ، يفعل ماذا ؟ »[١] .

---

(١) نزهة الالباء ص٧ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/١١٠ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥١ هـ وانظر الخصائص لابن جني ٢/٨ وعيون الاخبار وانظر مراتب النحويين ص ٨ هذا وروايات اللحن في هذه الآية لاتتفق على وتيرة، فمنها ما يجعل هذه القصة في زمن زياد ، وان زياداً هو الذي طلب من أبي الاسود وضع شيء يقيم عوج الالسنة اللاحنة فأبى ابو الاسود «فبعث زياد رجلا يقعد له بطريقه ، وأمره أن يقرأ شيئاً من القرآن ويتعمد اللحن ، فقرأ :«.. أن الله بريء من المشركين ورسوله..» بالجر ، فاستعظم ذلك ابو الاسود وقال : « عزوجه الله، ان الله لايبرأ من رسوله » ثم رجع من فوره الى زياد فقال : « ياهذا قد اجبتك الى ماسألت» انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١/٤٦ . ولايبعد الجمع بين الروايات .

(٢) ارشاد الاريب ١/٧٧ وفي ص (٧٨) ان الزهري كان يقول : «ما احدث الناس مروءة احب الي من تعلم النحو » ٠ هذا وقد زعموا ان عمر بن الخطاب كان يضرب اولاده على اللحن ولايضربهم على الخطأ (ص٧٩) وان ابنه عبد الله كذلك (ص٨٩)

(٣) وتتمة الخبر في الاغاني للاصفهاني (١١/١٠١) : انه دخل على امير المؤمنين علي بن ابي طالب فقال : ياأمير المؤمنين ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم ، واوشك ان تطاول=

وأن أعرابياً دخل السوق «فسمعهم يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ونحن لانلحن ولا نربح !»(١)

وروى الجاحظ ان « اول لحن سمع بالبادية : هذه عصاتي (بدل عصاي) ، وأول لحن سمع بالعراق : حي على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها)»(٢)

ثم شاع في العصر الاموي حتى تطرق الى البلغاءمن الخلفاءوالامراء كعبد الملك والحجاج . والناس يومئذ تتعاربه ، وكان مما يسقط الرجل في المجتمع ان يلحن ، حتى قال عبد الملك وقد قيل له (أسرع اليك الشيب) : « شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن (٣) . وكان يقول : « ان الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها فاذا لحن انصرفت نفسي عنها(٤) وكان يرى اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب النفيس (٥) .

والحجاج على أنه من الخطباء الأبيناء البلغاء ، كان في طبعه تقزز من اللحن ان يقع منه او من غيره ، فاذا وقع منه حرص على ستره وابعاد من اطلع عليه منه ، ذكروا انه سأل يحيى بن يعمر الليثي : « أتسمعني ألحن على المنبر ؟ » فقال يحيى : « الامير افصح الناس الا انه لم يكن يروي الشعر » قال : « أتسمعني ألحن حرفاً ؟ » قال « نعم ، في آي القرآن » قال : « فذاك أشنع ؛ وماهو ؟ » قال تقول :

= عليها زمان ان تضمحل» واخبره خبر ابنته ..فأملى عليه : أن الكلام كله لايخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى .) وهذا القول اول كتاب سيبويه . ثم رسم أصول النحو كلها فنقلها النحويون وفرعوها ١٠ ه قلت : هذه احدى روايات مشهورة في اولية النحو ، وبعد صفحة نجد ابا الفرج يروي عن ابن ابي الاسود قوله : « اول باب وضعه ابي من النحو : التعجب » .

وفي الحادث الذي حفز ابا الاسود على وضع ماوضع روايات عدة قد يأتي بعضها في باب الخلاف وانظر واحدة رويهاالزبيديفيكتابه طبقات النحويين واللغويين ص ١٥

(١) عيون الاخبار ٢/١٥٩ . ومر ابو عمر بن العلاء بالبصرة فاذا أعدال مطروحة مكتوب عليها : (لابوفلان) فقال:«يارب يلحنون ويرزقون» إنباه الرواة ٢/٣١٩

(٢) البيان والتبيين ٢/٢١٩

(٣) مخطوطة الظاهرية من تاريخ دمشق لابن عساكر رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ١/٤٩٠

(٤) من رسالة للجاحظ في صناعة القواد ، ص ٢٦٠ (رسائل الجاحظ جمع السندوبي

(٥) عيون الاخبار ٢/١٥٨ ومن قول ابنه مسلمة« اللحن في الكلام اقبح من الجدري في الوجه»

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها أحبُّ اليكم من الله ورسوله .. » [(١)] تقرؤها (أحب) بالرفع ، فأنف الحجاج ان يطلع له رجل على لحن فبعث به الى خراسان [(٢)] . وكان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا فسأله يوماً : « اخبرني عن عنبسه بن سعيد : أيلحن؟» قال : « كثيراً » قال : « أفأنا ألحن ؟ » قال : « لحناً خفيفاً » قال : « كيف ذلك؟» قال تجعل (أنّ : إنّ) و (إنّ : أنّ) ونحو ذلك . قال : « لاتساكني ببلد ، اخرج [(٢)] » وكان الرجل إذا أراد أن يفلت من عمل للحجاج عاذ باللحن فنجا [(٣)]

وهؤلاء تطرق اليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع انهم نشؤوا فيها وترعرعوا واكتهلوا ، فلما كان مَن بعدهم عظم فشو اللحن فيهم حتى كان من اعظم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لحانة ،وأنه أخذه بتعلم العربية فلم يفلح. ونقلوا عن عبد العزيز بن مروان الامير الاموي المعروف وهو أخو عبد الملك لحناً ، على ان عبد العزيز هذا وهو من أفصح الناس كان « يعطي على العربية ويحرم على اللحن ، حتي قدم عليه زوار من اهل المدينة وأهل مكة من قريش فجعل يقول للرجل منهم : « من أنت ؟ » فيقول: « من بني فلان . » فيقول للكاتب : « أعطه مئتي دينار » ..

---

(١) سورة التوبة ٩ / ٢٤ .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ / ٦٥ (روضة الشام ١٣٣٢ هـ) وطبقات النحويين واللغويين ص ٥ .

ذكر ابن قتيبة : ان الحجاج أم قوماً فقرأ « والعاديات ضبحا » وقرأ في آخرها : « أن ربهم بهم يومئذ خبير » ينصب (ان) ثم تنبه على اللام في (لخبير) وأن (ان) قبلها لاتكون الا مكسورة فحذف اللام من (لخبير) فقرأ : « أن ربهم بهم يومئذ خبير » . ـ عيون الاخبار ٢/١٦٠ . ومع هذا فقد روي عن الاصمعي قوله : « أربعة لم يلحنوا في جد ولاهزل : الشعبي وعبد الملك والحجاج بن يوسف وأبن القرية ، والحجاج افصحهم ـ أمالي الزجاجي ص ١٥

(٣) في اشاد الاريب (١/٨٧) : بعث الحجاج الى والي البصرة : ان اخترلي عشرة ممن عندك فاختار رجالاً منهم كثير ابن ابي كثير وكان رجلا عربيا ، قال كثير : فقلت في نفسي : « لاأفلت من الحجاج الا باللحن . » . فلما ادخلنا عليه دعاني فقال : «ماسمك ؟ » قلت : «كثير» قال : «ابن من ؟ » فقلت . . (ابن اباكثير) فقال :« عليك لعنة الله وعلى من بعث بك، جئوا في قفاه.»فأخرجت

الاحتجاج

في اللغة العربية

الاحتجاج

١ — مقدمة تاريخية ، — ٢ — العلوم التي يحتج لها ٣ — من يحتج به ، ٤ — ما يحتج به ، ٥ — بعض قواعد في الاحتجاج، ٦ — خاتمة .

(١)

مقدمة تاريخية

يراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة ، أَو استعمال كلمة أَو تركيب، بدليل نقلي صح سنده الى عربي فصيح سليم السليقة على ماسيأتي تفصيله في موضعه .

وإنما احتاج القوم الى الاحتجاج لما خافوا على سلامة اللغة العربية بعد أن اختلط اهلها بالاعاجم إثر الفتوح وسكنوا بلادهم وعايشوهم، ونشأ عن ذلك بسنة الطبيعة أَخذ وعطاء في اللغة والافكار والاخلاق والأعراف . وتنبه أولو البصر الى ان الامر آيل الى إفساد اللغة وضياع العصبية من جهة ، والى التفريط في صيانة الدين من جهة ثانية، اذ كانت سلامة أحكامه موقوفة على حسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكان في ضعف العربية تضييع لهذا الفهم .

يعتبر اللحن الباعث الاول على تدوين اللغة وجمعها ، وعلى استنباط

حتى جاءه رجل من بني عبد الدار فقال : « من أنت ؟ » فقال : «من **بنو** عبدالدار» فقال : «تجدها من جائزتك » وقال لـكاتبه : «أعطه مئة دينار » (١)

وهذامعاويةبن بجير والي البصرة تشغله لحنة الناعي عن مصيبته بأبيه فيقدّم انكارها

فانت تجد مما تقدم ان الخوف على العربية له مايبرره من النذر ، وانه تمكن في النفوس حتى تضافرت جهود العلماء وذوي السلطان على صيانة العربية ، وأن الحرمان

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية رقم ٢٢ تاريخ ج ٥ الورقة ٤٥٠ /١).

هذا ومن المفيد ذكر الباعث على عناية عبد العزيز بن مروان بالعربية فقد روى ابن عساكر قبل هـذا الخبر أنه « دخل على عبد العزيز رجل يشكو صهراً له فقال : « ان ختني فعل بي كذا وكذا » فقال له عبد العزيز : «من ختنَك ؟ «فقال له « ختنني الختان الذي يختن الناس » فقال عبد العزيز لـكاتبه : «ويحك ، بم اجابني ؟» فقال له : « ايها الامير انك لحنت وهو لا يعرف اللحن ، كان ينبغي ان تقول له : « ومن ختنُك؟ » فقال عبد العزيز : «اراني اتكلم بكلام لا يعرفه العرب ، لاشاهدت الناس حتى أعرف اللحن . » فأقام في البيت جمعة لايظهر ومعه من يعلمه العربية ، فصلى بالناس الجمعة وهو من افصح الناس.»اه.قلت:تروى هذه اللحنة للوليد بن عبد الملك : انظر ص ١٤٣ من (نقد النثر) المنسوب لقدامة (مطبعة التألف والترجمة والنشر : القاهرة ١٣٥٩ هـ)

وانظر في لحنه ايضاً البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٢٠٤) فما بعد (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦٨هـ)

أما أمر الوليد الذي مر آنفاً فقد أهم عبد الملك حتى أفضى بذات نفسه يوماً الى روح ابن زنباع قائلا :

« ياأبا زرعة ، قد غلبني الوليد باللحن ، وسأظهر العشية كآبة فسلني عنها ودعني والوليد» فلما أذن العشاء أظهر كآبة وعنده الوليد وسليمان وروح فقال له روح :«ماهذه الكآبة ياامير المؤمنين ؟ لايسوؤك (الله) ولايريك مكروهاً ! » قال : ذكرت مافي عنقي من هذه الامة والى من اصيّر امرها بعدي ؟» قال له روح : يغفر الله لك ياامير المؤمنين . فأين انت عن الوليد سيد شباب العرب ؟» قال: «ياابازرعة ، لاينبغي ان يلي امر العرب الامن يتكلم بكلامها» فقام الوليد فدخل منزله وجمع اليه اصحاب النحو ، فاقام ستة اشهر معهم ، وخرج يوم خرج وهو اجهل بالنحو منه يوم دخل ، فقال عبد الملك : «قداجهدواعذر» المصدر السابق ، الورقة ٤٢١/١

واحتج على عبد الملك بلحن الوليد هذا ، فقد ذكر ابن عساكر ان عبد الملك قال لرجل من —

من المال او العمل مما كان يصيب اللحانة ، وأن فصاحة المرء قد ترفعه الى الولايات والغنى وتزيد شأنه عند أولي الامر ؛وهذامن طرف السلطان كاف في الترغيب والترهيب. وسؤال الحجاج عن لحن بعض الناس ذوي الشأن مشعر باهتمام الحكومة والمجتمع بأمر اللحن . وذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعدان رأت اللحن يفشو في الطبقات الرفيعة من الامراء والحكام وأشراف الناس ،وفي قصة بشكست النحوي تعبير واضح عن امرين : فشو اللحن ونظرة المثقفين اليه ، ولابأس في ايرادها ففيها طرافة وفيها ظرف :

« وقد بشكست النحوي على هشام بن عبد الملك ، فلما حضر الغـداء دعاه هشام ، وقال لفتيان بني أمية : « تلاحنوا عليه » ، فجعل بعضهم يقول : « ياأمير المؤمنين رأيت ابي فلان .. » ويقول آخر : « مر بي أبي فلان .. » ونحو هذا ؛ فلما ضجوا أدخل يده في صحفة فغمسها ثم طلى لحيته وقال لنفسه :« ذوقي ، هـذا جزاؤك في مجالسة الانذال ! »[1]

ـــ قريش: «انك لرجل لولا انك تلحن» فقال: «وهذا ابنك الوليد يلحن» قال عبد الملك: «لكن ابني سليمان لايلحن » قال الرجل :«واخي فلان لايلحن!» الورقة ١/٤٢٤

وكان لايستطيع تجنب اللحن حتى على المنبر ، ذكره ابو الزناد يوماً فقال: « كان لحاناً كـأني أسمعه على منبر النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا اهلُ المدينة!»

بل كان لايستطيع تجنبه حتى في آيات القرآن : قرأ يوماً على المنبر « ياليتها كانت القاضيةُ » وضم التاء ، فقال عمر بن عبدالعزيز (وكان تحت المنبر):«ياليتها كانت عليك وأراحتنا منك!» الورقة ١/٤٢٤ .

وكان عمر بن عبدالعزيز هذا أشد الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته وربما أدّب عليه . ـ إرشاد الاريب ١/٨٩

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة الظاهرية) الجزء السابق الورقة ١/٤٥٤ ثم قال ابن عساكر فيه : « وكان نحوياً أخذ عنه أهل المدينة ، وكان يذهب مذهب الشراة ويكتم ذلك ، فلما ظهر ابو حمزة الشاري بالمدينة (سنة ١٣٠ هـ) خرج معه فقتل فيمن قتل بخلافة مروان بن محمد . » واسمه عبد العزيز القاري وقيل في مقتله :

ـــ

الى هذا المدى بلغ أمر اللحن في المئة الاولى للهجرة والدولة عربية محضة ، والعصبية ذات سلطان ، والقوم حديثو عهد بجزيرتهم ولاتزال مجتمعاتهم تتناقل القول المشهور (ليس للاحن حرمة) وتتعامل به ، وبيت الخلافة أعرق بيوت قريش شرفاً ومجداً وبلاغة وأقواها عصبية وعروبة. (١) فلنحاول تبيان مااختط أهل العربية من خطط يعالجون بها

لقد كان يشكست عبد العزيز — من اهل القراءة والمسجد
فبعداً لبشكست عبد العزيز — وأما القران فلا يبعد

انظر النسخة الثانية من تاريخ دمشق لابن عساكر (رقم ٣٣٧٤/٩ تاريخ) ١٠ الورقة ٢٠٢ ، والاغاني ١١١/١ و ١٠٨/٢٠ و ١١٠ وإنباه الرواة ١٨٣/٢

(١) هذا ومع ضعف السليقة العربية على الزمن لم يضعف استهجان الخاصة للحن وحسبك هذه الحوادث الاربع رمزاً الى ذلك وكلها في صدر الدولة العباسية :

تكلم ابو جعفر المنصور في مجلس فيه اعرابي فلحن ، فصّر الاعرابي أذنيه [حددهما مصغياً باهتمام] ، فلحن مرة أخرى أعظم من الاولى فقال الاعرابي : « أف لهذا : ما هذا » ثم تكلم فلحن الثالثة فقال الاعرابي : « أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر !! »

وقال سعيد بن سلم : « دخلت على الرشيد فبهرني هيبة وجمالا ، فلما لحن خفّ في عيني »

ودخل رسول والي الكوفة العباس بن محمد بن موسى على طاهر بن الحسين فقال له : « أخيك أبي موسى يقرأ عليك السلام » قال : « وما أنت منه ؟ » قال : « كاتبه الذي يطعمه الخبز » فأمر تواً بصرف العباس عن الكوفة إذ لم يتخذ كاتباً يحسن الأداء عنه .

إرشاد الاريب ٨٤/١ ، ٨٣ ، ٨٦ بتصرف يسير .

بل إن المأمون كان يأخذ عماله باللوم إذا كان في كتبهم إليه لحن وبعد ذلك تفريطاً في جانب مقام الخلافة وإليك حديث ابن قادم النحوي الكوفي :

« وجه إلي اسحاق بن ابراهيم المصعبي يوماً فأحضرني فلم أدر ما السبب ، فلما قربت من مجلسه تلقاني ميمون بن ابراهيم كاتبه على الرسائل وهو على غاية من الهلع والجزع ، فقال لي بصوت خفي : « إنه إسحاق » ومر غير متلبث ولا متوقف حتى رجع إلى مجلس إسحاق ، فراعني ذلك ، فلما مثلت بين يديه قال لي : كيف يقال : « وهذا المال مالاً » أو « وهذا المال مال » ؟ فعلمت ما أراده ميمون ، فقلت له : « الوجه (وهذا المال مال) ويجوز (وهذا المال —

استفحال الداء ، وهل كانوا الى الشدة حين شرطوا للاحتجاج تلك الشروط التي أسقطت الاحتجاج بكلام كثير من العرب حتى في زمن الجاهلية؟

(٢)

العلوم التي يحتج لها

يحتج بالكلام العربي لغرضين : غرض لفظي ويدور حول صحة الاستعمال من حيث اللغة والنحو والصرف ، وغرض معنوي لا علاقة له باللفظ . والظاهر أن فريقاً من العلماء حجّر واسعاً فأسقط الاحتجاج

ـــمالاً)» ، فأقبل إسحاق على ميمون بغلظة وفظاظة ثم قال : « الزم الوجه في كتبك ، ودعنا من يجوز ويجوز » ورمى بكتاب في يده ، فسألت عن الخبر فإذا ميمون قد كتب إلى المأمون وهو ببلاد الروم عن اسحاق وذكر مالاً حمله ، فكتب : « وهذا المال مالاً » فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقع بخطه في حاشيته :

« تخاطبني بلحن ؟! » فقامت القيامة على اسحاق !! » .

فكان ميمون بعد ذلك يقول : « ما أدري كيف اشكر ابن قادم ، أبقى عليّ روحي ونعمتي !! » قال ثعلب راوي الحديث : « فكان هذا مقدار العلم وعلى حسب ذلك كانت الرغبة في طلبه والحذر من الزلل . قال « وهذا المال مالاً » ليس بشيء ، ولكن أحسن ابن قادم في التأني لخلاص ميمون . » — إنباه الرواة ٣/١٥٧ وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٥٣ .

حتى إذا امتد الزمن خف الاستنكار شيئاً ما فصرنا نرى ثعلباً النحوي « لا يتكلف إقامة الاعراب في كلامه إذا لم يخش لبساً في العبارة » ونرى إبراهيم الحربي وقد ذكر له ذلك يقول : « أيش يكون إذا لحن في كلامه ؟ كان هشام النحوي يلحن في كلامه ، وكان أبو هريرة يكلم صبيانه بالنبطية . » — إنباه الرواة ١ /١٤٠

بل كان بعض الأمراء بالبصرة يقرأ (إن الله وملائكتُه) بالرفع فمضى إليه الأخفش ناصحاً له فانتهره وتوعده وقال « تلحّنون أمراءكم ؟! » — إنباه الرواة ٢ /٤٣

بكلام الاسلاميين والمولدّين في اللفظ والمعنى جميعاً ، ولم يلتفت الجمهور الى هذا التحجير لعقمه وبعده عن طبيعة الحياة ، بل قصروا الاحتجاج بكلام المولّدين على المعاني فقط ، واحتجوا بكلام القدماء في اللفظ والمعنى . وخير من يمثل هؤلاء ابن جنى ، فقد احتج في باب المعاني بشعر المتنبي وهو مولّد ، ولعله توقع إنكاراً من المتزمتين فأتبع احتجاجه بعلة مقبولة معرّضاً بمذهب التزمت هذا ، قال في صدد كلامه على مجيء القول والكلام مما لا يعقل :

« قال عنترة :

لو كان يدري : ما المحاورة ؟ اشتكى — ولكان – لو علم الكلام – مكلمي

وامتثله شاعرنا (يعني المتنبي) آخراً فقال :

فلو قدر السنان على لسانٍ — لقال لك السنان كما أقول

وقال :

لو تعقل الشجر التي قابلتها — مدت محيّيةً إليك الأغصنا

ولا تستنكر ذكر هذا الرجل – وإن كان مولداً — في أثناء ما نحن عليه من هذا الموضع وغموضه ، ولطف متسرّبه ، فإن المعاني يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون ، وقد كان أبو العباس (يعني المبرد) — وهو الكثير التعقب لجلة الناس — احتج بشيء من شعر حبيب بن أوس الطائي في كتابه (الاشتقاق) لما كان غرضه فيه معناه دون لفظه فأنشد فيه له :

لو رأينا التوكيد خطة عجز ماشفعنا الأذان بالتثويب

واياك والحنبلية بحتاً ، فإنها خلق ذميم ، ومطعم على علاته وخيم»[(١)]

ثم استقر الرأي على ما فصّل ابن جنى من أئمة المئة الرابعة للهجرة ، ففصلوا بين العلوم التي يحتج لها بكلام القدماء والعلوم التي يحتج لها بكلام الفصحاء عامة قدماء ومولدين ، وتبلور هذا الرأي وأصبح من المسلمات ، فهذا عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب ومن أعيان العلماء في المئة الحادية عشرة يعبر عنه بعد سبعة قرون بنقله كلام الرعيني الاندلسي من علماء المئة الثامنة في شرح بديعية رفيقه ابن جابر ، قال الرعيني :

« علوم الأدب ستة : اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ؛ والثلاثة الاولى لا يستشهد عليها الا بكلام العرب (يريد القدماء) دون الثلاثة الاخيرة فإنه يستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة الى المعاني ، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع الى العقل ، ولذلك قبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب وهلم جرا . »[(٢)]

---

(١) الخصائص ١/٢٤ والتثويب إشارة المنادي بثوبه وصوته

(٢) خزانة الادب للبغدادى ١/٢٠ (المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ) .

(٣)

من يحتج به

بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من أهل المدر والوبر قدماء ومحدثين ، وتقصوا أحوالهم ونقدوها ، فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عربيته ، ونحن عارضون لأصناف هؤلاء زماناً ومكاناً وأحوالاً :

فأما الزمان فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الاسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية . أما الشعراء فقد صنفوا أصنافاً أربعة : جاهليين لم يدركوا الاسلام ، ومخضرمين أدركوا الجاهلية والاسلام ، وإسلاميين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً ، ومحدثين أولهم بشار بن برد .(١) . والاجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الاولين واختلفوا في الطبقة الثالثة ، وذهب عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الادب الى جواز الاستشهاد بها (٢) اما الطبقة الرابعة فلا يستشهد بكلامها في علوم اللغة والنحو والصرف خاصة . وكان آخر من يحتج بشعره على هذا الاساس بالاجماع ابراهيم بن هرمة

---

(١) الاقتراح ص ٣٢ .
(٢) خزانة الادب ١/٢٠

(٧٠ ـ ١٥٠ هـ) الذي ختم الاصمعي به الشعر [١] . أما أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري.

وعلى هذا « أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية » [٢] .

وأما المكان أو بعبارة أخرى القبائل، فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قربها أو بعدها من الاختلاط بالأمم المجاورة ، فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب ،وردوا كلام القبائل التي على السواحل او في جوار الاعاجم ، واليك تصنيف أبي نصر الفارابي لهم في الاحتجاج:

أ — « كانت **قريش** أجود العرب انتقاء [٣] للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما في النفس.

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص ٢٢ (مطبعة المعارف بحيدر آباد ١٣١٠ هـ) . هذا وبعضهم يرى الاحتجاج بالطبقة الرابعة مستدلاً باستشهاد سيبويه بشعر بشار بن برد في (الكتاب) ، ويرد المعترضون بأنه إنما فعل ذلك خوفاً من لسانه .

(٢) المصدر السابق ص ٣١ وقد مال الزمخشري الى استثناء أئمة العربية من ذلك داعياً الى جعل الوثوق بكلامهم كالوثوق برواياتهم .

(٣) قال ابن فارس : (وكانت قريش مع فصاحتها .. اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب .)ـ الصاحبي ص ٢٣ (المطبعة السلفية بالقاهرة) .

والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم :

قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين أُخذ عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف .

ثم **هذيل** وبعض **كنانة** وبعض **الطائيين** ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم [١] .

ب — وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الامم الذين حولهم :

لم يؤخذ من **لخم ولا من جذام** فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط .

ولا من **قضاعة ولا من غسان ولا من اياد** فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بصلاتهم بغير العربية .

ولا من **تغلب ولا النمر** فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية .

ولا من **بكر** لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس .

ولا من **عبد القيس** لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ،

---

(١) ومع هذا فلم تكن لغات هؤلاء بالمرضية دائماً : قال الحسن البصري يوماً (توضيت) فقيل له : (أتلحن يا أباسعيد ؟!) فقال (إنها لغة هذيل وفيها فساد). انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١ / ٤٦ .

ولا من **أزد عمان** لمخالطتهم للهند والفرس ،

ولا من **أهل اليمن** أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم.

ولا من **بني حنيفة** وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم.

ولا من **حاضرة الحجاز** لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم..»[1]

---

(١) الاقتراح للسيوطي ص٢٢ نقلاً عن كتاب الفارابي (الالفاظ والحروف).
هذا وقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مقابلة طريفة بين لغات أهل مكة والبصرة والكوفة ، يفيد إيرادها في شرح الظاهرة المذكورة أعلاه ، قال الجاحظ: (أهل الامصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك نجد الاختلاف في الفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر .. وقال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر (ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة .) فقال محمد بن منـاذر : (أما ألفاظنا فأحكى الالفاظ للقرآن واكثرها موافقة له ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول (قدر) ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل (وجفان كالجواب وقدور راسيات) وأنتم تسمون البيت (علية) وتجمعون هذا الاسم على علالي ونحن نسميه (غرفة) ونجمعه على غرف وغرفات ، وقال الله « غرف من فوقها غرف مبنية » وقال : « هم في الغرفات آمنون » ، وأنتم تسمون الطلع (الكافور والاغريض) ونحن نسميه الطلع وقال الله « ونخل طلعها هضيم » ... فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها غير هذا .
ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون ... الخ . =

وكأن هذا التصنيف حاز القبول وجرى عليه العمل وكان الخروج عليه مدعاة الى النقد ، ولما اعتمد ابن مالك على لغات لخم وجذام وغسان ، تعقبه باللوم ابو حيان فقال في شرح التسهيل : « ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن [1] » .

وأما أحوال هؤلاء العرب المحتج بهم فخيرها ما كان أعمق في التبدي وألصق بعيشة البادية ، ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم عن الأعراب اهل الشيح والقيصوم وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع ويقولون للكوفيين « أخذتم عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ [2] » . وقد نص الفارابي بعد قوله المتقدم آنفاً على صناعة

= وكذا أهل الكوفة يسمون المسحاة : (بال) وبال بالفارسية : ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك اشبه ، اذ كان أهل الكوفة نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب . ويسمي أهل الكوفة الحوك (البقلة الحمقاء) باذورج والبازورج بالفارسية والحوك كلمة عربية . وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها (مربعة) ويسميها اهل الكوفة (جهارسو) والجهار بالفارسية . ويسمون السوق او السويقة وازار والوازار بالفارسية . ويسمون القثاء خياراً والخيار فارسية . ويسمون المجذوم ويذي بالفارسية . — اهـ ١ / ١٨ .

وبهذه الامثلة التى طغى فيها الاثر الاجتماعي على الأثر الجغرافي تدرك الحافز لعلماء العربية على اسقاط من أسقطوا في الاحتجاج من العرب في الجاهلية والاسلام .

(١) الاقتراح ص ٢٤ .

(٢) الشيراز اللبن المصفى ، والكامخ : ادام — انظر القاموس المحيط .

هؤلاء الاعراب وصفاتهم فقال : « كانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية ، وكانوا أقواهم نفوساً وأقساهم قلوباً وأشدهم توحشاً وأمنعهم جانباً وأَشدهم حمية وأَحبهم لأن يغلبوا ولا يُغلبوا ، وأَعسرهم انقياداً للملوك ، وأَجفاهم أَخلاقاً وأَقلهم احتمالاً للضيم والذلة.»[1]

وتستطيع ان تجعل مرد الامر كله — بعدما تقدم لك — الى الوثوق من سلامة لغة المحتج به وعدم تطرق الفساد اليها ، وهذا هو الضابط في التصنيف الزماني والمكاني اللذين مرا بك ، فأنت تعلم إسقاط العلماء الاحتجاج بشعر أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد العبادي [2] وحتى الاعشى عند بعضهم ، لمخالطتهم الاجانب وتأثر لغتهم بهذه المخالطة ، حتى حمل شعرهم عدداً غير قليل من ألفاظ ومصطلحات لا تعرفها العرب ، وكل

---

(١) الاقتراح ص ٢٤ .

(٢) اسقاط الاحتجاج في اللغة لا يؤثر في الشاعرية ؛ وعلى هذا ينبغي أن يفهم انكار القاضي الجرجاني زعم الاصمعي :

« زعم الاصمعي ان العرب لا تروي شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد ، لأن ألفاظهما ليست بنجدية) ، وكيف يكون ذلك وهذا معاوية يفضل عدياً على جماعة الشعراء ، وهذا الحطيئة يسأل : من أشعر الناس ؟ فيقول الذي يقول وأنشد لأبي دؤاد :

لا أعد الاقتار عدماً ولكن فقد من قد رزئته الاقتار ..الخ الابيات»

الوساطة ص ٤٩ .

هؤلاء شعراء جاهليون [1] ؛ بينما يذهب فريق الى الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفى في القرن الثالث للهجرة ، حتى نص الامام أحمد بن حنبل على أن (كلام الشافعي في اللغة حجة) [2] لسلامة نشأته وتقلبه في البيئات العربية السليمة . قيل لبشار : « ليس لأحد من شعراء العرب شعر الا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشُك فيه ، وإنه ليس في شعرك مايشك فيه . » قال : « ومن أين يأتيني الخطأ ؟ ولدت هاهنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل مافيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت الى أن أدركت ؛ فمن أين يأتيني الخطأ [3] .

---

(٢) مع هذا لا بد من بعض التسامح فان التدقيق والتقصي لا يسلم عليهما كثير من كلام المحتج بهم : هذا الكميت والطرماح روي أنهما كانا « يسألان العجاج عن الغريب ثم يراه في شعرهما موضوعاً في غير مواضعه ، فقيل له : « ولم ذاك ؟ » قال : « لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في مواضعه . » — الاغاني ١٧/٢ بل ان الاصمعي كان يقول في الكميت : « جرمقاني من جراميق (عجم) الشام لا يحتج بشعره » وينكر مواضع من شعر الطرماح ويلحن ذا الرمة . — انظر الوساطة للقاضي الجرجاني ص ٩ . بل ذهب الجرجاني في باب (اغاليط الشعراء ص ٤ من الوساطة) الى أنه لا توجد قصيدة واحدة من كل تلك الدواوين الجاهلية والاسلامية « تسلم من بيت أو اكثر لا يمكن لعائب القدح فيه » اهـ . وما أشبه هذا بالحق .

(٣) الاقتراح ص ٢٤ .

(٤) الاغاني ٢٦/٣ طبعة الساسي .

وكلمة بشار هذه دليل قاطع على وجود بيئات في المدن سليمة اللحن ازمنه في المئة الثانية للهجرة .

ويعجبني كثيراً قول ابن جني في هذا الموضوع في باب (ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) :

« علة امتناع ذلك ماعرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الاخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ، وكذلك أيضاً لو فشا في أهل الوبر ماشاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها ، اوجب رفض لغتها وترك تلقي مايرد عنها ، وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا لأنَّا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً ، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم مايفسد ذلك ويقدح فيه .. »[1] .

---

(١) الخصائص ٢/٥ ثم ذكر ابن جني أدلة على فساد سليقة الأعراب في زمنه فقال : « وقد كان طرأ علينا احد من يدعي الفصاحة البدوية ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له، وميزناه تمييزاً حسن في النفوس موقعه إلى ان انشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بعض قوافيه (اشأؤها . وأدأؤها) [بوزن أشععها وأدععها] فجمع بين الهمزتين كما ترى. واستأنف من ذلك مالا أصل له ، ولا قياس يسوّغه ، نعم وأبدل إلى الهمز حرفاً لاحظ اه في الهمز ، بضد ما يجب ، لانه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير احداها . فكيف أن يقلب الى الهمز قلباً ساذجاً عن غير صنعة مالاحظ له في الهمز ، ثم يحقق الهمزتين جميعاً هذا مالا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع ... الخ .

(٤)

مايحتج به

نقسم الكلام المحتج به إلي أَقسام ثلاثة نتكلم على كل منها بالترتيب تيسيراً للبحث :

١ — القرآن الكريم ؛ ٢ — الحديث الشريف؛ ٣ — كلام العرب

١ — لم يتوفر لنص ماتوفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته.وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متناً وسنداً ،وتدوينها وضبطها بالمشافهة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء الأبيناء من التابعين ، عن الصحابة ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل الينا بها في الأداء والحركات والسكنات ،ولم تعتن أمة بنص ما اعتنى المسلمون بنص قرآنهم .

وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة ، وقراءاته جميعاً الواصلة الينا بالسند الصحيح حجة لاتضاهيها حجة . أما طرقه المختلفة في الأداء فهي كذلك، إذ أنها مروية عن الصحابة وقراء التابعين ، وهم جميعاً ممن يحتج بكلامهم العادي بله قراءاتهم التي تحروا ضبطها جهد طاقتهم كما سمعوها من رسول الله ، ولاننسى بعد ذلك : أَن أَئمة القراء كأبي عمرو بن العلاء والكسائي ويعقوب الحضرمي هم أَئمة في اللغة والنحو أيضاً . وقد جرى عرف العلماء

على الاحتجاج برواياته سواء أكانت متواترة أم روايات آحاد أم شاذة .
والقراءة الشاذة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة والنحو (١) ،
إذ هي ـ على كل حال ـ أقوى سنداً وأصح نقلاً من كل ما احتج به
العلماء من الكلام العربي غير القرآن . ولئن كان القراء أسقطوا القراءة بها
لعدم وثوقهم أنها قراءة النبي نفسه ، إن على علماء اللغة والنحو أن يعضوا
عليها بالنواجذ ؛ إذ كان رواتها الأعلون عرباً فصحاء سليمة سلائقهم ،
تبنى على أقوالهم قواعد العربية . وأنت تعرف أن النحاة يحتجون بكلام
من لم تفسد سلائقهم من تابعي التابعين ، فلأن يحتجوا بقراءة أعيان
التابعين والصحابة أولى ، ورجحان قراءات القرآن في حجيتها اللغوية والنحوية
على شواهد النحاة عُرفٌ قديم تعاوره العلماء .

وهنا أمر ينبغي التنبيه اليه بشيء من التفصيل ، فالحق أن موقف النحاة
من النصوص العربية حين وضعهم القواعد فيه خلل واضطراب من الناحية
المنهجية ، وأن موقف القراء علمياً ومنطقياً ومنهجياً سديد متسق واليك البيان :

أقل ما يشترط القراء لصحة القراءة شروط ثلاثة :

١ ـــ صحة السند بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

---

(١) انظر الاقتراح للسيوطي ص ١٧ .

(٢) مذهب الاصوليين وفقهاء المذاهب الاربعة والمحدثين والقراء أن التواتر
شرط في صحة القراءة ولا تثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصاحف =

٢ ـــ موافقتها رسم المصحف المجمع عليه .

٣ ـــ موافقتها وجهاً من الوجوه العربية .

وكثيراً ما صرحوا في مناسبات عدة أن القراءة سنة متبعة وأنها لا تخضع لغير السماع الصحيح . أما القراءة الشاذة عندهم فما توفر فيها صحة السند وموافقة العربية وتخلف الشرط الثاني ، أو التواتر من الشرط الاول ؛ وهذه هي التي منعوا القراءة بها في الصلاة ، وقد ظهر لك إذاً أن القراءة الشاذة لا يقدح في الاحتجاج بها عربيةً قادح ، فمخالفة الرسم بزيادة كلمة أو نقص حرف لا تؤثر في صحة بناء القواعد عليها . هذا وخير تعبير عن منهج القراء قول أحد أئمتهم أبي عمرو الداني :

« وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها . »[1]

= العثمانية ووافقت العربية . ـــ ص ٦ من غيث النفع للصفاقسي (بذيل شرح الشاطبية لابن القاصح المسمى سراج القارىء المبتدى وتذكار المقرىء المنتهى ـ مطبعة مصطفى محمد ـ الطبعة الاولى (١٣٥٢ هـ) قلت : ومع شبه الاجماع هذا نقل السيوطي في (الاتقان) ما يفيد أن كثيرين لم يشترطوا التواتر مكتفين بالمشهور من الطرق (انظر ص ٧٥ المطبعة الازهرية سنة ١٣٤٣ هـ) .

(١) النشر في القراءات العشر ١/١٠ .

هذا دستور القراء أثبتوه في كتبهم وكانوا في تطبيقه على غاية من الدقة والامانة ، فكانوا منهجيين منطقيين قولا وعملا ؛ فهل كان النحاة كذلك؟

الحق أن النقد يجد في صف النحاة وفي قواعد نحوهم ثغراً عدة ينفذ منها إلى الصميم ،فهم يريدون بناء قواعدهم على كلام العرب فيجمعون نتفاً نثرية وشعرية من هذه القبيلة ومن تلك ، من أعرابي في الشمال إلى امرأة في الجنوب ،ومن شعر لا يعرف قائله إلى جملة غير منسوبة ،يجمعون هذا إلى أقوال معروفة مشهورة ، ويضعون قواعد تصدق على أكثر ماوصل اليهم بهذا الاستقراء الناقص الذي لا يستند إلى خطة محكمة في الجمع ، ثم يسددون هذه القواعد بمقاييس منطقية يريدون اطرادها في الكلام ، حتى إذا أتت بعضهم قراءة صحيحة السند تخالف قاعدته القياسية ، طعن فيها وإن كان قارئها أبلغ وأعرب من كثير ممن يحتج النحوي بكلامهم !! فلا استقراؤه كامل أو كاف ، ولا لشواهده التي استندا ليها بعض ما للقراءة الصحيحة من القوة ، ولا اللغة تخضع للمقاييس المنطقية التي ابتدعها . وخير مايصف اضطراب موقفهم هذا قول الرازي :

« إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز اثباتها بالقرآن العظيم أولى ، وكثيراً ماترى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن ، فاذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلاً

على صحتها ، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان أَولى»[1].

وصحيح قول ابن حزم في الفصل: « من النحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكماً لفظياً ويتخذه مذهباً ، ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرف الآية عن وجهها » .

وقال في موضع آخر :

« ولا عجب أَعجب ممن إن وجد لامرىء القيس أو لزهير أو لجرير أَو الحطيئة أَو الطرماح أَو لأعرابي أسدي أَو سُلمي أَو تميمي أو من سائر أبناء العرب لفظاً في شعر أو نثر جعله في اللغة ، وقطع به ، ولم يعترض فيه ، ثم اذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاماً لم يلتفت اليه ولا جعله حجة وجعل يصرفه عن وجهه ويحرفه عن موضعه ويتحيل في إحالته عما أوقعه الله عليه ! »

والمنهج السليم في ذلك أَن يمعن النحاة في القراءات الصحيحة السند، فما خالف منها قواعدهم صححوا به تلك القواعد ورجعوا النظر فيها ، فذلك أعود على النحو بالخير . أَما تحكيم قواعدهم الموضوعة في القراءات الصحيحة التي نقلها الفصحاء العلماء فقلب للاوضاع وعكس المنطق إذ كانت الروايات الصحيحة مصدر القواعد لا العكس .

وسيتضح لك مجافاة بعضهم للعلم والحق ، وتعصبهم الذي نستطيع رد

---

(١) تفسير فخر الدين الرازي ٣/١٩٣ .

بعضه إلى جهلهم بفن القراءة وتاريخها ،بهذه الامثـلة التي تثبت وجوب إعادة النظر فيما قعّدوا من قواعد ووضعوا من مقاييس :

١ — زعم النحاة أن العرب استغنت عن ماضي (يدع) ومصدرها بماضي (ترك) ومصدرها ، فلم يردا في فصيح كلامها [1] .

وأتى بها ابن جني شاهداً لضرب خاص من الكلام فقال : « فإن كان الشيء شاذاً في السماع مطردا في القياس تحاميت ما تحامت العرب من ذلك وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله ، من ذلك امتناعك من (وذر) و (ودع) لأنهم لم يقولوهما ، ولا غرو أن (لا) تستعمل نظيرهما نحو وزن ووعد لو لم تسمعهما، فأما قول أبي الاسود :

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الحب حتى ودعه

فشاذ ، وكذلك قراءة بعضهم : « ما ودَعك ربك وما قلى » [2] .

وهم في أقوالهم هذه متهافتون خارجون على أصولهم التي أصّلوها أنفسهم ، واليك البيان :

أولاً — من المتفق عليه عند اللغويين والنحاة أنه لم يصل الينا من كلام العرب الا القليل ولو جاءنا وافراً لجاء علم كثير ، ومن المتفق عليه

---

(١) انظر مادة (ودع) في لسان العرب وتاج العروس .

(٢) الخصائص ١ / ٩٩ وكذلك ذهب سيبويه الى ان ماضي (يدع) لم يستعمل (الكتاب ٢/٢٥٦). وسترى أنه استعمل .

عندهم « أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن».

ثانياً — بعد هذا نرى أن ماذهب اليه النحاة واللغويين غير صحيح، فقد استعمل الكلمة أبو الاسود في بيته السابق ، ووردت في قول الشاعر .

وثم ودعنا آل عمرو وعامر   فرائس أطراف المثقفة السمر [1]

والعلماء يثبتون استعمال الكلمة بشاهد واحد إذا لم تخالف القياس، وكلمة (ودع) على مامر بك من كلام ابن جنى مطردة في القياس ، أما قوله (شاذة في الاستعمال)فيحبطها اعتراف النحاة بضآلة ما انتهى الينا من كلام العرب وأن أحكامهم عامة مبنية على الاستقراء الناقص ،وورودها مع ذلك في شعر أبي الاسود وشعر شاعر آخر .

ثالثاً — نأتي الآن الى قراءة التخفيف في قوله تعالى (ماودَعك ربك وما قلى) فقد قرأها كذلك عروة بن الزبير وابنه هشام وهما من هما ، بل ان الغريب في ذلك أن ابن جني نفسه نص في كتابه (المحتسب)على أنها قراءة النبي صلى الله عليه وسلم [2] !

وفي العباب للصاغاني :وقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم أصل هذه اللغة فيما روى ابن عباس أنه قرأ (ماودعك) مخففة ، وكذلك قرأ

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ٤/٧٦٦ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٥ هـ)

(٢) انظر كتاب القراءات واللهجات ض ١٤٧ .

عروة ومقاتل وأبو حيوة وابن أبي عبلة ويزيد النحوي [١].

هذا وفي النهاية لابن الأثير (وهو معجم لألفاظ الحديث) تحت مادة (ودع) حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه استعمال المصدر الذي زعموا أنه أميت وهو قوله : « لينتهين قوم عن ودْعهم الجمعات أو ليختمن على قلوبهم ».

والطريف أن بعض المحققين ممن تأخر زمانه عن أولئك صحح خطأهم فأثبت صاحب المصباح هذه اللغة الفصيحة في معجمه واستنكر ادعاءهم الإماتة فقال : « ودعته أدعه ودعاً تركته ... وزعمت النحاة أن العرب أماتت ماضي يدع ومصدره واسم الفاعل ، وقد قرأ مجاهد وعروة ومقاتل وابن أبي عبلة ويزيد النحوي « ماودعك ربك » بالتخفيف ، وفي الحديث: « لينتهين قوم عن ودعهم الجمعات .. » فقد رويت هذه الكلمة عن افصح العرب ، ونقلت من طريق القراء فكيف يكون إماتة ؟ » [٢] ومثل ذلك تجده في معجم (المغرب) للمطرزي [٢].

---

(١) انظر كتاب القراءات واللهجات ص ١٤٧

(٢) مادة (ودع) في : (المصباح المنير) ، و (المغرب) .

وقد رأيت بعد صدور الطبعة الاولى لهذا الكتاب حديثاً آخر فيه (ودع) وذلك بصدد الكلام عن عيينة بن حصن وأنه هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إن شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره .» ـ انظر الروض الانف للسهيلي ٢/١٨٧

وبذلك ترى تسرب الوهي الى بعض أحكامهم إذ كانت خطتهم ينقصها الإحكام في المنهج والكفاية في الاستقراء معاً ، وكان عليهم قبل إرسالها استيعاب قراءات القرآن على الأقل والاحتجاج بها .

٢ — من المعروف في العربية ان حرف العلة الزائد في الرباعي (صحيفة . عجوز ، سحابة) يقلب همزة في التكسير : (صحائف عجائز سحائب) ، فلما تواترت القراءة عن نافع المدني وابن عامر الدمشقي وهما إمامان عظيمان من أئمة القراء في قوله تعالى (وجعلنا لكم فيها معائش) بالهمز — وهي غير قراءة الجمهور — قرروا أنها خطأ ، وغالى المازني منهم فقال : «إن نافعاً رحمه الله لم يدرما العربية؟»[1] . وخطّأ همزها جميع نحاة البصرة على ماقال الزجاج .

وكان على نحاة البصرة تصحيح قاعدتهم أو تذييلها بأن العرب ربما حملت الحرف الأصلي على الزائد فعاملته معاملته إذ كان شبيهاً به في اللفظ[2] ثم عليهم أن يستشهدوا على ذلك بقراءة نافع هذه. وبذلك يزيد مذهبهم إحكاماً وانسجاماً مع أصوله التي أهمها البناء على السماع الصحيح . وأي

---

(١) صبح الاعشى ١ / ١٧٩ وانظر كلام الخفاجي على هذه الآية في حاشية البيضاوي.

(٢) احتج على النحاة بتواتر قول العرب (مصائب ومنائر) وهما مثل (معايش) في كون همزتهما مقلوبة عن حرف اصلي لا زائد ، فلم يسع النحاة الا المكابرة والحمل على الشذوذ .

سماع أصح من قراءة نافع وابن عامر والأعرج والأعمش وزيدبن علي روايةً عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الرواة فصحاء بمنابتهم ، علماء بتحصيلهم سليقيلون عاشوا ولم يتطرق الفساد الى ملكاتهم . وتعجبني كلمة أبي حيان في تفسيره تعقيباً على نقل الزجاج المتقدم : « ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة » لأن اللغة تثبت بالنقل لا بالمقاييس المبنية على الاستقراء الناقص .

٣ — « كان أهل الشام يقرؤون (إبرهام) بألف في مواضع دون مواضع (وهي لغة أهل الشام قديماً) ثم تركوا القراءة بالألف وقرؤوا جميع القرآن بالياء ... فرووا أنه قيل لمالك بن أنس : « إن أهل دمشق يقرؤون (إبرهام) فقال : « أهل دمشق بأكل البطيخ أبصر منهم بالقراءة » فقيل : « إنهم يدعون قراءة عثمان » فقال مالك : «ها مصحف عثمان عندي» ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ أهل دمشق ... وفي سائر المصاحف (إبراهيم) مكتوب بالياء في جميع القرآن إلا في البقرة فإنه بغير ياء »(١)

٤ — تدخل لام الأمر على المضارع الغائب في الأعم الأغلب ، وأنكر قوم دخولها على غيره ، ولم يكن لهذا الإنكار قيمة ما إذ «احتج على جواز إدخالها على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بالقراءة الشاذة «فبذلك

---

(١) القراءات واللهجات ١٠٩ — فثبت ان بصر اهل دمشق بالقراءة لا يقل عن بصرهم بأكل البطيخ .

فلتفرحوا » كما احتج على إدخالها على المبدوء بالنون بالقراءة المتواترة : « .. ولنحمل خطاياكم .. »[1]

٥ — وقال فريق : لا يجوز تسكين لام الأمر بعد (ثم) إلا في ضرورة الشعر . وقد أسقط المحققون هذا الحكم محتجين بالقراءة المتواترة : « ثم لْيقطعْ » « ثم لْيقضوا تَفَثَهم » فقد قرأ جمهور القراء السبعة بتسكين اللام »[2] .

نكتفي بهذه الأمثلة الصرفية ذاكرين مثالين نحويين :

٦ — قال السيوطي : « كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية (قلت : يعني العربية الصناعية التي وضعوها) وينسبونهم إلى اللحن ، وهم في ذلك مخطئون فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية ، وقد ردَّ المتأخرون ، منهم مالك ، على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد ... من ذلك احتجاجه على جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار بقراءة حمزة :

---

(١) الاقتراح للسيوطي ١٧ .

(٢) نظرة في النحو للمرحوم طه الراوي : مجلة المجمع العلمي العربي ١٤/٣٢٣ وانظر الاقتراح ص ١٨ . هذا وتمام الآية الأولى :

« من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ » سورة الحج ٢٢/١٥ والآية الثانية : « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطَّوَّفوا بالبيت العتيق » سورة الحج ٢٢ / ٢٩

« .. واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ إن الله كان عليكم رقيباً »[1].

وقبل ابن مالك علق الفخر الرازي على هذه القراءة وعلى منع المانعين لجوازها وعلى تجويز سيبويه لها ببيتين مجهولي القائل بقوله : « ... لأن حمزة أَحد القراء السبعة ، والظاهر أنه لم يأت بهذه القراءة من عند نفسه بل رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة ، والقياس يتضاءل عند السماع ، لاسيما بمثل هذه الأقيسة التي هي أَوهى من بيت العنكبوت » ثم تعرض لاستشهاد سيبويه السابق فقال : « والعجب من هؤلاء النحاة أَنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد ، مع أنهما من أَكابر علماء السلف في علم القرآن ! »[2].

٧ - في كتاب الإنصاف لابن الانباري[3] تفصيل الخلاف بين البصريين والكوفيين حول الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور ، فقد منعه البصريون وأَجازه الكوفيون محتجين بقراءة ابن عامر المتواترة :

« وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قتلُ أَولادَهم شركائهم ،

---

(١) الاقتراح ص ١٧ والآية هي الاولى من سورة النساء

(٢) تفسير الرازي ٣/ ١٩٣

(٣) ١ / ٢٤٩

لِيُرْدُوهم وَلِيَلبِسوا عليهم دينَهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرْهم وما يفترون » (١)

ولكن البصريين من النحاة تسرعوا فوهّوا هذه القراءة تعصباً لمقاييسهم النظرية . ومع أن القراءة ليست فهم فقد حملهم التعصب على القطع في مسألة من غير فهم ، لتسلم لهم قواعد وضعوها دون استقراء واف . فقد قالوا : إن **المضاف والمضاف اليه في حكم الشيء الواحد والكلمة الواحدة** فلا يفصل بينهما بأجنبي ، وإنما جاز الفصل بالظرف والجار والمجرور لاننا نتسامح فيهما ما لا نتسامح في غيرهما (٢) وهذا قول قد يتسق لو أن اللغة اخترعوها هم واخترعوا لها مقاييسها . أما واللغة سماع فقولهم لا ينهض حجة في شيء . ومن الذي أوحى اليهم أن المضاف والمضاف اليه بمنزلة الكلمة الواحدة ؟ وهلا فصلوا جزءي الكلمة الواحدة بالظرف والجار والمجرور كما فعلوا بالمتضايفين إذا كان الامر فيهما — كما يقولون — واحداً ؟ (٣)

---

(١) سورة الانعام

(٢) انظر الانصاف لابن الانباري ١ / ٢٥٠

(٣) تستطيع ادراك الوهي في امثال هذه الحجج المرتجلة إذا رجعت الى ص ٢١٨ من المصدر السابق نفسه حيث ترى البصريين انفسهم ينقضون ما قرروا هنا فيقولون عن الكوفيين : « وأما قولهم : (إن المضاف والمضاف اليه **بمنزلة الشيء الواحد** فجاز ترخيمه كالمفرد) قلنا : **هذا فاسد** لأنه لو كان معتبراً لوجب ان يؤثر النداء في المضاف اليه البناء كما يؤثر في المفرد . فلما لم يؤثر النداء فيه البناء دل على فساد ما ذهبتم اليه » — اه . وهكذا يرد البصريون على انفسهم .

ليس غريباً أن يكون هذا من النحاة في القرن الثاني وما بعده في زمن انقسام المدرستين وتحزب الأشياع لهما في عهد البدء بتدوين النحو ، ولكن الغريب أن يتم تدوين النحو وتدوين غيره من العلوم كالتفسير والحديث والقراءات واللغة ، وتحرر مسائلها ، ويمضي الزمن على ذلك حتى تنضج وتحترق - كما يقولون - ، ثم يأتي الزمخشري في المئة السادسة (توفي سنة ٥٣٨) وهو العالم المفسر النحوي البليغ ، فيرى لنفسه الحق أن يرسل الأحكام في فن لم يتقنه إتقان أهله ، فيردّ هذه القراءة المتواترة بكلام خطابي هذا نصه :

وأما قراءة ابن عامر (قتلُ أولادَهم شركائِهم) برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ؛ فشيءٌ لو كان في الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً... فكيف به في الكلام المنثور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته !؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء . ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ، لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم ، لوجد في ذلك مندوحةً عن هذا الارتكاب »[1] .

وفي هذا الكلام زلّتان كبيرتان يتنزه عنهما الشادي في علم القراءات؛ فأما الأولى : ففي جملته الأخيرة المشعرة بأن ابن عامر حرّ في اختراع

(١) تفسير الكشاف ٢ / ٧٠ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٥ هـ)

القراءة ، حتى لقد عجب بعضهم من هذا الجهل الساذج بما هو معروف ضرورة [١] ، والمقرر البديهي أن القراءة سماع محض لا مجال للاجتهاد فيها ؛ وأما الثانية : فظنه أن القارئ أسير الرسم [٢] ، وأن الذي حمل ابن عامر على جر (شركائهم) رسمها بالياء في المصحف الشامي ، وهذه شبه تلك في الجهالة ، فالقراءة تتلقى مشافهةً بالإسناد ، وهي ـ عادةً ـ توافق الرسم ، وليس لقارئ أن يقرأ قراءةً لم يتلقَّها ، وإن وافقت الرسم [٣] .

وعبد الله بن عامر هذا، إمام من أعلام القراء وكبار التابعين (١١ـ ١١٨ هـ) ، أَحد القراء السبعة وإمام الشاميين في قراءتهم تلقى قراءته عن كبار الصحابة كعثمان بن عفان وغيره وعن كبار التابعين ، وهو بعد ، من صميم العرب الذين يحتجُّ بكلامهم ، وقد تلقى قراءته هذه عن الأثبات وتلقاها عنه المئات ، وهو قاضي دمشق وشيخ مشايخ قرائها ،

---

(١) انظر كلمة التفتازاني في حاشية الأمير على مغني اللبيب ٢ / ١٨٨ (الطبعة الثانية — المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨)

(٢) وكثيراً مايسهو النحاة في مثل هذه المواقف اذ يرجمون بالظن في علم لم يتلقوه ، وانظر مثلاً أمالي ابن الشجري (١ / ٩٢) حين ظن ان وقوف القراء الستة (غير ابي عمرو بن العلاء) على (كأينْ) بالنون كان اتباعاً لخط المصحف ! مع أنها اللغة الأشيع التي تلقوها عن العرب الثقات شفاهاً .

(٣) لما زعم ابن مقسم العطار المقرىء النحوي (ـ ٣٥٤) « ان كل من صح عنده وجه في العربية لحرف من القرآن يوافق خط المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها . » أنكروا عليه — انظر إنباه الرواة ج ٣ / ١٠١ الحاشية (١).

وإمام جامعها الأعظم على عهد عمر بن عبد العزيز »[١] ، وكان على الزمخشري وهو أعجمي تخرج بقواعد النحاة المبنية على الاستقراء الناقص، أن يتحرى لنقد رجل عربي قويم الملكة فصيح اللسان حجة في لغة العرب ، شيئاً غير هذه الخطابيات .

وعلى هذا تكون هذه القراءة حجة قوية على الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور مثل القراءة الثانية في قوله تعالى (فلا تحسبن اللهَ مخلفَ وعدَه رسلِه إن الله عزيز ذو انتقام »[٢] ويكون هذا الفصل — على ندرته — عربياً قوياً . وكان المنهج السليم يقضي أن يصحح النحاة البصريون قاعدتهم محتجين بهذه القراءة كما فعل الكوفيون ، لا أن يضعّفوا قراءة متواترة يرويها المئات من فصحاء العرب المحتج بكلامهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ، فقراءات القرآن جميعها حجة في العربية متواترها وآحادها وشاذها ، وأكبر عيب يوجه الى النحاة عدم استيعابهم إياها ، وإضاعتهم على أنفسهم ونحوهم مئات من الشواهد المحتج بها ، ولو فعلوا لكانت قواعدهم أشد إحكاماً .

---

(١) نظرة في النحو للمرحوم طه الراوي . مجلة المجمع العلمي العربي ١٤/٣٢٢

(٢) سورة ابراهيم ١٤ الآية ٤٧ . قال الزمخشري في كشافه (٢/ ٥٦٦) وقرىء : (مخلفَ وعدَه رسلِه) بجر الرسل ونصب الوعد. وهذه في الضعف كمن قرأ (قتل أولادَهم شركائهم) اه وقد علمت آنفاً ما في حكمه هذا من الخطأ .

٢

الحديث الشريف

يراد بالحديث الشريف أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة التي تروي أفعاله أو أحواله أو ما وقع في زمنه، وقد تشتمل كتب الحديث على أقوال التابعين أيضاً كالزهري وهشام بن عروة وعمر بن عبدالعزيز. والذي جعل بعض اللغويين النحويين يثبتون أقوال التابعين هؤلاء مع الرسول والصحابة ثقتهم بصحة صدورها عنهم، فيحتجون بها في إثبات مادة لغوية أو دعم قاعدة نحوية أو صرفية.

وقد كان من المنهج الحق بالبداهة أن يتقدم الحديث سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الاحتجاج في اللغة وقواعد الإعراب، إذ لا تعهد العربية في تاريخها بعد القرآن الكريم بياناً أبلغ من الكلام النبوي ولا أروع تأثيراً ولا أفعل في النفس ولا أصح لفظاً ولا أقوم معنى؛ ولكن ذلك لم يقع كما ينبغي لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين إلى ثقافة ما زودهم به رواة الأشعار خاصة، انصرافاً استغرق جهودهم، فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودرايته بقية. فتعللوا لعدم احتجاجهم بالحديث بعلل، كلها وارد بصورة أقوى على ما احتجوا به هم أنفسهم من شعر ونثر.

ومع إجماع اللغويين والنحاة عامة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب قاطبة، وأن الحديث لا يتقدمه شيء في باب الاحتجاج إذا ثبت

لهم أنه لفظ النبي نفسه ، انقسموا فيما يروى من الأحاديث فريقين : فريقاً غلب على ظنه أنها لفظه عليه السلام فأجاز الاحتجاج بها ، وفريقاً غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ ، وإذاً لا يجيز الاحتجاج بها. ونحن عارضون بشيء من التفصيل المذهبين ثم خاتمون بما نرى أنه الأقرب إلى الحق مستندين إلى الحقائق التاريخية ووقائع الحال :

مذهب المانعين :

عبر عنه أبو حيان الأندلسي (ـــ ٧٤٥ هـ) خير تعبير إذ كان أشدهم مبالغة فيه ، وإنكاراً على مخالفيه ، ونحن نثبت من كلامه حجة المانعين في عدم الوثوق بأن المروي لفظ النبي ، ولهذا لم يحتجوا به قال :

« إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية ، وإنما كان ذلك لأمرين :

١ ـــ أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه صلى الله عليه وسلم فتنقل بألفاظ مختلفة كحديث :

« زوجتكها بما معك من القرآن »

وفي رواية أخرى « ملّكتكها بما معك من القرآن »

وفي الثالثة « خذها بما معك من القرآن »

وفي الرابعة : « أمكناكها بما معك من القرآن » . .

فنعلم يقيناً أنه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل

لا نجزم بأنه قال بعضها إذ يحتمل أنه قال لفظاً آخر مرادفاً لهذه الالفاظ فأتت الرواة بالمرادف ولم تأت بلفظه إذ المعنى هو المطلوب ؛ ولا سيما مع تقادم السماع وعدم ضبطه بالكتابة والاتكال على الحفظ ، والضابط منهم من ضبط المعنى وأما ضبط اللفظ فبعيد جداً ولا سيما في الأحاديث الطوال . . . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين أنهم إنما يروون بالمعنى .

٢ — الأمر الثاني : أنه وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث ، لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ذلك . وقد وقع في روايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، ونعلم قطعاً غير شك بأن رسول الله كان أفصح الناس ، فلم يكن ليتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها ، وإذا تكلم بلغة غير لغته فانما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة . . . » (١)

هذا دفاع أشدهم حماسة في المنع أوردته على ما فيه من مبالغة لنكون على علم بمذهبهم جملة وتفصيلاً . وأبو حيان أقام النكير على ابن مالك صاحب التسهيل لاحتجاجه بالحديث ، فاحتج عليه بما تقدم وبأن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن

---

(١) انظر الاقتراح للسيوطي ص ١٩ — ٢١

العلاء وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائي والفراء وعلي بن مبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك ، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس »[1] . وسترى أن هذا الزعم لا يقف على رجليه لأن أئمة موثوقين من المتقدمين احتجوا بالحديث فلم يكن ابن مالك بدعاً في أئمة النحو .

مذهب المجيزين :

هذا هو الأصل ، ونجد الاحتجاج بالحديث مالئاً معاجم اللغة ، فنظرة إلى معاجم (التهذيب للأزهري) و(الصحاح للجوهري) و (المخصص لابن سيده) و (المجمل ، ومقاييس اللغة لابن فارس) و (الفائق للزمخشري) كافية لدحض ما ادعى أبو حيان ، بل قد عد ابن الطيب[2] من أصحاب هذا المذهب من النحاة : ابن فارس وابن خروف وابن جني وابن بري والسهيلي ، بل إنه قال : لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف في هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان في شرح التسهيل وأبو الحسن الضائع (ـ٦٨٠) في شرح الجمل وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي (ـ ٩١١)[2] .

ولا عجب في أن يتدارك المتأخرون ما فات المتقدمين ، بل ان ذلك هو المنتظر المعقول ، إذ كان العالم من الأوائل يعلم روايات محدودة

---

(١) المصدر السابق

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٣/١٩٩ بحث (الاستشهاد بالحديث) للسيد محمد الخضر حسين

وخيرهم من صنف مفردات اللغة في موضوع واحد كالأصمعي مثلاً .
ثم جاءت طبقة بعدهم وصل إليها كل ما صنف السابقون فكانت أوسع إحاطة ، ثم جاءت طبقة بعد طبقة ، وألفت المعاجم المحيطة بكل ما اطلع عليه أصحابها من تصانيف ونصوص غاب أكثرها عن الأولين فكانوا أوسع علماً ، ولذلك نجد ما لدى المتأخرين من ثروة نحوية أو لغوية أو حديثية شيئاً وافراً مكنهم من أن تكون نظرتهم أشمل وأحكامهم أسد . ولو كانت هذه الثروة في أيدي الأقدمين كأبي عمرو بن العلاء والاصمعي وسيبويه . . لعضوا عليها بالنواجذ ولغيروا ـ فرحين مغتبطين ـ كثيراً من قواعدهم التي صاحبها ـ حين وضعها ـ شح المورد . ولكانوا أشد المنكرين على أبي حيان جموده وضيق نظرته وانتجاعه الجدب ، والخصب محيط به من كل جانب .

ثم أتى الإمام ابن مالك (ـــ ٦٧٢) فأكثر من الاستدلال بما وقع في الأحاديث على إثبات القواعد الكلية في لسان العرب ولا سيما في كتابه (التسهيل) إكثاراً ضاق به أبو حيان شارح (التسهيل) غير مرة ، حتى غلا في بعض هذه المرات فقال « والمصنف قد أكثر من الاستدلال بما ورد في الأثر متعقباً بزعمه على النحويين وما أمعن النظر في ذلك(!!) ولا صحب من له التمييز !!! [1] » كذا قال !.

---

(١) انظر الاقتراح للسيوطي ص ١٩ ـ ٢١

ثم جاء ابن هشام (— ٧٦١ هـ) تلميذ أبي حيان ونقيضه في مذهبه إزاء الاستشهاد في الحديث ، يكثر من الاحتجاج به في كتبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً كغيره من النحاة ، حتى لفت نظر مترجميه فنصوا على أنه « كان كثير المخالفة لشيخه أبي حيان ، شديد الانحراف عنه » (١)

وهؤلاء يردون اعتراضات المانعين في سهولة ويسر :

فأما المانع الأول وهو تجويز الرواية بالمعنى فيجيبون عليه بأن الأصل الرواية باللفظ ، ومعنى تجويز الرواية بالمعنى ان ذلك احتمال عقلي فحسب لا يقين بالوقوع ، وعلى فرض وقوعه فالمغير لفظاً بلفظ في معناه عربي مطبوع يحتج بكلامه في اللغة ، ونحن نعرف مقدار تحري علماء الحديث وضبطهم لألفاظه ، حتى إذا شك راوٍ عربي بين (على وجوههم) و(على مناخرهم) (٢) أثبتوا شكه ودونوه مبالغة في التحري والدقة . هذا إلى جانب كثير من الرواة صحابة وتابعين دوّنوا الأحاديث من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب الحديث حياة رسول الله ، وكذلك روي عن عبد الله بن عمر ، وأنس بن مالك ، وسهل بن سعد الساعدي من الصحابة الكرام . وهذا عمر بن عبد العزيز

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٩٣

(٢) في الحديث « وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم (او قال على مناخرهم) الا حصائد السنتهم . » انظر الحديث (٢٩) في الاربعين النووية .

(— ١٠١) يكتب إلى الآفاق أن : « انظروا ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبوه » ، ثم كان الزهري (— ١٢٤) وابن أبي عروبة (— ١٥٦) والربيع بن صبيح (— ١٦٠) ممن دونوا الحديث كتابة . ثم شاع التدوين في الطبقات التي بعد هؤلاء ، وهذا كاف في غلبة الظن بأن الذي في مدونات الطبقة الأولى لفظ النبي نفسه ، فإن كان هناك إبدال لفظ بمرادفه فإنما أبدله عربي فصيح يحتج به . وإن وقع بعد ذلك شك في بعض الروايات من غلط أو تصحيف فنزر يسير لا يقاس أبداً إلى أمثاله في الشعر وكلام العرب ، فكثير من الاشعار نفسها رويت بروايات مختلفة ، وبعضها موضوع وربما كان ما فطنوا إلى وضعه منه أقل من القليل ، وجاز عليهم أكثر الموضوع إذ كان واضعه قد أحسن المحاكاة ، قال الخليل بن أحمد : « إن النحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللبس والتعنيت .[1] »

وأنتم تحتجون بهذا الشعر والنثر على عُجَره وبُجَره ، هذا من حيث المتن ، وأما من حيث السند فقد عرف المجيزون والمانعون أن ما في روايات الحديث من ضبط ودقة وتحرٍ لا يتحلى ببعضه كل ما يحتج به النحاة واللغويون من كلام العرب .

وأما المانع الثاني وهو وقوع لحن في بعض الأحاديث المروية ، فهو

---

(١) الصاحبي ص ٣٠ المطبعة السلفية بالقاهرة

شيءٌ - إن وقع - قليل جداً لا يبنى عليه حكم ، وقد تنبه إليه الناس وتحاموه ولم يحتج به أحد ، ولا يصح أن يمنع من أجله الاحتجاج بهذا الفيض الزاخر من الحديث الصحيح إلا إن جاز إسقاط الاحتجاج بالقرآن الكريم لأن بعض الناس يلحن فيه . وأنت تعرف إلى هذا أنهم قد تشددوا في أخذ الناس بضبط ألفاظ الحديث ، حتى إذا لحن فيه شادٍ أو عاميّ أقاموا عليه النكير ، بل إن بعضهم ليدخله النار بسببه ، وكان هذا التشديد تقليداً متوارثاً في حملة الحديث حتى يومنا هذا . وانظر إن شئت ما أثبته في هذا الموضوع أحد أعلام الشام السيد جمال الدين القاسمي (-١٣٣٢هـ) :

« من قرأ حديث رسول الله وهو يعلم أنه يلحن فيه سواء أكان في أدائه أم في إعرابه ، يدخل في هذا الوعيد الشديد (يعني قوله صلى الله عليه وسلم : من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار) لأنه بلحنه كاذب عليه . »[1] اهـ .

قلت : حتى الذين يروونه بالمعنى يعظمون أمر اللحن في الحديث : فهذا إمام أهل الشام الأوزاعي يقول : «أعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ويقول : « لا بأس بإصلاح اللحن في الحديث . » وهذا

---

(١) قواعد التحديث من فن مصطلح الحديث ص ١٥٦ دمشق مطبعة ابن زيدون (١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥)

حماد بن سلمة يقول : « من لحن في حديثي فليس يحدّث عني . » وإليك هذه السلسلة :

عن الحسن بن علي الحلواني قال : « ما وجدتم في كتابي عن عفان لحناً فأعربوه فإن عفان كان لا يلحن » وقال لنا عفان : « ما وجدتم في كتابي عن حماد بن سلمة لحناً فأعربوه فإن حماداً كان لا يلحن . » وقال حماد : « ما وجدتم في كتابي عن قتادة لحناً فأعربوه فإن قتادة كان لا يلحن . » — انظر كتاب (الف باء) للبلوي ١/٤٤ .

وأغلب الظن أن من لم يستشهد بالحديث من المتقدمين لو تأخر به الزمن إلى العهد الذي راجت فيه بين الناس ثمرات علماء الحديث من رواية ودراية لقصروا احتجاجهم عليه بعد القرآن الكريم ، ولما التفتوا قط إلى الأشعار والأخبار التي لا تلبث أن يطوقها الشك إذا وزنت بموازين فن الحديث العلمية الدقيقة .

« وأما ما ادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين في عدم الاحتجاج بالحديث ، فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث ، وقد استدل بالحديث الشريف الصقلي والشريف الغرناطي في شرحيهما لكتاب سيبويه ، وابن الحاج في شرح المقرب ، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي ، وابو علي الشلوبين في كثير من مسائله ، وكذلك استشهد بالحديث السيرافي والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه وقال ابن الطيب : « بل رأيت

الاستشهاد بالحديث في كلام ابن حيان نفسه »[١].

وجرى على ذلك العلماء حتى عصرنا الحاضر، منهم المرحوم الاستاذ طه الراوي، فقد كان يذهب إلى الاحتجاج بما صح منها دون قيد ولا شرط، ويعرض للذين اعترضوا بوجود أعاجم في رواة بعض الأحاديث فيقول « والقول بأن في رواة الحديث أعاجم ليس بشيء، لأن ذلك يقال في رواة الشعر والنثر اللذين يحتج بهما فإن فيهما الكثير من الأعاجم؟ وهل في وسعهم أن يذكروا لنا محدثاً ممن يعتد به يمكن أن يوضع في صف (حماد الراوية) الذي كان (يكذب، ويلحن، ويكسر) ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج بمروياته، ولكنهم تحرجوا في الاحتجاج بالحديث ... ثم لا أدري لم ترفع النحويون عما ارتضاه اللغويون من الانتفاع بهذا الشأن، والاستقاء من ينبوعه الفياض بالعذب الزلال، فأصبح ربع اللغة به خصيباً بقدر ما صار ربع النحو منه جديباً :

وكان حالهما في الحكم واحدة   لو احتكمنا من الدنيا إلى حكم[٢]

وقبله بقليل عالج هذا الموضوع السيد محمد الخضر حسين في مجلة مجمع

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٣/٢٠٧ بحث السيد محمد الخضر حسين ـ هذا ويقال لأبي حيان : ابن حيان أيضاً لان أحد أجداده (حيان) .

(٢) نظرة في النحو (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٤ / ٣٢٥ ـ ٣٢٧)

اللغة العربية على خير ما يعالجه عالم ثبت مترو وقـاض منصف ،وانتهى من بحثه إلى النتيجة المرضية الآتية :

« من الاحـاديث ما لا ينبغي الاختـلاف بالاحتجاج به في اللغة (والقواعد) وهو ستة أنواع :

أولها – ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته عليه الصـلاة والسلام كقوله (حمي الوطيس) وقوله (مات حتف أنفه) وقوله(الظلم ظلمات يوم القيامة) الى نحو هذا من الأحاديث القصار المشتملة على شيء من محاسن البيـان كقوله (ارجعن مأزورات غير مأجورات) وقوله (إن الله لا يمل حتى تملوا) .

ثانيها – ما يروى من الأقوال التي كان يتعبد بها ، أو أمر بالتعبد بها كألفاظ القنوت والتحيات وكثير من الأذكار والأدعية التي كان يدعو بها في أوقات خاصة .

ثالثها — ما يروى على أنه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم .

ومما هو ظاهر أن الرواة يقصدون في هذه الأنواع الثلاثة إلى رواية الحديث بلفظه .

رابعها — الأحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها، فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليـل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها ،والمراد أن تتعدد طرقها إلي النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابة أو إلى التابعين الذين ينطقون الـكلام العربي فصيحاً .

خامسها - الأحاديث التي دوّنها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس وعبد الملك بن جريج والامام الشافعي.

سادسها - ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى مثل ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حيوة وعلي بن المديني (١)

ومن الاحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج به، وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول وإنما تروى في بعض كتب المتأخرين ...»

والحديث الذي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظه، هو الحديث الذي دوّن في الصدر الأول ولم يكن من الأنواع الستة المبينة آنفاً وهو على نوعين: حديث يرد لفظه على وجه واحد، وحديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه :

---

(١) قلت : لعل ذلك هو الغالب على رجال الحديث وغيرهم ممن يروي الحديث، ولذا كان اول المرغبات عندهم في تعلم العربية صيانة الفاظ القرآن والحديث من التحريف أولا وحسن فهمهما ثانياً ، قال الاصمعي « ان أخوف ماأخاف على طالب العلم اذا لم يعرف النحو ان يدخل في جملة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار) لانه لم يكن يلحن؛ فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه. » ـ اه مخطوطة الظاهرية لتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ الورقة ٤٨١/١ والاصمعي هذا هو الذي كان - على جلالة قدره في اللغة العربية - يتقي ان يفسر حديث رسول الله كما يتقي ان يفسر القرآن ! » مبالغة منه في التحري والورع . ـ انظر الورقة ٤٨٢/١ من الجزء نفسه

١ — أما الحديث الوارد على وجه واحد فالظاهر صحة الاحتجاج به ؛ نظراً إلى أن الأصل الرواية باللفظ ، وإلى تشديدهم في الرواية بالمعنى ويضاف إلى هذا كله عدد من يوجد في السند من الرواة الذين لا يحتج بأقوالهم ، فقد يكون بين البخاري ومن يحتج بأقواله من الرواة واحد أو اثنان وأقصاهم ثلاثة .

ومثال هذا النوع أن الحريري أنكر على الناس قولهم قبل الزوال (سهرنا البارحة) قال : وإنما يقال (سهرنا الليلة . ويقال بعد الزوال (سهرنا البارحة) اهـ . والشاهد على صحة ما يقوله الناس حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أصبح قال : (هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا ؟) وحديث : (وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح — وقد ستره الله — فيقول عملت البارحة كذا .) ففي قوله (إذا أصبح قال: هل رأى أحد منكم البارحة) وقوله (ثم يصبح فيقول عملت البارحة) شاهد على صحة أن يقول الرجل متحدثاً عن الليلة الماضية وهو في الصباح : سهرنا البارحة ، أو وقع البارحة كذا .

٢ — وأما الاحاديث التي اختلفت فيها الرواية ... فنجيز الاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة لم يغمزها أحد المحدثين بأنها وهم من الراوي [١] ..

---

(١) مثل لها الاستاذ بكلمة (قام النبي صلى الله عليه وسلم ممثلا) اي منتصباً ، والمعروف في كلام العرب انما هو (ماثل) . وانظرها في لسان العرب .

وأما ما يجيء في رواية شاذة ، أو في رواية يقول فيها بعض المحدثين : إنها غلط من الراوي [١] ، فنقف دون الاستشهاد بها .

وخلاصة البحث أنا نرى الاستشهاد بألفاظ ما يروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول وإن اختلفت فيها الرواية ، ولا نستثني إلا الألفاظ التي تجيء في رواية شاذة أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزاً لا مردّ له ، ويشدّ أزرنا في ترجيح هـذا الرأي أن جمهور اللغويين وطائفةً عظيمةً من النحويين يستشهدون بالألفـاظ الواردة في الحديث ولو على بعض رواياته .) [٢] اهـ .

٣ ــ كلام العرب

أما العرب المحتج بهم فقد عرفت من هم في القسم الثالث من هذا البحث بإسهاب فلا نعيد منـه هنا شيئاً ، فقد اقتصر النحاة على تدوين كلام القبائل الضاربين في وسط الجزيرة : كأسد وقيس وتميم وهذيل ، والذي دُوّن منـه كلام لبعض أفراد منهم . فإذا نسبت هؤلاء الأفراد إلى قبائلهم ، ثم نسبت هذه القبائل القليلة إلى قبائل العرب عامة ، عرفت صدق أبي عمرو بن العلاء وصحة مذهبه حين قال :

---

(١) مثل لها الاستاذ بكلمة(ان كلماته بلغت ناعوس البحر). وفي بقية الروايات « قاموس البحر » وناعوس غير معروفة في كلام العرب

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٣/٢٠٨ ـ ٢١٠

« ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير . » ومن ينعم النظر في معاجم اللغة وكتب قواعدها يجد كتب اللغويين أوفرَ حظاً في الاستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة ؛ ويجد النحاةَ يكادون يقتصرون على الشعر . وزادت عنايتهم بالشواهد الشعرية مع الزمن ؛ حتى « كان مسحل يروي عن علي بن المبارك الأحمر أربعين ألف بيت شاهداً في النحو »[1] ، بل كان أبو بكر الأنباري (ـــ ٣٢٨) يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم »[2] . ونحن إن قابلنا الشواهد النثرية عند هؤلاء وأولئك بالشواهد الشعرية وجدناها ضئيلة جداً ، فإذا أضفت إلى ذلك كله ، حملهم على الضرورة الشعرية كل شعر لم ينطبق على قواعدهم ومقاييسهم[3] التي بنوها على استقراء ناقص جداً ، عرفت أن أساس

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٢، ٣١٨ ، ٣٣٤.

«٢» طبقات الحنابلة ص ٣٢٨

«٣» بل كان بعض قدماء النحاة لايستشهد بشعر جرير والفرزدق والاخطل ، ولا يتورع عن تلحينهم فيما لاينطبق على قواعدهم . هذا عبد الله بن إسحق الحضرمي وهو مولى يلحن الفرزدق في قوله :

مستقبلين شمال الشام تضربنا ... بحاصب من نديف القطن منثور

على عمائمنا تلقى ، وأرحلنا ... على زواحف تزجى ،مخها رير

ويقول له : « الا قلت : على زواحف نزجيها محاسير » فيغضب الفرزدق قائلاً « والله لأهجونك ببيت يكون شاهداً على ألسنة النحويين أبداً »ويهجوه بقوله : =

تلك القواعد والقوانين غير متين من الناحية النظرية على الأقل .

= فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

الشعر والشعراء ٣٥ « بتحقيق احمد محمد شاكر وانظر خزانة الأدب للبغدادي « ١ / ٢١٧ – ٢١٩ » طبع السلفية ومراتب النحويين ص ١٢ فيستمر عبد الله في تلحينه ذاهباً الى انه ينبغي ان يقول : مولى موال .

ولما سمع قول عثمان البتي الفصيح الرائع الملقب بالعربي لفصاحته الذي قال فيه يونس : « ماجاءنا عن أحد من روائع الكلام ماجاءنا عن البتي » لما سمع قوله :

كورهاء مشنيّ إليها حليلها

قال : أخطأ عربيكم ؛ إنما هو : مشنوء . » — إنباه الرواة ٢ / ٣٤٤ توفي البتي سنة ١٤٣ ﻫ

ومن قبله كان يونس بن حبيب يؤاخذ رؤبة واباه العجاج باشتقاقات يشتقانها على غير القياس عنده حتى ضاق به رؤبة وقال له : « علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا . »

هذا « وقد ارتقى ببعضهم الامر الى تلحين بعض فحول الجاهلية كما وقع لعيسى ابن عمر . فانه كان يقول : أساء النابغة بقوله : « . . . في انيابها السم ناقع » وكان عليه ان يقول « ناقعاً » . وعيسى هذا معروف مثل ابن أبي إسحق بأنه كان يطعن على العرب ويخطىء المشاهير منهم » إنباه الرواة ٢ / ٣٧٥ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٦

ويقول ابن فارس : « ماجعل الله الشعراء معصومين يوقون الغلط والخطأ ، فما صح في شعرهم فمقبول ، وما أبته العربية وأصولها فهو مردود كقوله :

ألم يأتيك والأنباء تنمي

وقوله : لما جفا إخوانه مصعباً

وقوله : قفا عند مما تعرفان ربوعِ

فكله غلط وخطأ » اﻫ — مجلة المجمع العلمي العربي ١٤ / ٣٢٧

(٥)

بعض قواعدهم في الاحتجاج [١]

١ ـ المسموع إما مطرد وإما شاذ . والاطراد والشذوذ أربعة أضرب :

١ — مطرد في القياس والاستعمال معاً ، كرفع الفاعل ونصب المفعول . وهذا أقوى مراتب الكلام .

٢ — مطرد في القياس شاذ في الاستعمال نحو الماضي من يذر ويدع [٢]. وقولهم (مكان مبقل) هذا هو القياس ، والأكثر في السماع (باقل) ، وكذا مجيء منصوب عسى اسماً صريحاً مثل (عسى زيد قائماً) غير أن الأكثر مجيئه فعلاً .

٣ — مطرد في الاستعمال شاذ في القياس ، نحو قولهم : (استحوذ استنوق ، استصوب) والقياس الإعلال (استحاذ ..) .

٤ — شاذ في القياس وفي الاستعمال معاً كقولهم : ثوب مصوون ، وفرس مقوود [٣] .

«١» مقتبسة بتصرف من كتاب « الاقتراح للسيوطي » ص ٢٤ ـ ٤١

«٢» علمت ما في هذا الحكم من خطأ ص ٣٠

«٣» **تتمة** قال ابن هشام :

اعلم انهم يستعملون « غالباً ، وكثيراً ، ونادراً وقليلا ، ومطرداً » فالمطرد لا يتخلف، والغالب اكثر الاشياء ولكنه يتخلف ،والكثير دونه ، والقليل دونه، والنادر أقل من القليل . فالعشرون بالنسبة الى « ٢٣ » غالب ، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثير لا غالب ، والثلاثة قليل ، والواحد نادر .

٢ — لا تشترط العدالة في العربي المروي عنه وإنما تشترط في الراوي

٣ — يقبل ما ينفرد به الفصيح لاحتمال أن يكون سمع لغة قديمة باد المتكلمون بها .

٤ — اللغات على اختلافها حجة كلها . ألا ترى أن لغة الحجازيين في إعمال (ما) ، ولغة التميميين في تركه ؟ كل منهما يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها [١] .

٥ — في تداخل اللغات :

إذا اجتمع في كلام الفصيح لغتان فصاعداً كقوله :

وأشرب الماء مابي نحوهُ عطش　　إلا لأن عيونه سال [٢] واديها

فقال (نحوهُ) بالإشباع و (عيونهْ) بالإسكان ... اعتبرتا معاً ، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها وسعة تصرف أقوالها ويجوز أن تكون لغته إحداهما ، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى .. قال الأصمعي : اختلف رجلان في (الصقر) فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما ، فحكيا ماهما فيه ، فقال : « لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزقر » وعلى هذا يتخرج جميع ماورد من التداخل

«١» قلت : أورد ابن فارس في كتابه « الصاحبي » طائفة من هـذه اللغات ثم قال : « . . وكل هذه اللغات مسماة منسوبة الى اصحابها . . وهي وان كانت لقوم دون قوم ، فانها لما انتشرت تعاورها كل . » — الصاحبي ص ٢٢

«٢» كذا ، والذي في لسان العرب مادة «ها» : « سيْلُ واديها » ولعلها الصواب

نحو لغة (قلى يقلى) أخذ ماضيها من لغة (قلى يقلي) ومضارعها من لغة (قلي يقلى) ومثلها (سلى يسلى) .

٦ — إذا دخل الدليل الاحتمال سقط به الاستدلال .

ردّ أبو حيان بهذه القاعدة على ابن مالك كثيراً في مسائل استدل بها ، منها استدلاله على قصر (الأخ) بقوله :

أخاك الذي إن تدعه لملمة　　　يجبك بما تبغي ويكفيك من يبغي

فإنه يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار فعل (الزم) . وبهذا لا يصح الاستدلال بالبيت على قصر (الأخ) .

٧ — كثيراً ما تروى الأبيات على أوجه مختلفة ، ويكون الشاهد في بعض دون بعض .

روي قول الشاعر :　　　ولا أرض أبقلَ إبقالَها

على وجه ثان :　　　ولا أرض أبقلتِ ابقالَها

بالتذكير مرة ، وبالتأنيث مع نقل حركة الهمزة إلى التاء مرة أخرى ، فإن صح أن القائل بالتأنيث هو القائل بالتذكير ، صح الاستشهاد به على الجواز من غير الضرورة ، وإلا فقد كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على سجيته التي فطر عليها . ومن هنا تكثر الروايات في بعض الأبيات .

٨ — لا يحتج في اللغة العربية بكلام المولدين والمحدثين ، فابن هرمة (ـــ ١٥٠) آخر الإسلاميين المحتجّ بأقوالهم، وبشار (ـــ ١٦٧) رأس المحدثين

غير المحتج بكلامهم [١] .

٩ — لا يجوز الاحتجاج بشعر ولا نثر لا يعرف قائله إلا إذا رواه عربي ممن يحتج بكلامه [٢] ، مخافة أن يكون لمولد أو لمن لا يوثق بفصاحته ، فمثلاً أجاز الكوفيون :

١ — إظهار (أن) بعد (كي) مستشهدين بقول الشاعر :

أردت لكيما أن تطير بقربتي　　　فتتركها شناً ببيداء بلقعِ

٢ — وأجازوا دخول اللام في خبر لكن واحتجوا بقول الشاعر :

ولكنني من حبها لعميد

وكلا الرأيين لا يثبت لأن البيت الأول مجهول القائل فلا يحتج به ، والشطر الثاني لا يعرف قائله ولا شطره الأول ، وما بني عليهما غير صحيح [٣] .

(٦)

خاتمة

الآن ، وبعدما تقدم كله ، نستطيع أن نجمل الرأي في صنيع النحاة

«١» سبق هذا ص ١٧

«٢» انظر القياس في اللغة العربية للسيد محمد الخضر حسين ص ٣٨

«٣» وابن هشام لايسلم دائماً باسقاط الاحتجاج بالمجهول وهذه حجته : «ولو صح ذلك لسقط الاحتجاج بخمسين بيتاً من كتاب سيبويه فان فيه الف بيت عرف قائلوها وخمسين مجهولة القائلين» اهـ . قلت : وليكن ذلك ، وماذا فيه ؟ والمنهج الحق يقتضي هذا الاسقاط .

المتقدمين حول الاحتجاج في النظرات الآتية :

١ — لم يصدروا في تنسيق شواهدهم عن خطة محكمة شاملة ، فأنت تجد في البحث من بحوثهم قواعد عدة ، هذه تستند إلى كلام رجل من قبيلة أَسد ، وتلك إلى كلام رجل من تميم ، والثالثة إلى كلمة لقرشي . وتجد على القاعدة تفريعاً دعا إليه بيت لشاعر جاهلي ، واستثناء مبنياً على شاهد واحد اضطر فيه الشاعر إلى أَن يركب الوعر حتى يستقيم له وزن البيت . ولعل عذرهم في ذلك أنه ليس لديهم نصوص مصنفة على القبائل ، فلم يُعن الرواة ولا المؤلفون الأولون بأَن يذكروا كلام كل قبيلة في نسق ، حتى يأْتي النحوي فيستنبط قواعد كل لهجة على حدة خطوة أولى ، ثم يبحث عن الأشيع في لهجات القبائل فيقعّد عليه قواعده . ويصدق عليهم في ذلك تماماً ما يأخذه الأستاذ أحمد أمين على واضعي المعاجم الذين حشروا اللغات واللغيات واللهجات والتصحيفات والضرورات معاً فتضخمت معاجمهم تضخماً زائداً « وكان الأولى أن تستبعد اللثغات ويحقق التصحيف وتترك اللهجات [1] » ، واذاً لاختصرنا حيزاً كبيراً من معاجمنا . ولرمينا بكثير من البلبلة والفوضى والاضطراب يعانيه متصفح

«١» انظر ضحى الاسلام ١ / ٣١٩ . فكثيرا ماتتغاير اللهجات فتضع حرفاً مكان حرف ف« عتا و عاث » و « الشائع والشاعي » وما اليها خلاف لهجات فحسب ، لكن المدونين جعلوها مواد مستقلة فزادوا في حجم موسوعاتهم زيادة غير قليلة ، والمادة في الاصل واحدة .

هذه المعاجم ، الذي كثيراً ما يحار بين الأقوال والروايات المتضاربة : أيها يأخذ وأيها يدع ؟

وهذا نفسه فعله النحاة . فلو سئلنا : على لغة أية قبيلة ينطبق نحوكم الذي تدرسونه اليوم ؟ ما استطعنا تسمية القبيلة باطمئنان ، بل نكون أقرب إلى دقة إذا أجبنا إنه أسس على خليط لا نظام له مما روي على أنه تكلمت به العرب .

وعلى أن الخليل بن أحمد رحمه الله وضع بما أوتي من ذهن رياضي علمي منظم خطة قريبة ، وأخذ نفسه — فيما نظن — بها ، ان الذين أتوا بعده انحرفوا كثيراً عن المنهج وحشروا في بحوثهم ما قرب وما بعد ، وما صح ولم يصح ، إرادة المكاثرة والمفاخرة في العلم :

قال رجل للخليل : « أخبرني عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟» فقال : « لا » فقال : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ » فقال : « أحمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات . »[1]

فأنت ترى أن إمام البصريين خط للنحو خطة هي أشبه بالتشذيب منها بالتنظيم ، فقد أهدر كثيراً مما يتكلم به العرب لتسلم له قواعد غالبية بقدر الامكان .

«١» انظر ضحى الاسلام ٢ / ٢٥٩

وعلى قصور هذه الخطة فقد كان الخير في اتباعها وتعاهدها بالإحكام مع الزمن ، فنهج قريب يتبع بأمانة وإصلاح خير من لا نهج ، وهذا ما لم يكن مع الأسف الشديد .

٢ — لم يدرسوا الرواة وأحوالهم ومن منهم الثقة الضابط ومن منهم الوضاع والمخلط ، فلم نعرف عن طبقات رواة اللغة ما عرفنا عن طبقات المحدثين ، ولا حظي فن الرواية اللغوية ببعض ما حظي به فن رواية الحديث ، ومع أن بعضهم حاول تقليد المحدثين في الجرح والتعديل فكان ينص في ترجمة الخليل وأبي عمرو بن العلاء مثلاً على أمانتهما وينص في ترجمة قطرب بما يشعر بكذبه ، ويشير إلى تزيد الاصمعي .. إن صنعهم أشبه بتقليد ابتدائي لا علمية فيه .

٣ — لم يحققوا النصوص التي بنوا عليها لا سنداً ولا متناً ، أما السند فكثيراً ما تجد الشاهد في كتبهم منسوباً إلى غير قائله ، وأما المتن فكثيراً ما تجده مروياً عندهم على غير الصحيح ويبنون قاعدتهم على موضع الخطأ منه[1] . وكان عليهم أن يتقصوا الروايات المختلفة ويحققوها متحرين صحيحها

«١» واليك امثلة على ذلك :

١ — استشهدوا بهذين البيتين :

أردت لكيما أن تطير بقربتي ... فتتركها شنا ببيداء بلقع ،

فقالت أكل الناس اصبحت مانحاً ... لسانك كيما أن تغر وتخدعا

على جواز ورود « أن » بعد « كي » في الشعر ، وقالوا في البيت الاول « كي »—

من زائفها ، وإذاً يستطيعون الاطمئنان إلى ما يبنون عليها من قواعد .

—اما تعليلية مؤكدةللام ، واما مصدرية مؤكدة بـ «أن» ، ويرى الاخفش أن « كي » حرف جر وأن الناصب للفعل كلمة « أن » اما ظاهرة كما في البيت الثاني واما مضمرة .

اما البيت الاول فلا يعرف قائله كما تقدم ، ولذا لايصح الاحتجاج به ، واما البيت الثاني فروايته خطأ ، وقد رآه السيوطي نفسه في ديوان جميل ليس فيه جمع « أن » و « كي » ورواية الديوان :   نسانك هذا كي تغر وتخدعا

واذاً لاأصل لما ذكروا من جواز وضرورة وتخريج . فلا تجتمع ، « أن » و « كي » في نص صحيح .

انظر معاً : مغني اللبيب لابن هشام . مادة (كي) ، و (أوضح المسالك) للمؤلف نفسه باب نصب المضارع ، وشرح شواهد المغني للسيوطي : (شواهد كي) ص ١٧٣ وشرح شذور الذهب لابن هشام ص ٣٤٧ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

٢ — قال سيبويه : « ومما جاء من الشعر في الإجراء على الموضع (أي مراعاة المحل لا اللفظ في الاعراب) قول عقيبة الاسدي :

معاوي اننا بشر فأسجح   فلسنا بالجبال ولا الحديدا

أديروها بني حرب عليكم   ولا ترموا بها الغرض البعيدا » الكتاب ١/٣٤

وأبيات عقيبة هذا مشهورة ، كلها مجرور الآخر منها

أكلتم أرضنا فجردتموها   فهل من قائم أو من حصيد

واذاً لاشاهد فيها على ماأورده سيبويه . وقد حاول بعضهم الاعتذار عن سيبويه بأن مقطوعة أخرى فيها هذا البيت ، منصوبة الآخر ومنها البيت الثاني لشاعر آخر هو ابن الزبير الاسدي ، ولا عذر بعد تصريح سيبويه بأن شاعره عقيبة الاسدي .

انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٥ (بتحقيق احمد محمد شاكر) وخزانة الادب للبغدادي ٢ / ٢٢٥ (طبعة السلفية) .

ورحم الله ابن سلام إذ قال « وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر ، ولا يضبط الشعر إلا أهله »[1]

٤ — تفريطهم بقسم كبير من اللغة حين أهملوا الاحتجاج ببعض القراءات التي قرىء بها القرآن الكريم ، والاحتجاج بالحديث النبوي وفي ذلك إهدار لجزء غير يسير من أبلغ الكلام العربي وأعلاه . بل لقد أخطؤوا حين تهاونوا بكتب الامام الشافعي ومن في طبقته من الفصحاء الذين نشؤوا في بيئة سليمة ولم يتطرق الفساد إلى لغتهم ، وهذه إضاعة أسف لها حتى علماء المشرقيات من الأجانب ، والحق كل الحق معهم ، فقد ذهبوا إلى أن « بتدوين مثل الشافعي علوم الشريعة إغناءً للغة العربية بوسائل التأدية ، أكثر مما أغناها به كثير من الشعراء . وهذه الناحية — مع الأسف — أهملها علماء الشرق إهمالاً تاماً واشتغلوا بشواهد لشعراء

= ٣ — استشهدوا على لغة (أكلوني البراغيث) بالحديث الصحيح :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ... »

واكثر بن مالك بالاستشهاد به حتى صار يسمى هذه اللغة (لغة يتعاقبون) . ولو تحروا الشاهد لعلموا انه مختصر من حديث مطول رواه البزار أوله :

« ان لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .. »

واذاً لاشاهد فيه وبقيت لغة البراغيث) محتاجة الى شاهد صحيح .

— انظر الاقتراح للسيوطي ص ٢٢

(١) طبقات الشعراء ص ٥٠

مجهولين . فكان هذا الاشتغال عبثاً إذا قيس بذلك الإهمال . »[١]

ومما تقدم تعلم أن الصورة التي تتمثل في ذهن من يعالج النحو واللغة في كتبها القديمة غير صحيحة التعبير ولا صادقته عما كانت عليه اللغة العربية شعراً ونثراً ، وستسلّم إلى حد بعيد بما ذهب إليه إسرائيل ولفنسون من أن حالة اللغة العربية عند ظهور الاسلام يجب أن تبحث في القرآن أولاً ، ثم في الأحاديث ثانياً ، ثم في الأمثال ثالثاً . . . « ثم في الشعر الجاهلي على تحفظ . »[٢]

إن ما مر بك من هذا البحث حتى الآن عن نقص في النظام والتحري في مرويات اللغويين والنحاة ، يجعلك تسلم بما ذهب إليه هذا العالم دون تردد .

---

(١) (التطور النحوي) لبرجستراسر (أملاه في كليه الآداب بالجامعة المصرية) ص ١٣٨ . هذا وقد عرف الاقدمون للشافعي قوة سليقته وعلو كعبه في اللغة حتى وصفه عالم من أهل زمانه هو عبد الملك بن هشام صاحب السيرة (—٢١٣) فقال « جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة الا (اذا) اعتبرها المعتبر لا يجد كلمة في العربية أحسن منها » و « كان قوم من أهل العربية يختلفون الى مجلس الشافعي معنا ويجلسون ناحية ، فقلت لرجل من رؤسائهم : « انكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا؟ قالوا : « نسمع لغة الشافعي » . وتصحيح الاصمعي عليه شعر الهزليين مشهور ، عند الادباء وبحق قال ابن هشام المذكور : « الشافعي لغة يحتج بها » انظر ارشاد الاديب ١٧/٢٩٩ .

(٢) انظر تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ونفنسون ص ٢١٣ — ٢١٧ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

القياس

القياس

١ — من تاريخ القياس والقياسيين . ب — أثر العلوم الدينية فيه .
ح — من احكام القياس . د — المصريون والقياس .

أبرز فرق بين علم اللغة وعلم الصرف والنحو أن الأول طريقه السماع والثاني طريقه القياس ولذلك عرفوا النحو بأنه :

« علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب » .

وأدق من ذلك في رأيي قول الكسائي :

« إنما النحو قياس يُتّبع » [(١)] .

إذ لست أعقل النحو إلا استقراء ثم قياساً .

أما القياس نفسه هنا فحمل غير المنقول على المنقول في حكم لعلة جامعة [(٢)] وهم يعمدون إليه إذا كان المنقول عن العرب مستفيضاً بحيث

---

(١) مطلع قصيدة له ذكرها القفطي في ترجمته — انباه الرواة ٢/٢٦٧ وانظرها في تاريخ بغداد .

(٢) قال ابن الانباري : مثل ان تركب قياساً في الدلالة على رفع ما لم يسم فاعله فتقول :

اسم اسند الفعل اليه مقدماً عليه فوجب أن يكون مرفوعاً قياساً على الفاعل . فالفاعل : أصل مقيس عليه ، ونائبه : فرع مقيس ، والحكم الرفع ، والعلة الجامعة الاسناد . (عن الاقتراح للسيوطي ٤٧) .

يطمأن إلى أنه كثير في كلامهم كثرة أرادوا معها القياس عليه .

وسأتناول طرفاً من تاريخه وما أفادت العربية منه ، ثم أتكلم على أركانه ، ثم أختم بعمل المحدثين فيه وما يرجى للغتنا من فوائده لا يأمنا هذه .

(أ)

من تاريخ القياس

استقرى مدوّنوا النحو ما وصلهم من كلام العرب وراعوا الحكم السائد في الأعمّ الأغلب منه ، فدققوا علله وصنفوها ثم وضعوا قوانينهم المطّردة . ولا شك في أن بعض المنقول من مختلف اللهجات يخرج على هذه القوانين ، فحاول النحاة تسجيله وتذييل بعض أحكامهم باستثناءات وتفريعات ، وبذلوا في ذلك جهداً صادقاً حتى لا يشذّ على قوانينهم شيء ذو بال ، وحتى تكون محيطة بكلام العرب على قدر الإمكان ومع ذلك شذّت على استثناءاتهم وقيودهم بعض نوادر لا قيمة لها . وإنما العبرة بما اطرد في أكثر كلامهم .

كان هناك فريقان من علماء العربية : فريق حاول قصر الناس على السماع والتزامه والجمود عليه ، فلم يكتب لمذهبه البقاء لمخالفته طبائع الأشياء ولأنّ من غير المعقول أن يكون كلامنا كله بمفرداته وتراكيبه وارداً عن العرب ، فالعرب إذا قالت مثلاً (كتب زيد) « فإنه يجوز أن يسند

هذا الفعل إلى عمرو وبشر وأردشير . . إلى ما لا يدخل تحت الحصر وإثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النقل محال »(١) .

القياسيون : والفريق الثاني هم أهل القياس أصحاب مذهب « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول وإنما سمعت بعضها فقست عليه غيره »(٢) ، وإليهم يرجع الفضل في حياة اللغة الحياة النشيطة حتى أيامنا هذه ، فقد حافظوا على روحها وتعهدوها بالغذاء فنمت وبسقت وأظلت فروعها حضارات مختلفات . ومع انتسابهم جميعاً إلى مذهب القياس يتفاوتون فيما بينهم فيه توسيعاً وتضييقاً .

---

(١) الاقتراح ص ٤٧ .

(٢) كلمة المازني وابي علي الفارسي — انظر الخصائص ١ / ٣٥٧ ، ٢ / ٢٥)
قال ابو علي « اذاقلت (طاب الخُشْكُنان) فهذا من كلام العرب لانك باعرابك اياه قد أدخلته كلام العرب ، ويؤكد هذا عندك أن ما أعرب من أجناس الاعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامها ، ألا تراهم يصرفون في غير العلم نحو (آجر ، وإبْرَيْسَم ، وفرند ، وفيروزج وجميع ماتدخله لام التعريف ، وذلك انه لما دخلته اللام في نحو الديباج والفرند والسهريز والآجر أشبه أصول كلام العرب أعني النكرات فجرى في الصرف ومنعه مجراها . » (١ /٣٥٧) .

الخشكنان : خالص دقيق الحنطة اذا عجن بشيرج وبسط ومليء بالسكر واللوز والفستق وماء الورد وجمع وخبز ؛ وأهل الشام تسميه المكفن . — تذكرة داود ١ /١٢٩ ،

والسهريز : ضرب من التمر ، بالوصف والاضافة .ــ المعرب للجواليقي ١٩٩.

لم يكن أرباب القياس على بدع من الأمر ، فأصحاب اللغة أنفسهم اتسعوا في طردها وتصريفها واشتقاقها بما سبقوا به أرباب القياس أنفسهم « فإن الأعرابي إذا قويت فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه [إليه] أحد قبله »(١) هذا رؤبة وأبوه العجّاج الراجزان المشهوران « إنهما قاسا اللغة وتصرفا فيها وأقدما على ما لم يأت به من قبلهما (٢) » ؛ « وحكى أنهما كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سبقا إليها (١) » ومن يتصفح شعر الراجزين يجد مصداق هذا القول .

ونحن نجد النزعة إلى تعميم القياس قديمة من أيام الخليل ، كما نجد إلى جانبها نزعة محافظة معتدلة يمثلها أمثال ابن قتيبة ، فقد ذهب في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) إلى أنه ليس لمتأخر الشعراء « أن يقيس على اشتقاقهم فيطلق ما لم يطلقوا » (٣) واستشهد لذلك برأي الخليل فقد ذكر أن الخليل بن أحمد أتاه رجل فأنشده :

ترافع العزُّ بنا فارْفَنْعَعا

فقال الخليل : « ليس هذا شيئاً . (٤) » فقال الرجل : كيف جاز

---

(١) الخصائص ٢/٢٥ .

(٢) الاقتراح للسيوطي ص ٥٣ .

(٣) الشعر والشعراء ص٢٣ تحقيق وشرح احمد محمد شاكر (القاهرة ١٣٦٤هـ).

(٤) وقد اعتذر ابن جني ــ وهو من رؤوس مدرسة القياس ــ لمنع الخليل بعذر فني ، ذلك ان علة المنع كون لام الفعل حرف حلق وتكرير حرف الحلق مستنكر=

للحجاج أن يقول :

تقاعس العزّ بنا فاقْعَنْسَسَا

ولا يجوز لي ؟!

ويروى عن بشار أنه كان يقيس ما لم يرد على ما ورد فرأى العرب صاغت (فَعَلى) وصفا فقالت : جَمَزَى من (الجمز) وهو السرعة فقاس هو أيضاً (فَعَلى) فقال :

الآن أقصر عن سميّة باطلي — وأشار بالوَجَلى علي مشير

وقال: على الغَزَلى مني السلام فربما — لهوت بها في ظل مُخْضَلّة زهر

فعابوه وقالوا « لم يسمع من العرب وَجَلى ولا غَزَلى »[1] وقع هذا

= عندهم مستثقل — (انظر الاقتراح للسيوطي ص ٥٣) وقال ابن جني أيضاً : «العرب لم تبن هذا المثال مما لامه أحد حروف الحلق . (انما هو مما لامه حرف قوي وذلك نحو اقعنسس واسحنكك واكلندد واعفنجج ، فلما قال الرجل للحليل (فارفنععا) أنكر ذلك من حيث أرينا » — الخصائص ١ /٣٦٢) .

اكلندد : غلظ واشتد . اعفنجج : أسرع .

(١) الموشح للمرزباني ص ٢٤٦ ، وانظر محاضرة الاستاذ احمد امين في مجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ (مدرسة القياس في اللغة) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ نقل ابن السكيت في كتابه (المقصور والممدد) مايلي :

قال الاصمعي : « لم اسمع (فعلى الا في المؤنث ، الا في بيت لأمية بن ابي عائذ في المذكر :

كأني ورحلي اذا رعتها — على جمزى جازىء بالرمال» — المزهر ٢/٧١ الحمار الجمزي : السريع والجازىء : المكتفي .

وأمثاله في المئة الثانية للهجرة ، فأصبح من الطبيعي أن ينشأ حول القياس أخذ ورد بين المجيزين والمانعين أو بين المجددين والمحافظين ؛ وأن ينتهي هذا الجدل بنشوء مدرسة للقياس لها رسومها ونظمها ، حاولت فرض سيطرتها حتى على أصحاب اللغة فخطؤوا بعض الشعراء الجاهليين والاسلاميين وحكموا على أبيات بالشذوذ لعدم انطباقها على قواعدهم ، وما بلاء الفرزدق بابن أبن اسحق ببعيد عنك فينسى [١] ولا خبر عيسى بن عمر ، وعيسى هذا ذكروا انه كان ينزع إلى النصب إذا اختلفت العرب ،.. وضع كتابه على الاكثر (الأشيع) وبوبه وهذبه، وسمى ماشذ عن الاكثر لغات »[٢] وان أبي اسحق — على ما قال ابن سلام — « أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل ، وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وكان ابن أبي إسحق أشد قياساً وابو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغتها وغريبها»[١] وخير مايمثل اتجاهه جوابه حين سأله يونس : «هل يقول أحد: الصويق — يعني السويق ؟ » قال : « نعم ، عمرو بن تميم تقولها . وما تريد إلى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد وينقاس . » وهذه عناية القياس تلفت النظر إلى الذهنية القياسية التي وجدت منذ القديم ، وابن أبي إسحق هذا هو الذي قال فيه يونس «لو كان في الناس اليوم أحد لا يعلم إلا علم ابن أبي إسحق يومئذ لضحك منه . ولو كان فيهم من له ذهنه

---

(١) انظر ص ٤٨ من هذا الكتاب .

ونفاذه ونظر نظره لكان أعلم الناس »[١].

كان أهم الأعلام في هذه المدرسة حينئذ الخليل وتلميذه سيبويه وكان من لطيف المصادفات أن تعاصر هذه المدرسة مدرسة أخرى تشابهها في الفقه هي مدرسة الرأي التي رفع بنيانها أبو حنيفة النعمان وتلاميذه. ولا غرابة في ذلك فالقوم حينئذ كانوا مدفوعين بحكم الضرورة إلى تأسيس بنيانهم الفكري تلبية لحاجات الحضارة إذ ذاك، فقد وضعت في هذا الزمن أسس العلوم ومناهجها، وانفرد في كل فن الاختصاصيون فيه يدفعون به إلى الأمام ليساير حضارة لا يحظى بخيرها متخلف.

✡ ✡ ✡

من قياس الخليل وسيبويه:

لم يكن الخليل أول القيّاسين في النحو كما لم يكن أبو حنيفة أول القياسين بالفقه، بل سبق كلاً من شيوخه من ضرب في القياس بسهم، لكن كان الخليل فيهم كما قال ابن جني: « سيد قومه وكاشف قناع القياس في علمه »[٢] وإذا ذكرت أنه واضع أُساس المعاجم وله أول

---

(١) إنباه الرواة ٢/٢٧٥، ١٠٥، ١٠٨ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٥ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٦.

(٢) الخصائص ١/٣٦١.

معجم ألف في العربية ، وأنه بخصب ذهنه ابتكر العروض لقياس الشعر ، لم تستكثر أن يكون لهذا الذهن تلك المرانة المولدة في النحو ، بحيث يرجع إليه الفضل في إظهار معالم القياس ووضع رسومه ومناهجه ، وتجد في كتاب سيبويه أنماطاً كثيرة من قياسه مبعثرة في أبواب شتى . وإليك نمطاً من صنيعه : نسبت العرب إلى (تِهامة) فقالت تِهامي على القياس و (تَهامٍ) على غير القياس كما قالت (شأمي وشآم) وجعلوا ألف (تهام) بدلاً من إحدى ياءي النسب ، قال ابن جني : « فإن قلت : فإن في تهامة ألفاً فلِمَ ذهبت إلى أن الألف في تهامٍ عوض من إحدى الياءين ؟ » فقال : « قال الخليل في هذا : إنهم كأنهم نسبوه إلى (فَعْل أو فَعَل) وكأنهم فكوا صيغة تهامة فأصاروها إلى (تَهْم أو تَهَم ثم أضافوا (أي نسبوا) فقالوا : تهام . » وإنما ميّل الخليل بين (فعْل و فَعَل) ولم يقطع بأحدهما لأنه قد جاء هذا العمل في هذين المثالين جميعاً وهو (الشأم واليمن) . وهذا الترجيم الذي إشرف عليه الخليل ظناً قد جاء به السماع نصاً : أنشدنا أبو علي : قال أنشدنا أحمد بن يحيى (ثعلب) :

أرقني الليلة برق بالتَهَم   يالك برقا من يشقه لا ينم

فانظر إلى قوة تصور الخليل إلى أن هجم به الظن على اليقين ، فهو المعني بقوله :

(الألمعيّ الذي يظن بك الظن   ن كأنْ قد رأى وقد سمعا)[1]

---

(١) الخصائص ٢/١١١

وسيمر بك نمط من قياس سيبويه عندما نصل إلى الفقرة (ح).

استمر القياس على الطريق التي لحبها الخليل وسيبويه حتى كانت المئة الرابعة للهجرة فبلغ ذروة مجده بأبي علي الفارسي وتلميذه (ابن جنى) ونهض به هذان الإماما نهضة لم يحظ بمثلها قبلهما ولا بعدهما حتى اليوم.

من قياس الفارسي :

فأما الفارسي (ـ بغداد ٣٧٧) فقد عرف فارس والعراق والشام وأقام طويلاً ببلاد الشام وكان أكثر مقامه بحلب في بلاط سيف الدولة وطار صيته في النحو وأخذ في القياس يفكر فيه ليله ونهاره ؛ حتى استقام له منه مذهب وسع الشقة بين الجامدين على السماع وأنصار القياس. والظاهر أن عشق القياس بهره وأخذ على فكره السبل ، فصار يمتحن به كل مسألة تعرض له ، وعلى رسومه يصدر فتاواه ويعتقد آراءه ، وقد كان الخطأ في خمسين مسألة في اللغة أحب إليه من الخطأ في مسألة واحدة من القياس كما قال لتلميذه ابن جني [١] . وكذلك كان رحمه الله ، فقد حظيت مدرسة القياس من ثمرات تفكيره بفيض غزير حتى قال ابن جني « أحسب أن ابا علي قد خطر له وانتزع من علل هذا العلم ثلث

(١) سنة ٣٤٦ بحلب ـ انظر الخصائص ٢/٨٨

ماوقع لجميع أصحابنا »[1] وليس هذا بالقليل . ولعل خير ما يترجم العالم في مثل مقامنا هذا معرفة نمط من منهجه وإنتاجه : ذكر ابن جني أنه شاهد أبا علي غير مرة « إذا أشكل عليه الحرف الفاء أو العين أو اللام ، استعان على علمه ومعرفته بتقليب أصول المثال الذي ذلك فيه ، فهذا أغرب مأخذاً مما تقتضيه صناعة الاشتقاق »[2] ونعت هذه الطرئق بأنها «حزنة المذهب والتودد لها وعر المسلك » ... وقد كان ابو علي رحمه الله يراها ويأخذ بها . ألا تراه غلّب كون لام (أُثْفِيّة) - فيمن جعلها أفعولة - واواً على كونها ياء (وإن كانوا قد قالوا « جاء يثفوه ويثفيه ») بقولهم (جاء يثفه) قال : فيثفه لا يكون إلا من الواو ... » فلما وجد فاء (وثف) واواً قوّى عنده في (أثفية) كون لامها واواً فتأنس اللام بموضع الفاء على بعد بينهما »[3] « ومن لطيف ما ألقاه - رضي الله عنه - عليّ أنه سألني يوماً عن قولهم (هاتِ لا هاتيتَ) فقال : « ما هاتيت ؟ » فقلت : « فاعلت ؛ فهات من هاتيت كعاطِ من عاطيت « فقال : « أشيء آخر ؟ » فلم يحضر إذ ذاك ، فقال : « أنا أرى فيه غير هذا .. يكون فَعْليت » قلت : ممّ ؟ » قال : « «من الهوْتة وهي المنخفض من الأرض . وكذلك (هيت) لهذا البلد ، لأنه في منخفض من الأرض ، فأصله

(١) ٢٠٨/١

(٢) الخصائص ١٢/١

(٣) ١١/١

(هوْتيت) ثم أبدلت الواو التي هي عين(فعليت)وإن كانت ساكنة..
فصار هاتيت وهذا لطيف حسن »[١] .

كان ابن جني يقرأ على الفارسي كتاباً للمازني ، فلما جاء ذكر قول أبي عثمان في الالحاق المطرد : « إن موضعه من جهة اللام نحو قَعْدَد ، ورَمْدَد وشَمْلل وصَعْرر . وجعل الإلحاق بغير اللام شاذاً لا يقاس عليه مثل : جوهر وبيطر وجدول . . . الخ » قال أبو علي :

« لو شاء شاعر أو ساجع أو متسع أن يبني بإلحاق اللام إسماً وفعلاً وصفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب ، وذلك نحو قولك : خَرْجَج أكرم من دَخْلَل ، وضَرْبَب زيدٌ عمراً ، ومررت برجل (ضَرْبَبٍ وكَرْمَمٍ ونحو ذلك) فاعترضه ابن جني قائلاً : (أفترتجل اللغة ارتجالاً ؟ !) قال : « ليس بارتجال ، لكنه مقيس على كلامهم ، فهو إذن من كلامهم : ألا ترى أنك تقول : (طاب الخشكنانُ) فتجعله من كلام العرب وإن لم تكن العرب تكلمت به هكذا ، فرفعك إياه كرفعها ، ماصار لذلك محمولاً على كلامها ومنسوباً إلى لغتها »[٢] .

وسأله ابن جني يوماً (هل يجوز لنا في الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أولاً ؟) فقال : « كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم، فكذلك

---

(١) الخصائص ١/٢٧٧

(٢) ١/٣٥٨

يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم ؛ فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا، وما حظرته عليهم حظرته علينا ، وإذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم فليكن من أحسن ضروراتنا ، وما كان من أقبحها عندهم فليكن من أقبحها عندنا ، وما بين ذلك » بين ذلك »[١] .

وسأله أيضاً عن إثبات النون في قول الشاعر :

أن تقرآن على أسماء ويحكما   مني السلام وألا تشعرا أحدا

فقال : « أن مخففة من الثقيلة ، وأولاها الفعل بلا فصل للضرورة أيضاً ، فهذا شاذ عن القياس والاستعمال جميعاً ... لأن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين ونقننه من هذه القوانين إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللغة بأهلها ، ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح ، فاذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب وعدل عن القياس إلى السماع »[٢] .

وذهب أبعد من ذلك فكان يرى رسم الألف اللينة ألفاً دائماً سواءاً أكان أصلها واوا أم ياء ، وعلة ذلك عنده أن الأصل أن يطابق الرسم اللفظ[٣] .

---

(١) ٣٢٩/١

(٢) الضرائر ٢٧٣ نقلا عن شرح تصريف المازني .قلت : ونريد اليوم عكس ما كان يريد في القرن الرابع ، نريد إهمال اللغيات وطرد القياس ولن يضيع بذلك شيء ذو بال .

(٣) المطالع النصرية ص ١٢٤ نقلا عن المسائل الحلبية للفارسي .

وبعد فسيمر بنا كثير من آراء الفارسي في مواضع شتى ، وسنعجب كل الاعجاب بهذا الذهن المنهجي الغواص وسنقرّ أن ابن جني لم يكن إلى المبالغة حين قال فيه بعد أن نقل بعض تخريجاته :

« ولله هو ! وعليه رحمته ، فما كان أقوى قياسه . وأشد بهذا العلم اللطيف الشريف أنسه ! فكأنه إنما كان مخلوقاً له . وكيف لا يكون كذلك وقد أقام على هذه الطريقة مع جلة أصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة ، زائحةً علله ، ساقطة عنه كلفه ، وجعله همه وسَدمه ، لا يعتاقه عنه ولد ولا يعارضه فيه متجر ، ولا يسوم به مطلباً ولا يخدم به رئيساً إلا بأَخرة ، وقد حط من أثقاله وألقى عصا ترحاله . » (١)

وانظر رويته وتقليبه الأمر على وجوهه المختلفة وعدم مبادرته إلى القطع في مسائل العلم حين عرض لقضية نظرية من قضايا فقه اللغة : أَيهما أسبق مرتبة في الوجود الاسم أو الفعل ؟

قال ابن جني :

« اعلم أن أبا علي كان يذهب إلى أن هذه اللغة ، ما سبق منها ثم لحق به ما بعده ، إنما وقع كل صدر منها في زمان . وإن كان تقدم منها شيء على صاحبه فليس من الواجب أن يكون المتقدم على الفعل الاسم ولا أن يكون المتقدم على الحرف الفعل وإن كانت رتبة الاسم مقدمة في

---

(١) الخصائص ٢٧٦/١ . السدم : الحرص واللهج بالشيء ، وفي الحديث (من كانت الدنيا همه وسدمه جعل الله فقره بين عينيه .) — تاج العروس .

النفس ، ومن جهة القوة والضعف أن يكون الاسم والفعل قبل الحرف.

وإنما يعني القوم بقولهم (إن الاسم أسبق من الفعل) أنه أقوى في النفس وأسبق من الفعل في الاعتقاد لا في الزمان . وأما في الزمان فيجوز أن يكونوا قدموا عند التواضع الاسم قبل الفعل ، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل ، وكذلك الحرف ؛ وذلك أنهم وزنوا حينئذ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم ، فعلموا أنهم محتاجون الى العبارات عن المعاني وأنها لا بد لها من الأسماء والأفعال والحروف ، فلا عليهم بأيها بدؤوا لأنهم أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بها جُمَع إذ المعاني لا تستغني عن واحد منهن »[١] .

من قياس ابن جني :

أما اذا وصلنا إلى ابن جني فقد تبوأنا ذروة القياس وفلسفته . لقد كان أعلى علماء العربية كعباً في جميع عصورها ، وأغوصهم عامة على أسرار العربية ، وأنجحهم في الاهتداء إلى النظريات العامة فيها . وكتابه (الخصائص) لا يزال محط إعجاب علماء العرب والغرب على السواء ، وحسبك أن ابن جني هو مبتدع نظرية الاشتقاق الكبير ومؤسس علم فقه اللغة على ما يحسن أن يفهم عليه هذا العلم اليوم ؟ أما التصريف فهو إمامه

---

(١) الخصائص ١/٤٣٠

دون منازع ، وقلما تقرأ كتاباً فيـه ولا يكون ابن جني مرجع كثير من مسائله . وكتابه (سر الصناعة) من خير ما حفظ الزمان من هذا التراث ، ومما يؤسف له أنه لا يزال ينتظر إنهاء الطبع حتى اليوم .

ولد بالموصل من مملوك رومي لسليمان بن فهـد الأزدي الموصلي وتوفي ببغداد سنة (٣٩٢ ﻫ) . صحب أستاذه الفارسي أربعين سنة ، وعاش مدة طويلة ببلاط سيف الدولة بحلب حيث أملى المسائل الحلبية ، ونشأت هناك بينه وبين المتنبي صداقة أساسها إعجاب كل منهما بمواهب الآخر ، وكان من نتائج ذلك أنه شرح ديوان المتنبي ودافع عنه هجمات النقاد ، وأن المتنبي كان يقول فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس . » ويقول « ابن جني أعرف بشعري مني ! » [١] .

ونحن نتعرف إلى منهجه في القياس من كتابه (الخصائص) الذي يدور على الغوص على أسرار اللغة الشاملة ، ويطْرد القياس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وستجد أثر الفارسي في تلميذه بارزاً في هذا الكتاب ، وأن هذا التلميذ الذي لقن هذا المذهب عن أستاذه قد مضى به بعيـداً وتقدم إلى الأمام مسافات شاسعة ، ولعل الحافز له على تأليفه سمو همته إلى جعل أصول للنحو كأصول الدين ، فقد جاء في مطلع كتابه قوله « لم نر أحداً من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو على مذهب أصول

---

(١) انظر ترجمته في ارشاد الاريب المعروف بمعجم الادباء لياقوت .

الـكلام والفقه »[١] .

ابن جني كثير الأنس بالتجربة اللغوية يقلبها على وجوهها المختلفة ويكثر التفكير فيها ، ثم يقابل بين اللغات التي يعرفها ليكون حكمه الشامل في اللغة العربية حين يرده إلى طبيعة الحس صحيحاً إلى حد بعيد ، والظاهر أنه يعرف الفارسية فقد عرض لها في حديثه عن اجتماع الساكنين ، قال :

« ومن طريف حديث اجتماع السواكن شيء وإن كان في لغة العجم فان طريق الحس موضع تتلاقى عليه طبائع البشر ، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر ، وذلك قولهم (آرْد) للدقيق و (ماسْت) للّبن ، فيجمعون بين ثلاثة سواكن . إلا أنني لم أر ذلك إلا فيما كان ساكنه الأول ألفاً وذلك أن الألف لما قاربت بضعفها وخفائها الحركة صارت (ماست) : كأنها (مسْت)[٢] .

وعرض لأمر هام دقيق وهو ما يفيدنا إياه رؤية وجه العربي وجملة حاله حين يتكلم ، وإن رواية كلامه مجرداً قد يفوّت علينا من مقصوده شيئاً ذا بال :

« فليت شعري اذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحق ويونس وعيسى

---

(١) الخصائص ١/٢

(٢) الخصائص ١/٩٠ وانظر بقية البحث حتى ص ٩٢ .

ابن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين ، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها ، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات . »[1] ونحن نعرف بركة هذا الغوص في كثير من النصوص التي يختلف فيها العلماء لورودها مجردة من الاشارة إلى لهجة المتكلم أو حاله . ترد الجملة عن العرب فيجعلها بعضهم تقريراً وبعضهم استفهاماً حذفت أداته ، وبعضهم استفهاماً أريد به الإنكار والتهكم . . الخ ولو ورد مع النص حال المتكلم لا نقطع الخلاف .

والطريف أن ابن جني يورد بعد كلامه هذا أمثله كثيرة وينتهي من هذا الباب إلى الابراه على ان العرب أرادت من العلل والأغراض ما يذكره النحاة تماماً ، يقول في آخر باب (أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها)[2] :

« سألت الشجري يوماً فقلت : « يا أباعبدالله كيف تقول : (ضربت أخاك ؟) فقال : « كذاك » فقلت : « أفتقول : ضربت أخوك ؟ » فقال : « لا أقول (أخوك) أبداً » . قلت : « فكيف تقول : (ضربني أخوك) ؟ » فقال : « كذاك » فقلت : « ألست زعمت أنك لا تقول :

---

(١) الخصائص ١/٢٤٨

(٢) ص ١/٢٥٠

(أخوك) أبداً ؟ » فقال : « أَيْش هذا ؟! **اختلفت جهتا الكلام** » . فهل هذا في معناه إلا كقولنا نحن : صار المفعول فاعلاً ، وإن لم يكن هذا اللفظ البتة فإنه هو لا محالة .

ثم جعل ابن جني قول النبي لبني غَيَّان (بل أَنتم بنو رَشْدان) بمنزلة قول أَهل الصناعة : إن الألف والنون زائدتان . والنبي وإن لم يتفوه بهذا قد صدقه بفعله حين اشتق من الرشد : رشدان . « وكذلك قولهم : « إنما سميت هانئاً لتهنأ » (١) كقول النحاة : إن الألف زائدة للدلالة على من قام به الفعل ، فعل ابن جني هذا كله ليقول : إن العلل النحوية والقياس شيء أَرادته العرب وفعلته وإن لم تنطق بمصطلحاته .

والذي يعجب حقاً في ابن جني مزية الشمول في نظراته ، فإن غوصه على السر أَداه إلى أن يجمع في حكم واحد ما لا يجمعه النحاة عادة لعدم انتباههم إليه ، فقد جمع نصب جمع المؤنث السالم والمثنى وجمع المذكر السالم في علة واحدة فقال :

« واعلم أَن العرب تؤثر من التجانس والتشابه وحمل الفرع على الأصل ما إذا تأملته عرفت منه قوة عنايتها بهذا الشأن وأنه منها على أقوى بال ، أَلا ترى أنهم لما أعربوا بالحروف في التثنية والجمع الذي على حده ، فأعطوا الرفع في التثنية الألف ، والرفع في الجمع الواو ، والجر

---

(١) ص ١/٢٥١

فيهما الياء ، وبقي النصب لا حرف له فيماز به ، جذبوه إلى الجر فحملوه عليه دون الرفع . . ثم لما صاروا إلى جمع التأنيث حملوا النصب أيضاً على الجر فقالوا ضربت الهنداتِ كما قالوا مررت بالهندات ... فدل دخولهم تحت هـذا ـ مع أن الحال لا تضطرهم إليه ـ على إيثارهم واستحبابهم حمل الفرع على الأصل وإن عري من ضرورة الأصل » . « ومن ذلك حملهم حروف المضارعة بعضها على حكم بعض في نحو حذفهم الهمزة في نكْرم وتُكرم ويُكرم لحذفهم إياها في أُكرم لما كان يكون هناك من الاستثقال لاجتماع الهمزتين في نحو أؤكرم . .) [١] .

حذا ابن جني حذو أستاذه الفارسي بل شآه في تعميم القياس وتوسيع طرق الاشتقاق وكان يقول : (مسألة واحدة من القياس أَنبل وأَنبه من كتاب لغة عند عيون الناس) [٢] .

ولما عرض للإبدال وذكر لغات (فُسطاط ، فُستاط ، فُسّاط) وأَن الجمع فيها (فساطيط وفساسيط) فقط وذهابهم إلى أَن (التاء) في (فستاط) بدل من الطاء أَو السين ، رجح ابن جني كونها بدلاً من السين بقوله : (اذا حكمت بأنها بدل من سين (فساط) ففيـه شيئان جيدان : أَحدهما تغيير ثاني المثلين وهو أقيس من تغيير الأول من المثلين

---

(١) الخصائص ١/١١١ وانظر مزية الشمول عنده في باب (ترافع الاحكام) ٢/١٠٨ ففيه عجائب .

(٢) ٨٨ ، ٨٧ .

لأن الاستكراه في الثاني يكون لا في الأول . والآخر أن السينين في (فساط) ملتقيتان والطاءين من (فسطاط) منفصلتان بألف بينهما ، واستثقال المثلين ملتقيين أحرى من استثقالهما متفرقين ، فعلى هذا الاعتبار ينبغي أن يلقى ما يرد من حديث الإبدال)[1] .

وقد أَراد أَن يشرح كتاب يعقوب بن السكيت في (القلب والإبدال) على هذا النمط المنهجي لأن معرفة (هذه الحال فيه أَمثل من معرفة عشرة أَمثال لغته[1] » كما قال .

لم يتخذ ابن جني القياس مذهباً لنفسه فحسب ، بل كان يغري به ويدعو إليه ويحض عليه ويبيح فيه الارتجال فيقول : (للإنسان أَن يرتجل من المذاهب ما يدعو إليه القياس ما لم يُلوِ بنص أو ينتهك حرمة شرع.»[2] حتى إذا أداك القياس إلى مالم تنطق به العرب قط فليس لك أن ترمي به، بل تُعدّه «لشاعر مولد أولساجع أو لضرورة ، لأنه قياس على كلامهم[3] »

والأساس عنده في القياس الاعتبار المعنوي فهو يرجح القياس المعنوي على القياس اللفظي ، بل يذهب إلى « أن القياس اللفظي إذا تأملته لم تجده عارياً من اشتمال المعنى عليه ، أَلا ترى انك إذا سئلت عن (إنْ) من قوله:

---

(١) الخصائص ٢/٨٨، ٨٧

(٢) « ١/١٨٩

(٣) « ١/١٢٦

ورجِّ الفتى للخير ما إن رأيته   على السن خيراً لا يزال يزيد[١]

فإنك قائل : دخلت على (ما) وإن كانت (ما) ها هنـا مصدرية لشبهها لفظاً بما النافية . . وشبه اللفظ بينهما يصيّر (ما) المصدرية إلى أنها كأنها (ما) التي معناها النفي . أفلا ترى أنك لو لم تجذب إحداهما إلى أنها كأنها بمعنى الأخرى لم يجز لك إلحاق (إن) بها. فالمعنى إذاً أشيع وأسير حكماً من اللفظ ، لأنك في اللفظي متصور لحال المعنوي ، ولست في المعنوي بمحتاج الى تصور حكم اللفظي »[٢].

ومن أعود بحوثه على العربية بالخير والنماء لو أن هناك من يفيد منه ، المبحث الذي ابتدعه وهو (الاشتقاق الكبير)، البحث الذي قال فيه آدم متز : « إنه لا يزال يؤتي ثمره إلى اليوم ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم منه»[٣] وسنخصه بالذكر عندما نعرض للاشتقاق ، على أن له أيضاً بحوثاً كثيرة الفائدة في (الخصائص) منها بحث خلاف الألفـاظ مع تقارب المعاني المشتقة[٤]، وهو هام جداً يصح أن يعتبر أساساً لـ (فقه اللغة)، فقد أوضح فيه مذهبه ودعمه بأمثلة كثيرة، ورسم له في آخره نهجاً شاملا

---

(١) البيت للمعلوط القريعي

(٢) الخصائص : باب مقاييس العربية ١/١١٠

(٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/٣٣٠ لآدم متز .

(٤) انظر الخصائص ٢/١١٣

لمن يريد التوسع على طريقته . ولو ترسم من أتى بعده خطاه لكان لنا اليوم في (فقه اللغة) تراث قيم جداً .

هذا ، وإذا أنت صفحت كتاباً من كتب الطبقات في النحو ومرت بك مئات من تراجم النحويين ، استطعت بعد إمعان قليل أن تلم بما كان للقياس من خطر عند القوم حتى ليتفرد واحد في المئة فيعرف به فإذا ترجموا له نصوا على امتيازه هذا ، وتلك ملكة لم تتوفر كاملة إلا لأعلام قليلين جداً ، فما أقل ما تجد أمثال قولهم في ترجمة ابن أبي إسحق الحضرمي .. « كان .. شديد التجريد للقياس » ويفاضلون بينه وبين أبي عمرو بن العلاء فيقول السيرافي : « ابن أبي إسحق أشد تجريداً للقياس وأبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها » (١) ، وفي ترجمة يونس : « ليونس قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها » (٢) .

وفي الكلام على مؤرج السدوسي يروون قوله : « قدمت من البادية ولا معرفة لي بالقياس وإنما معرفتي قريحتي ، وأول ما تعلمته : في حلقة أبي زيد » (٣) ، وفي ترجمة أبي طالب أحمد بن بكر العبدي : « .. وكان قيماً بالقياس » (٤) .

---

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٢
(٢) « ص ٤٢٦
(٣) « ص ٤٠٠
(٤) « ص ١٢٩

(ب)

أثر العلوم الدينية في القياس اللغوي

لا شك في أن الباعث الأول لنشأة العلوم العربية هو الدين الجديد الذي أتاهم به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : فاهتمامهم بأحكامه حفز على تدوين الفقه والحديث ثم نشأة العلوم المتعلقة بهما ، وعنايتهم بالقرآن الكريم صرفتهم إلى الاهتمام بقراءاته وتفاسيره وتاريخه،وذلك حملهم على ضبط اللغة وإحكام قواعدها . ولم تنقض المئة الثانية حتى كان للفقه كتبه ومذاهبه وأصوله ، كما كان للدين أيضاً كتبهوجدله وأصوله ومتكلموه وفرقه . دوّن أولاً الفقه وأصوله والحديث ، ثم جاء النحو يتقدم رويداً رويداً ، وبدأ يدوّن وتنسق أبوابه وفصوله ،ثم جاءت بعد الطبقة الأولى طبقات وتميزت المذاهب فيه بعضها من بعض ، ثم كان له أصوله أيضاً .

يقر النحاة بأنهم احتذوا في أصولهم أصول الفقه عند الحنفية خاصة ، فهذا ابن جني يصرح فيقول :

« ينتزع أصحابنا العلل (من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة) لأنهم يجدونها منثورة في أثناء كلامه ، فيجمع بعضها الى بعض بالملاطفة والرفق » [(١)] بل إنه هو نفسه يعقد باباً في الخصائص يثبت

---

(١) الخصائص ١٦٣/١

فيه « أن علل جل النحويين وأعني بذلك حـذاقهم المتقنين لا ألفـافهم المستضعفين ، أقرب إلى علل المتـكلمين منهـا الى علل المتفقهين ، وذلك أنهم إنما يحيلون على الحس ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتهـا على النفس ، . الخ » (١) .

هذا في المئة الرابعة ، واستمر الحال بعده . فهذا السيوطي في المئـة العاشرة يؤلف كتاب (الاقتراح) ويذكر أنه : « بالنسبة الى النحو كأصول الفقه بالنسبة الى الفقه...ورتبته على نحو أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم . . فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العلة وقياس الشبه وقياس الطرد الى غير ذلك على حد أصول الفقه ، فإن بينهما من المناسبة ما لا خفاء به لأن النحو معقول من منقول كما ان الفقه معقول من منقول ... » (٢)

---

(١) ٤٨/١ وفيه يورد امثلة ومقايسات ، منها تعليله اختصاص الفاعل بالرفع دون النصب لان للفعل فاعلا واحداً ومفعولات متعددة أحياناً ، فخصوه بالرفع لقلته وخصوا المفعول بالنصب لانه أخف على ألسنتهم « ليقل في كلامهم مايستثقلون » وانظر بعدذلك كلامه على : ميزان ، موسى .

(٢) انظر مقدمة الاقتراح . والظاهر أن الأمر لم يقتصر على الأصول فقد كانت فروع الفقه ماثلة لأعين النحاة حين تقرير جزئيات النحو ، ففي كلامهم على حذف الفاء الواقعة في خبر (أما) اضطراراً في مثل قول الشاعر :

فأمـا القتال لا قتال لديكم ولكنّ سيراً في عراض المواكب

يستطردون الى قول الله « فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم..» يقولون :

ثم تقرأ في كتب النحو بعد ذلك فترى مصطلحات الثقافة الفقهية تطالعك بين الفينة والفينة فتجد مثلاً في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) لابن الانباري من رجال المئة السادسة تعليقاً على قول البصريين « الدليل على أن نعم وبئس فعلان ماضيان أنهما مبنيان على الفتح ، ولو كانا اسمين لما كان لبنائهما وجه ، إذ لا علة ها هنا توجب بناءهما » فيقول ابن الأنباري : « هذا تمسك باستصحاب الحال وهو من أضعف الأدلة »[١] فهذا — كما ترى — تحكيم لمعايير الفقه في النحو .

وإذا عرفت أن القياس أداته العقل وأن أئمة القياس في النحو سيبويه والفراء وأبو علي الفارسي والرماني وابن جني والزمخشري وأضرابهم كلهم كانوا معتزلة[٢] ، بل إن الرماني (— ٣٨٤) منهم كان يفتن في الكلام على مذهب المعتزلة ؛ ومع أن له ستة كتب على كتاب سيبويه إن كتبه

= « حذف القول استغناء عنه بالمقول فتبعته الفاء في الحذف ، ورب شيء يصح تبعاً ولا يصح استقلالا كالحاج عن غيره يصلي عنه ركعتي الطواف ، ولو صلى أحد عن غيره ابتداء لم يصح على الصحيح . »

وهذا تأثر بالفقه سافر غير خفي .

(١) الانصاف ص ٧٣

(٢) النحاة المعتزلة كثيرون جداً ومن بينهم الغالي في اعتزاليته ، يعرف كثرتهم من سرد أحد كتب الطبقات . ويظهر أن القدماء عنوا بجمع تراجم المعتزلة من النحاة فهذا ياقوت ينقل في ترجمته لابي الحسن البوراني عن كتاب (نحاة المعتزلة) لمحمد بن اسحق .

في الكلام أكثر من كتبه في اللغة والنحو بكثير [١] . والاعتزال كما تعلم منهج يستند إلى « تحكيم العقل مع المحافظة على الدين وهو منهج في البحث والتجربة والاستدلال العقلي والشك والقياس...وقد كان للمعتزلة أثر كبير في القياس في اللغة ،كما يظهر ذلك من قولهم بأن اللغة اصطلاحية من وضع البشر ، لا توقيفية ؛ وكما يظهر في تحرر الجاحظ وأمثاله من المعتزلة في تشقيقهم الكلام واستعمالهم للمولد من الألفاظ بل الأعجمي ، وكما يظهر أيضاً في أن زعيمي مدرسة القياس وهما أبو علي الفارسي وابن جني كانا من المعتزلة ، وكما يظهر في البحوث اللغوية الطريفة التي حققها الزمخشري في كتبه وتفريقه بين دلالة الألفاظ عن طريق الحقيقة ودلالتها عن طريق المجاز ، وهو معتزلي أيضاً ؛ فلما ذهبت دولة المعتزلة غلبت دولة المحافظين في اللغة كما هو الشأن في كل علم » [٢] ، إذا عرفت ذلك كله أدركت الأثر البعيد الذي للعلوم الدينية في نشأة العلوم اللسانية.

هذا في القياس خاصة ، وقد علمت أن علماء العربية احتذوا طريق المحدثين من حيث العناية بالسند ورجاله وتجريحهم وتعديلهم ، وطرق تحمل اللغة ... فكانت لهم نصوصهم اللغوية كما كان لأولئك نصوصهم الحديثية ولهم طبقات الرواة كما لأولئك ، ثم احتذوا المتكلمين في تطعيم

---

(١) انظر ترجمته في إنباه الرواة ٢/٢٩٤ .

(٢) (مدرسة القياس في اللغة) محاضرة الاستاذ احمد امين في مجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ . ثم نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧

نحوهم بالفلسفة والتعليل ، ثم حاكوا الفقهاء أخيراً في وضعهم للنحو أصولاً تشبه أصول الفقه ، وتكلموا في الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء ، وكان لهم طرازهم في بناء القواعد على السماع والقياس والإجماع كما بنى الفقهاء استنباط أحكامهم على السماع والقياس والاجماع ؛ وذلك أثر واضح من آثار العلوم الدينية في علوم اللغة .

والطريف أنهم سجلوا للنحو شيئاً من رد الدّين ، فهذا الفراء يناظر محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة قائلا : « قلّ رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه » امتحنه محمد في مسألة فقهية أجابه عليه من فن النحو ، قال محمد : « ماتقول في رجل صلى فسها ، فسجد سجدتين للسهو فسها فيهما؟» ففكر الفراء ساعة ثم قال : « لاشيء عليه .» فقال له محمد : ولم ؟ » قال : « لأن التصغير عندنا لاتصغير له ، وإنما السجدتان تمام الصلاة ، فليس للتمام تمام .» فقال محمد : « ماظننت آدمياً يلد مثلك !»[1].

واشتهرت هذه الحادثة في زمانها وبعده ، وقامت دليلا على لطف نظر النحاة واشارة الى ما بين الفقه والنحو من أخذ وعطاء استمرا مع تقدم الفنين ... حتى اذا بلغنا المئة الرابعة للهجرة وجدنا فقيهاًشافعياً ، هو ابن الحداد المصري ، كانت له ليلة في كل جمعة يتكلم فيها عنده في مسائل الفقه على طريق النحو !! » وكان ابو جعفر النحاس النحوي المصري المشهور المتوفى سنة « ٣٣٨ هـ » لا يدع حضور هذا المجلس [2] .

بل نرى رد الدّين صار على مقياس أوسع في المئة الثامنة ، فهذا الشيخ جمال الدين

---

(١) وفيات الأعيان ٢٢٧/٥ . وقد روى ابن خلكان هذا الحادث أيضاً بين الكسائي ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد في ٤٥٧/٢ ولعل الأول هو الواقع.

(٢) إنباه الرواه ١٠٢/١ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٤٠

الأسنوي « ٧٧٢ » له كتاب الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على الفواعد النحوية » يقول في مقدمته :

« ... استخرت الله تعالى في تأليف كتابين ممتزجين من الفنين المذكورين « يعني أصول الفقه وعلم العربية » ومن الفقه ، لم يتقدمني إليهما أحد من أصحابنا : أحدها في كيفية تخريج الفقه على المسائل الأصولية ، والثاني في كيفية تخريجه على المسائل النحوية ؛ فأذكر أولا المسائل الأصولية أو النحوية مهذبة منقحة ، ثم أتبعها بذكر جملة مايتفرع عليها ليكون ذلك تنبيهاً على مالم أذكره . ثم إن الذي أذكره على أقسام، فنه ما يكون جواب أصحابنا فيه (يعني الشافعية) موافقاً للقاعدة ، ومنه ما يكون مخالفاً لها ، ومنه مالم أقف فيه على نقل بالكلية فأذكر فيه ماتقتضيه القاعدة مع ملاحظة القاعدة المذهبية والنظائر الفرعية فيعرف الناظر في ذلك مأخذ مانص عليه أصحابنا وفصلوه ، ويتنبه به على استخراج ماأهملوه . هذا مع أن الفروع المذكورة مهمة مقصودة في نفسها بالنظر ، وكثير منها قد ظفرت به في كتب غريبة كما ستراه مبيناً إن شاء الله تعالى ...

واعلم انني إذا أطلقت شيئاً من المسائل النحوية فهي من كتابيْ شيخنا أبي حيان الذي لم يصنف في هذا العلم أجمع منهما وهما (الارتشاف) و (شرح التسهيل) ، فان لم تكن المسألة فيهما صرحت بذلك ، وإذا أطلقت شيئاً من الأحكام الفقهية فهو من الشرح الكبير للرافعي أو من (الروضة للنووي) ... »(١).

والكتاب مخطوط نادر تحتفظ به دار الكتب المصرية « رقمه ٥١٤٤ ه نحو » وقد أطلعتك على خطته كما شرحها ؛ وهأنذا مطلعك على نمط من مسائله ليكون تصورك لما وصل إليه التفاعل بين علوم الشريعة والنحو في المئة الثامنة كاملا كما يعرضه هذا الأثر النفيس ، ولابد من الاشارة إلى أن أغلب مسائله تدور على جمل الطلاق ، والوصايا وما إلى ذلك :

---

(١) انظر الورقة ٢/٢ من المخطوط .

فصل في المضمرات

مسألة : الضمير إذا سبقه مضاف ومضاف إليـه وأمكن عوده على كل منهما على انفراده كقولك (مررت بغلام زيد فأكرمته) فانه يعود على المضاف دون المضاف إليه ، لأن المضاف هو المحدث عنه والمضاف إليه وقع ذكره بطريق التبع وهو تعريف المضاف أو تخصيصه ، كذا ذكره أبو حيان في تفسيره وكتبه النحوية وأبطـل به استدلال ابن حزم ومن نحا نحوه كالماوردي في (الحاوي) على نجاسة الخنزير بقوله تعالى : « .. أو لحمَ خنزير فانه رجس »[1] حيث زعموا أن الضمير في قوله تعـالى (فانه) يعود إلى الخنزير ، وعللوه بأنه أقرب مذكور .

إذا علمت ذلك فمن فروع المسألة ما إذا قال : (له علي ألف درهم ونصفه) فالقياس أنه يلزمه ألف وخمسمائة لا ألف ونصف درهم .

هكذا القول في الوصايا والبياعات والوكالات والاجازات وغيرها من الأبواب .

مسألة ضمير الغائب قد يعود على غير ملفوظ به كالذي يفسره سياق الكلام.

فمن فروع المسألة ما إذا قال (له علي درهم ونصفه) فانه يلزمه درهم كامل ونصف والتقدير ـ كما قال ابن مالك ـ (ونصف درهم آخر) اذ لو كان العائد إلى المذكور لكان يلزمه درهم واحد ، ويكون قد أعاد النصف تأكيداً وعطفه لتغاير الالفاظ.» اهـ

ثم لا ننسى خدمة علوم اللغة الفقه نفسه بعد أن استفادت من أصوله وطرقه ؛ فهذا المطرزي (ــ ٦١٠) يضع معجمه (المغرب) في لغة الفقه خاصة ، وكذلك الفيومي (ــ ٧٧٠) صاحب (المصباح المنير) ألفه في غريب (الشرح الكبير للرافعي) وهو كتاب في فقـه الشافعية ، والرازي (ــ ٧٦٠) اختار من الصحاح ما يخدم به ألفاظ القرآن والحديث والفقه فألف كتابه النافع المشهور (مختار الصحاح) وهكذا .

---

(١) سورة الأنعام ١٤٥/٦

(ج)

من أحكام القياس (١)

للقياس أَربعة أركان :

١ — أصل وهو المقيس عليه .

٢ — وفرع وهو المقيس .

٣ — وحكم

٤ — وعلة جامعة .

وقد عرفت أن ذلك مثل أن تركب قياساً في الدلالة على رفع مالم يسم فاعله فتقول : اسم أسند الفعل إليه مقدماً عليه فوجب أن يكون مرفوعاً قياساً على الفاعل.

١ — فالأصل هو الفاعل ، ٢ — والفرع هو مالم يسم فاعله ، ٣ — والحكم هو الرفع ، ٤ — والعلة الجامعة هي الاسناد .

١ — في المقيس عليه :

١ — من شروطه ألا يكون شاذاً خارجاً عن سنن القياس ، فما كان كذلك لا يجوز القياس عليه كتصحيح مثل : استحوذ ، استصوب ، استنوق ، وكحذف نون التوكيد في قوله :

---

(١) مختصر بتصرف عن (الاقتراح) للسيوطي ص ٤٦ فما بعد .

« اصرفَ عنكَ الهموم طارقها »

أي (اصرفنْ) ووجه ضعفه في القياس أن التوكيد للتحقيق وإنما يليق به الإسهاب والإطناب لا الاختصار والحذف .

٢ — كما لا يقاس على الشاذ نطقاً لا يقاس عليه تركاً كامتناعك من (وذر ، ودع) مع جوازهما قياساً لأن العرب تحامتهما (١) .

٣ — ليس من شرط المقيس عليه الكثرة فقد يقاس على القليل لموافقته للقياس ويمتنع على الكثير لمخالفته له :

مثال الأول : شنئي نسبة إلى شنوءة :

اكتفى سيبويه بهذا الوارد ، لأن السماع لم يرد بخلافه لا في هذا اللفظ ولا فيما كان من نوعه ، فقاس عليه وجعل وزن (فَعَلِيّ) قياساً في (فَعولة) مع أنه لم يقع إليه من شواهده إلا هذه الكلمة المفردة ، فهو يقول في النسب إلى (ركوبة ، حلوبة : ركبيٌّ ، حلَبيٌّ) .

أما الأخفش فجعله شاذاً لا يقاس عليه ، ونسب إلى الكلمتين بقوله : (ركوبي وحلوبي) لكن القياس يؤيد سيبويه في قياسه على شنوءة شنئي بما يأتي :

---

(١) عرفت من ص «٣٠-٣٢» أن العربيــة ماتحامتهــما ، فاعرف الآن أن ابن درستويه وهو الذي سلم خطأً بان العربية أهملتهما قال : « واستعمال ماأهملوا من هذا جائز صواب وهو الأصل ، بل هو في القياس الوجه » — انظر المزهر ٢/٤٦«طبعة عيسى البابي الحلبي » بعناية « محمد احمد جاد المولى ورفيقيه ».

فعولة = فعيلة ، فكل منهما ثلاثي ثالثه حرف لين وانتهى بتاء التأنيث فجعلوا واو شنوءة كياء حنيفة وعاملوها مثلها في النسبة . (ولا يقول في ضرورة :(ضرري) لأنه لا يقال في جليلة : جللي) .

قال أبو الحسن : « فإن قلت : إنما جاء هذا في حرف واحد (يعني شنوءة) فالجواب : أنه جميع ما جاء » .

ومثال الثاني : قولهم في (ثقيف وقريش وسُلَيم) : ثقفي وقرشي وسلمي . . وإن كان أكثر من شنئي فإنه عند سيبويه ضعيف في القياس فليس لك أن تقول في سعيد : سعدي[١] .

٤ — للقياس أربعة أقسام :

١ — حمل فرع على أصل كإعلال الجمع لإعلال المفرد مثل(قيمة : (قيم) أَو تصحيحه لصحة المفرد مثل : (ثور : ثِوَرة) .

٢ — حمل أصل على فرع كإعلال المصدر لإعلال فعله (قام : قياماً) أَو تصحيحه لصحة فعله مثل : (قاومت : قِواماً) ، وكحذف الحروف في الجزم وهي أصول حملاً على حذف الحركات .

---

(١) هذا « والكلمة أو الكلمتان لاتقومان في وجه القاعدة التي يجري عليها الفصحاء في عامة مخاطباتهم ولو نقلت عن فصيح عربي : اذيجوزأن تكون قدصدرت منه على وجه الغلط أو القصد الى تحريف اللغة ، فان ألسنة الفصحاء قد تقع في زلة الخطأ وتطوع لهم متى قصدوا الى تغيير الكلمة عن وضعها المعروف لهزل ونحوه.» اهـ عن القياس في اللغة العربية ص ٤٣ .

٣ ـــ حمل نظير على نظير : منعوا (أفعل التفضيل) من رفع الظاهر لشبهه بـ (أفعل التعجب) ، وأجازوا تصغير أَفعل التعجب حملاً على اسم التفضيل .

٤ ـــ حمل ضد على ضد : من أمثلته النصب بـ (لم) حملاً على الجزم بـ (لن) ، أولهما لنفي الماضي والثاني لنفي المستقبل [١] .

ب ـــ في المقيس :

وهل يوصف بأنه من كلام العرب أم لا (تقدم هذا ص ٧٠) وقد قال ابن جني : « اللغات على اختلافها كلها حجة ، والناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء » .

م ـــ في الحكم وفيه مسألتان :

جواز القياس على حكم ثبت بالقياس [٢] (إذ الأصل أن يثبت

---

(١) قلت : شاهد الجزم بـ (لن) قول أعرابي يمدح الحسين بن علي :

لن يخب الآن من رجائك من حرك من دون بابك الحلقه

وشاهد النصب بـ (لم) قراءة بعضهم : « ألم نشرحَ لك صدرك » وقول الحارث ابن منذر الجرمي :

في أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقدرَ أم يوم قدر

انظر (لم) ، (لن) في مغنى اللبيب

(٢) مثال ذلك أن اسم الفاعل محمول على الفعل في العمل ، ولذلك كان أضعف =

بالسماع) . وجواز القياس على أصل اختلف في حكمه كقولهم في (إلا) إنها نابت مناب فعل فهي تعمل عمله قياساً على (يا) ، فإن إعمال يا مختلف فيه .

في العلل (٢) :

(تقدم كون علل النحويين أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل الفقهاء)

١ — « اعتلالات النحويين صنفان : علة تطرد على كلام العرب وتنساق إلى قانون لغتهم ، وعلة تظهر حكمتهم وتكشف عن صحة أغراضهم ومقاصدهم في موضوعاتهم .

=منه ، فاذا استطاع الفعل أن يحمل الضمير في مثل قولك (زيد أخواك زارهما) لم يستطع اسم الفاعل السببي تحمل الضمير ولذلك وجب إظهاره فتقول (زيد أخواك زائر إياهما هو) ولايجوز استتاره لقصور اسم الفاعل في العمل عن الفعل .

فهذا التركيب في جملة اسم الفاعل السببي مقيس غير مسموع ، فتأتي أنت وتقيس الصفة المشبهة على اسم الفاعل فتقول (زيد أخواك حسن في عينه هما) قياساً على جملة اسم الفاعل المتقدمة ، فهذا قياس على مقيس . — انظر الخصائص لابن جنى ص ١٩٤/١ .

(٢) إذا رفعت مارفعته العرب ونصبت مانصبت فعملك نحو ، لأنك تنتحى به مذهب العرب في كلامها فهذا ما كانوا يقصدونه بالنحو او بالعربية قديماً ، ثم لما تقدموا قليلا صاروا يقولون في (ذهب زيد) رفعت (زيد) لأنها فاعل ؛ فجعلوا ذلك هو العلة ، ثم خطوا خطوة ثانية لما تساءلوا عن سبب رفع الفاعل وقالوا : (الضمة أشرف الحركات ولذلك خصوا بها الفاعل لشرفه) فجعلوا هذا الجواب علة العلة .

فالأولى : أكثر استعمالاً وأشد تداولاً وهي واسعة الشعب (عدها السيوطي ٢٤) منها :

علة سماع : يقال امرأة ثدياء (ولا يقال رجل أثدى) لعدم السماع .

علة تشبيه : كإعراب المضارع لمشابهته الاسم ، وبناء بعض الأسماء لمشابهتها الحروف .

علة استثقال : كاستثقالهم الواو في (يعد) بين ياء وكسرة .

علة فرق : فيما ذهبوا إليه من رفع الفاعل ونصب المفعول .

(قلت : تقدم لابن جني تعليل يرد هذا إلى علة الاستثقال وهو جد وجيه)

علة نظير : مثل كسرهم أحد الساكنين إذا التقيا في الجزم حملاً على الجر إذ هو نظيره .

علة حمل على المعنى : « فمن جاءه موعظة من ربه [1] » ذكر الفعل (جاء) مراعاة لمعنى (الموعظة) .

علة مشاكلة : في قوله (سلاسلاً وأغلالاً) [2] في قراءة من نون سلاسل . . . الخ العلل [3] .

---

(١) سورة البقرة ٢/٢٧٥

(٢) سورة الدهر ٧٦/٤

(٣) انظر في الاقتراح ص ٥٦ وهذه أسماء بقية الأنواع : علة استغناء ، علة توكيد ، علة تعويض ، علة نقيض ، علة معادلة ، علة قرب ومجاورة ، علة وجوب ، علة جواز ، علة تغليب ، علة اختصار ، علة تخفيف ، علة دلالة حال ، علة أصل ، علة تحليل ، علة إشعار ، علة تضاد ، علة أولى .

٢ — يجوز التعليل بعلتين : كقولك (هؤلاء مسلميّ) فإن الأصل : مسلموي َ : قلبت الواو ياء لأمرين كل منهما موجب للقلب : اجتماع الواو والياء وسبق إحداهما بسكون ، والثانية أن ياء المتكلم توجب كسر ما قبلها فوجب قلب الواو ياء وإدغامها .

٣ — يجوز التعليل بالامور العدمية كتعليل بعضهم بناء الضمير باستغنائه عن الاعراب وباختلاف صيغه لحصول الامتياز بذلك .

أَنت ترى أَن بعض العلل النحوية حسية مقبولة ، وبعضها فرضية ؛ لكن لهم قسماً ثالثاً من العلل وهو (العلل الخيالية) ومثلوا لها بـ (هل): « فإن الأصل فيها دخولها على الفعل ، وقد تخرج عن الاصل فتدخل على اسم خبره اسم ، ولا تدخل على اسم خبره فعل مثل (هل عمرو كتب) وعللوا ذلك بأن (هل) إذا لم تر الفعل في حيزها تسلت عنه ذاهلة ، وإن رأته في حيزها حنت إليه لسابق الالفة فلم ترض حينئذ إلا بمعانقته ! (١) » .

ولا تظن أن تلك العلل سلمها الناس لهم ، إن الأمر على العكس ولا نزال نسمع حتى اليوم الكلمة السائرة : (أضعف من حجة نحوي)، وقد ذكر القفطي أن أبا العباس الناشئ المتكلم (— ٢٩٣) « نظر في علل النحو وهو متكلم ، فتبين له بقوة الكلام نقض أصوله ، فنقضها

---

(١) القياس في اللغة العربية لمحمد الخضر حسين ص ٧٦ .

وصنف فيها — وكذلك العروض أدخل على قواعده شبهاً ... وأحسن والله في كل ذلك وأظهر قوة ... » — إنباه الرواة ٢/١٢٨

وقد ضايقت تعليلاتهم وقياسهم وتعقبهم . معاصريهم من الشعراء .

فقال عمار الكلبي وقد عابوه في بعض شعره :[١]

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا

إن قلت قافية بكراً يكون بها ... بيت خلاف الذي قاسوه أو ذرعوا

قالوا: «لحنت، وهذا ليس منتصباً؛ ... وذاك خفض، وهذا ليس يرتفع

وحرضوا بين عبد الله من حمق ... وبين زيد، فطال الضرب والوجع

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طبعوا

وبين قوم رأوا شيئاً معاينة ... وبين قوم رأوا بعض الذي سمعوا[٢]

ما كل قولي مشروحاً لكم فخذوا ... ما تعرفون . وما لم تعرفوا فدعوا

لأن أرضي أرض لا تشب بها ... نار المجوس ولا تبنى بها البيع

ولا يطا القرد والخنزير ساحتها ... لكن بها العِين والذيال والصدع[٢]

---

(١) إذ قال : بانت نعيمة والدنيا مفرقة ... وحال من دونها غيران مزعوج

فقيل له : « لا يقال مزعوج ، إنما يقال : مُزْعَج » فكره ذلك وهجا النحويين بالأبيات المذكورة . إرشاد الأريب ١٢/١٠٣

قلت : بالرجوع إلى معاجم اللغة يتبين بطلان نقدهم ونقص اطلاعهم ، إذ نصوا على أن (زعجه) مثل (أزعجه) ، ومن حق هذا الشاعر السليقي أن يغضب لطبعه الصحيح على من حاول الطعن فيه بلا حق ولا علم .

(٢) الزيادة من إنباه الرواة ٢/٤٢ وفي ترتيب الأبيات وبعض كلماتها خلاف .=

ولست أشك أن القوم بالغوا في التزام القياس وتطويع اللغة له حتى خرج بعضهم على طبيعة الاشياء وكادوا ينسون أن القياس مستنبط من اللغة وأن اللغات لا تبنى على قياس مخترع . والاعتدال هو الصواب في كل الأمور ، وتعجبني في ذلك كلمة محمد ابن الجيان من أصحاب الفارسي: « قياسات النحو تتوقف ولا تطرد ، كقميص له جُرُبّانات، فصاحبه يخرج رأسه كل ساعة من جربان . » (١)

. . .

هذا ، ومن المنتظر أن يكون للعلل الشأن الذي قدمناه للقياس إذ كان مبنياً عليها فوُصف قوم بتميزهم بحسن النظر في علل النحو (٢) ، وانصرف قوم إلى الاختصاص بها والتأليف فيها خاصة ومما حفظت كتب الطبقات الأسماء الآتية :

١ — العلل في النحو لقطرب (— ٢٠٦)

٢ — علل النحو لابن كيسان (— ٣٢٠)

٣ — النحو المجموع على العلل لمبرمان (— ٣٤٥)

=العين : بقر الوحش . الذيال . الذيال: الثور الوحشي. الصدع : الفتي الشاب من الأوعال والظباء والحمير والابل .

(١) بغية الوعاة ص ٧٩ . والجربان فتحة القميص .

(٢) كابن قادم المتوفى سنة ٢٥١ هـ

٤ – علل النحو لابن الوراق (– ٣٨١) [١]

وهذا كاف في الدلالة على مبلغ العناية بهذا الباب .

(د)

العصريون والقياس

وبعد ، فليت الأمر وقف بالقياس عند المدى الذي وصل إليه الفارسي وابن جني ، إنه بدأ يتراجع القهقرى بعد المئة الرابعة ، وغلب على اللغة وعلومها الجمود ، ثم آل هذا التراث إلى علماء لا سليقة لهم فغشوه بأغشية من مؤلفاتهم لا روح فيها ، فلما كانت مبشرات النهضة آخر المئة الماضية وأول هذه المئة ، وتدفق سيل حاجات الحياة من الحضارة الغربية ، وجد القوم أنفسهم إزاء مستحدثات لا قبل لهم بها إلا إذا جدوا متكاتفين ، وهذا ما لم يكن ، لعوامل ليس هذا مكان ذكرها .

كثرت الصحف والمجلات والمؤلفات واحتاجوا إلى فيض من المصطلحات يعبرون بها فكانوا ازاء حاجات العصر الحديثة فريقين : فريقاً دعا إلى إدراج لغة السوق في الكتابة والمدارس على عاميتها وعجمتها ، وفريقاً جمد على ما ورد عن العرب الأولين ، وكان تجاذب بين الفريقين

---

(١) راجع تراجم هؤلاء الأعلام في بغية الوعاة .

معهما أنصارهما ... إلى أن قيض الله فريقاً ثالثاً ترفع عن ابتذال الدهماء في الاسواق ، وحرص على التراث العربي الكريم ، فشمر عن ساعد الجد يتحرى لهذه المستحدثات مصطلحات عربية ، فإن لم يجد أحدث لها عن طريق الاشتقاق أو المجاز أو التعريب أحياناً قليلة . ثم كانت في مصر محاولات لتأسيس مجامع لغوية تسهر على سلامة الفصحى وتمدها بما تستطيع معه استمرار الحياة بنشاط ، ولم تثبت للزمن تلك المحاولات بمصر ، وإنما قام بالعبء — على قدر استطاعته — المجمع العلمي العربي بدمشق الذي أنشيء على عهد المرحوم الملك فيصل الأول سنة (١٩١٨ م) وكان نشيطاً كل النشاط أول حياته ، فأمد الصحافة ودواوين الحكومة والمدارس والمعاهد بفيض صالح من الاسماء والمصطلحات ، كما انصرف إلى اصلاح لغة الدواوين والصحف والكتب المدرسية بحيث لم يكن يجوز طبع كتاب لم ينظر في لغته احد أعضاء المجمع غير الجاهلين . ولم يطل بمجمع دمشق هذا النشاط أكثر من عشر سنين ، لكن الأمر استمر خارجه ، وسهرت المعاهد العليا والثانوية على استمرار النهضة .

ولا ينبغي أن ننسى هنا أثر التراجمة الأولين في مطلع النهضة بمصر ولا أثر المصححين في المطبعة الاميرية فيها من شيوخ الأزهر وغيرهم [١]،

---

(١) انظر بحثا عن التراجمة من شيوخ الأزهر نشر في العدد (٦٧٤) من مجلة الثقافة المصرية وماقبله .

فما ترجم قديماً من كتب علمية في الطب والهندسة والعلوم حافل بأوضاع عربية ، وثمرات من ثمرات القياس تستحق التقدير. وقد ينفع المجامع اليوم إطالة النظر فيما تشتت في هذه الطبقات القديمة النادرة من مصطلحات ونحت واشتقاق ، فالمعروف أن مدرسة الألسن وأساتذتها وخريجيها ، اتسمت بكثير من العمل والجد وقليل جداً من الإعلان والتبجح على عكس مؤسسات بعدها ينفق عليها كثير من الأموال وتحاط بكثير من الجعجعة ثم تشتغل بكل ما يبعدها عن الهدف الذي من أجله أُنشئت، وأغدق عليها مما جمع من كدح الفلاحين ما أغدق .

قرارات المحدثين

تعددت المحاولات في مصر كما أسلفت ، حتى صار الشعور بضرورة المجمع رغبة عامة للأمة ، لباها الملك فؤاد الأول رحمه الله بأخرة ، حين أسس (مجمع فؤاد الأول للغة العربية [١]) وبدأ عمله سنة (١٩٣٤ م) يضم حين التأسيس أعلاماً من خير علماء العربية ، وكان في جملة ما عالج من موضوعات قضية القياس في اللغة، فأصدر فيها — بعد مذاكرات حول المشروعات

---

(١) ليحافظ على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ملائمة حاجات الحياة في العصر الحاضر . — انظر المادة الثانية من مرسوم انشائه ٦/١ من مجلته . هذا وقد أصبح اسم المجمع اليوم : مجمع اللغة العربية .

المقدمة — قرارات سديدة يصح ان نعدها بعثاً لحركة القياس بعد نوم امتد ألف سنة . من المئة الخامسة للهجرة حتى اليوم .

وبإثباتنا بعض هذه القرارات نختتم الكلام على القياس مادة وتأريخاً :

قرار التضمين [١]

التضمين أن يؤدي فعل أو ما في معناه مؤدى فعل آخر أو ما في معناه فيعطى حكمه في التعدية واللزوم .

ومجمع اللغة العربية يرى أنه قياسي لا سماعي بشروط ثلاثة :

١ — تحقق المناسبة بين الفعلين .

٢ — وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ويؤمن معها اللبس .

٣ — ملاءمة التضمين للذوق العربي .

ويوصي المجمع ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي .

أمثلة التضمين في القرآن الكريم :

« ... وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . » [٢]

ضمن (خلا) معنى (انتهى)

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ١/٣٣ وانظر الاحتجاج لهذه القرارات في ص ١٧٧- ٢٦٣ من الجزء نفسه .

(٢) سورة البقرة ٢/١٤ .

« الله يستهزىء بهم ويُمدُّهم في طغيانهم يعمهون . » (١)

ضمن (يمد) معنى (يزيد)

« . . والله يعْلم المفسد من المصلح . . » (٢) .

ضمن (يعلم) معنى (يميز)

« . . ولتكبّروا الله على ما هداكم . . » (٣)

ضمن (لتكبروا) معنى (لتحمدوا)

« . . فأماته الله مئة عام ثم بعثه . . » (٤) .

(ضمن (أمات) معنى (ألبث)

« . . لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً . . » (٥) .

ضمن (يألونكم)معنى (يمنعونكم)

« . . وما يفعلوا من خير فلن يُكفَروه . . » (٦) .

ضمن (يكفروه)معنى(يحرموه)

« . . ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم . . » (٧) .

ضمن (تأكلوا)معنى(تضموا)

---

(١) سورة البقرة/١٥

(٢) سورة البقرة /٢٢٠

(٣) سورة البقرة /١٨٥

(٤) سورة البقرة /٢٩٥

(٥) سورة آل عمران ٣/١١٥

(٦) سورة آل عمران ٣/١١٥

(٧) سورة النساء ٤/٢

« أَلم ترَ إِلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب . . » [١]

ضمن (ترى) معنى (تنتهي)

« . . ولو جاءهم أَمر من الأَمن أَو الخوف أذاعوا به » [٢]

ضمن (أذاعوا) معنى (تحدثوا)

« . . وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك . . » [٣]

ضمن (تارك) معنى (صادر)

« . . وعَتَوْا عن أمر ربهم . . » [٤]

ضمن (عتوا) معنى (انحرفوا)

« أَولم يَهْد للذين يرثون الأَرض من بعد أهلها » [٥]

ضمن (يهد) معنى (يتضح)

« حقيقٌ على ألا أقول على الله إلا الحق .. » [٦]

ضمن(حقيق)معنى(حريص)

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأَرض . . » [٧]

ضمن (اثاقلتم) معنى (أخلدتم)

---

(١) سورة آل عمران ٣/٢٣

(٢) سورة النساء ٤/٨٢

(٣) سورة هود ١١/٥٣

(٤) سورة الاعراف ٧/٧٦

(٥) سورة الاعراف ٧/٩٩

(٦) سورة الاعراف ٧/١٠٤

(٧) سورة التوبة ٩/٣٩

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » (١)

ضمن (يرغبوا) معنى (يبخلوا)

« وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم . . » (٢)

ضمن (ينصر) معنى (يجير)

« ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » (٣)

ضمن (تخاطب) معنى (تراجع)

قرار التعريب (٤) :

يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية ـ عند الضرورة ـ على طريقة العرب في تعريبهم .

قرار المولد (١) :

المولد هو اللفظ الذي استعمله المولدون على غير استعمال العرب ، وهو قسمان :

---

(١) سورة التوبة ٩/١٢١

(٢) سورة هود ١١/٣٠

(٣) سورة هود ١١/٣٧

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية ١/٣٣ وانظر الاحتجاج لذلك في ص ١٧٧ — ٢٦٣ من الجزء نفسه .

١ — قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما ، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك ؛ وحكمه أنه عربي سائغ .

٢ — وقسم خرجوا فيه عن أقيسة كلام العرب إما باستعمال لفظ أعجمي لم تعربه العرب (وقد أصدر المجمع في شأن هذا النوع قرار التعريب السابق) ، وإما بتحريف في اللفظ أو في الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح ، وإما بوضع اللفظ ارتجالا [١] .

والمجمع لا يجيز النوعين الأخيرين في فصيح الكلام .

في الصياغة والاشتقاق [٢] :

قرار (فعالة) للحرفة :

يصاغ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أي باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن (فِعالة) بالكسر .

قرار (فعلان) للتقلب والاضطراب [٢] :

يقاس المصدر على وزن (فَعَلان) لفعَل اللازم مفتوح العين إذا دل على التقلب والاضطراب .

---

(١) ترتجلة السوقة وتروجه ، وربما سرى الى بعض الخاصة في كلامهم العادي كالجلعصة والشرشحة مثلا .

(٢) ٣٤/١

قرار (فُعال) للمرض [١] :

يقاس من (فَعل) اللازم المفتوح العين مصدر على وزن (فُعال) للدلالة على المرض .

قرار (فُعال وفَعيل) للصوت [٢] :

إذا لم يرد في اللغة مصدر لفَعل اللازم مفتوحَ العين الدال على صوت، فيجوز أن يصاغ له قياساً مصدر على وزن (فُعال) أو (فَعيل) .

قرار المصدر الصناعي [٢] :

إذا أريد صنع مصدر من كلمة ، يزاد عليها ياء النسب والتاء .

قرار (فعّال) للنسبة الى الشيء [٢] :

يصاغ (فعّال) قياساً للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء .

فإذا خيف لبس بين صانع شيء وملازمه ، كانت صيغة (فعّال) للصانع وكان النسب بالياء لغيره ، فيقال (زجّاج) لصانع الزجاج ، (وزُجاجي) لبائعه .

---

(١) ٣٤/١

(٢) ص٣٥/١

قرار اسم الآلة [١]

يصاغ قياساً من الفعل الثلاثي على وزن (مِفْعَل ، ومِفْعال ، ومِفْعَلة) للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء [٢] .

قرار الاشتقاق من أسماء الأعيان [٣] :

اشتق العرب كثيراً من أسماء الأعيان [٤] .

والمجمع يجيز هذا الاشتقاق ـ للضرورة ـ في لغة العلوم [٥] .

---

(١) ٣٥/١

(٢) قلت : احكام هذه القرارات كانت موضع خلاف منذ القديم بين من يقصرها على ما لم يسمع له صيغة مخصوصة ، ومن يرى اطراد القياس فيها الى جانب ماسمع له صيغة اخرى ، والخطوة التي خطاها المجمع هي حسمه الخلاف بميله الى اطراد القواعد وخيراً صنع .

(٣) ٣٦/١

(٤) ٣٧/١

(٥) فنقول مثلا : منحّس (كما قالوا مفضض) ، مزنخ ، مبلر ، مقصدر ، مكهرب ممغنط ، منشّى (مُعضّى ، متمض) ، استماه البخار، استماس الفحم استرب النشا (الرب الغليكوز = عسل الفاكهة) كما قالوا : حنّيته ـ بوبته ـ تربت يداه ، أترب جَوْربته فتجورب .... ـ ارض مذبة ، المذبة ـ المزفت ـ زتّ الطعام (وتجد في احتجاجات السكندري كثيراً جداً مما اشتق العرب من أسماء الاعيان) ص٢٣٦ـ٢٦٨ من المجلة نفسها .

قرار مطاوع (فعل) الثلاثي [١]

كل فعل ثلاثي متعد دال على معالجة حسية فمطاوعه القياسي : (انفعل) ما لم تكن فاء الفعل واواً ، أو لاماً ، أو نوناً ، أو ميماً ، أو راءً ، ويجمعها قولك (ولنمر) فالقياس فيه (افتعل) .

قرار مطاوع (فعل) بتشديد العين [١] :

قياس المطاوعة لفعَّل مضعف العين (تفعّل) ، والأغلب فيما ضعف للتعدية أن يكون مطاوعة ثلاثيه .

قرار مطاوع (فاعل) [١] :

(فاعل) الذي أريد به وصف مفعوله بأصل مصدره مثل (باعدته)، يكون قياس مطاوعه (تفاعل) كتباعد .

قرار مطاوع (فعلل) [٢] :

(فعلل) وما ألحق به قياس المطاوعة منه على (تفعلل) نحو دحرجته فتدحرج ، وجلببته فتجلبب .

---

(١) ٣٦/١
(٢) ٣٧/١

قرار التعدية بالهمزة (١) :

يرى المجمع أن تعدية الفعل الثلاثي اللازم بالهمزة قياسية .

قرار صيغة (استفعل) للطلب والصيرورة (١) :

يرى المجمع أن صيغة (استفعل) قياسية لإفادة الطلب أو الصيرورة.

ملحقات الأصول العامة (١) :

الأول — يفضل اللفظ العربي على المعرب القديم إلا إذا اشتهر المعرب.

الثاني — ينطق بالاسم المعرب على الصورة التي نطقت بها العرب.

الثالث — تفضل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة ، إلا إذا شاعت .

الرابع — تفضل الكلمة الواحدة على الكلمتين فأكثر عند وضع اصطلاح جديد، إذا أمكن ذلك، وإذا لم يمكن تفضل الترجمة الحرفية (٢) .

---

(١) ٣٧/١

(٢) وفي ٣٣/٢ فما بعد قرار :

١ ـ تكملة مادة لغوية ورد بعضها في المعجمات ونحوها ولم ترد بقيتها .

٢ ـ قرار النسبة الى جمع التكسير (عند ضرورة التمييز ونحوها)

٣ ـ قرار قياس (مفعلة) للمكان يكثر فيه الشيء .

٤ ـ قرار قياس (فعّال) للمبالغة في الثلاثي اللازم والمتعدي .

وفي ١٧٤/١٤ بحث ثم قرارات في قياسية جموع التكسير ـ فليرجع الى ذلك كله .

وأنت قد عرفت أن أكثر هذه القرارات كانت حول القضايا التي كان فريق من العلماء يقصرها على السماع وآخر يقيس عليها ما لم يرد عنهم فيه سماع ، اما المجمع الحديث فقد نهج منهجاً يستطيع ان يحقق به مقتضيات الزمن ، وقد سبقه الى سد الثلمة - وان كان على نحو علمي أضيق - مجمع دمشق . أما الجامعة السورية فقد اضطر أساتيذها منذ انشائها ورجال الطب منهم خاصة إلى مصطلحات علمية كثيرة؛ وضعوها على ما تقتضيه الأصول العربية تعريباً واشتقاقاً ووضعاً فأغنوا بعض الغناء[1].

والذي نختم به هذا البحث أن الواجب لا ينتهي برسم الخطة، بل إن رسم الخطة شيء وتحقيقها شيء آخر ؛ فإذا شرع المجمع يحقق ما رسم ويمد المعاهد والمؤسسات والمجتمع كله بما يحتاج إليه من أسماء وأفعال لحاجاتنا اليومية والاجتماعية والعلمية والفنية والوجدانية ، والحضارية بصورة عامة : إذا فعل ذلك كان في طريق أداء الواجب عليه وتحقيق المصلحة التي من أجلها أنشأه منشئه رحمه الله .

ويبقى بعد ذلك للغة العربية فيض زاخر من المرانة ، على أهلها أن

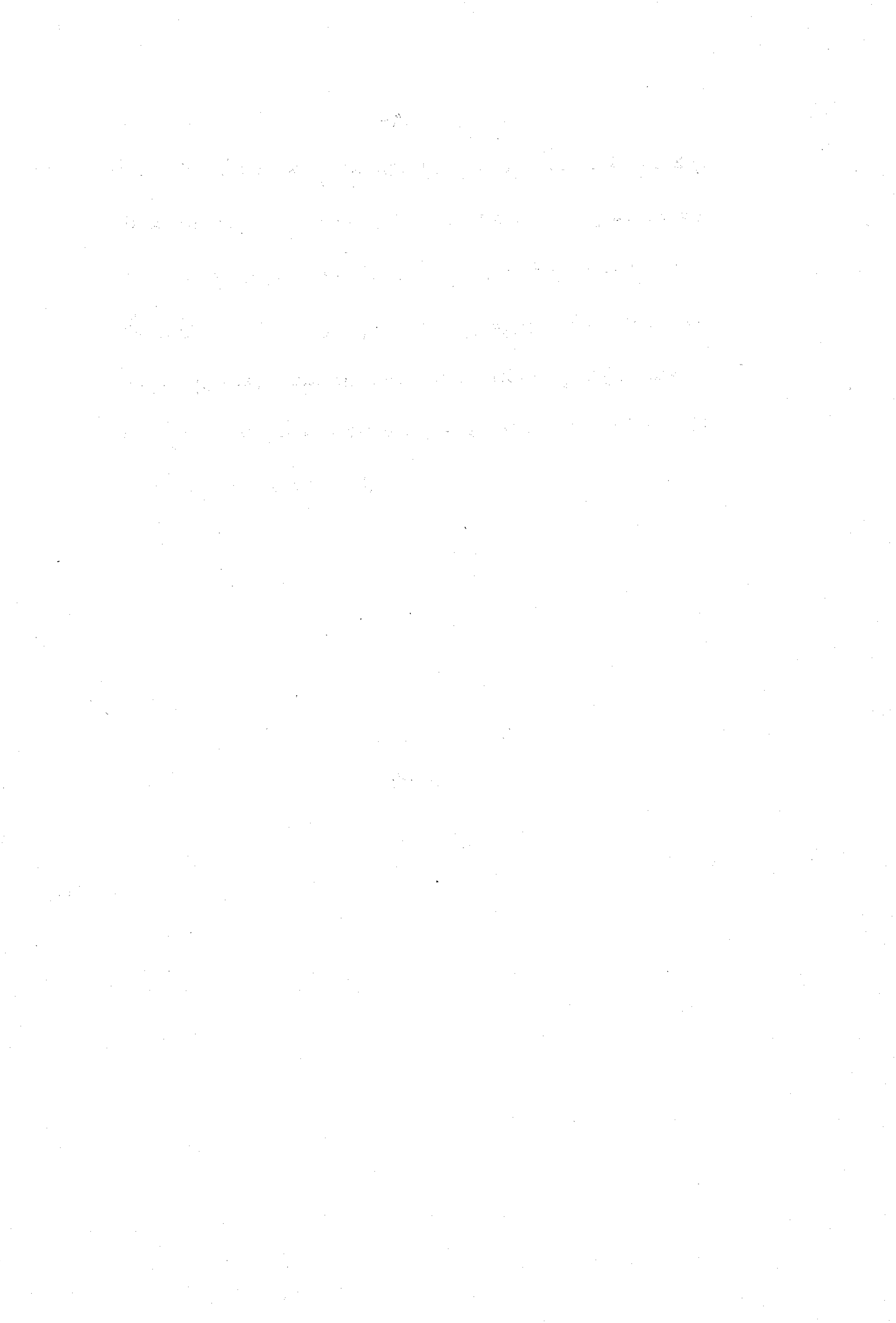
---

(١) ثم استمروا في تقدمهم حتى صار لكل استاذ فن منهم معجم للمصطلحات التي واستعملها وضعها في مؤلفاته واخذها عنه طلابه ، بحيث تفكر كلية الطب اليوم بطبع معجم طبي في اللغة العربية لكثرة ماتوفر لديها من مصطلحات . والذي قام به اساتيذ هذه الكلية في اكثر من ثلاثين عاما عمل جليل يستحق شكر العربية والوطن فقد كانوا اكثر من اساتذة ، كانوا اصحاب رسالة وايمان

يفيدوا منه ولا يعطلوه . إذ قد ثبت على مر الزمن أنها تسبق الباحثين والمستنبطين ولا يعجزونها ، وأن كل عصر أفاد منها على قدر استعداد أهله ومواهبهم وملكاتهم . وحسبك أن تقابل بين الأصمعي والخليل وقد كانا في زمن واحد ، وبين ابن خالويه وابن جني وقد أظلهما عصر واحد أيضاً ، لتميز مدى ما يفيد ذو الملكة المبدعة الخلاقة من الدائرة الضيقة التي يدور فيها ذو الذهن المقيد . واللغة بعدُ واحدة والفرص المتاحة أيضاً واحدة :

ولكن تأخذ الأذهان (منها)   على قدر القرائح والفهوم





الاشتقاق

في اللغة العربية

الاشتقاق

١ معناه — ٢ انواعه — ٣ مصدره — ٤ أحكامه — ٥ خاتمة

(١)

معنى الاشتقاق

أقدم استعمال لهذه الكلمة في معناها المعروف ما ورد في الحديث الصحيح:
« يقول الله : أنا الرحمن خلقت الرُّحْم وشققت لها من اسمي . »[١]
ومعناها الاصطلاحي :

أخذ لفظ من آخر مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ يضيف زيادة على المعنى الأصلي ، وهذه الزيادة هي سبب الاشتقاق .

(٢)

أنواعه

حصروه في أنواع أربعة : صغير . وكبير ، وأكبر ، وكُبّار

---

(١) المزهر للسيوطي ٣٤٦/١ والرحم والرحمة واحد

١ ــ الاشتقاق الصغير أو الأصغر :

وهو المراد حين يطلق لفظ الاشتقاق مثل كلمتي (عالم ، ومعلوم) من (العلم) . ويتفق هنا المشتق والمشتق منه في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها . وأفراد هذا الاشتقاق عشرة : الفعل الماضي ، والفعل المضارع ، وفعل الأمر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل واسم التفضيل ، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة .

وأمرها جميعاً من حيث قواعد الاشتقاق معروفة للجميع فلا نعرض لها هنا بشيء .

٢ ــ الاشتقاق الكبير :

أَن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الأحرف الأصلية دون ترتيبها مثل : حمد ومدح ، وجبذ وجذب ، وكلم ولكم .

وسنعرض له بشيء من البيان ،

٣ ــ الاشتقاق الأكبر :

أن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الأحرف الثابتة وتناسب في مخرج الأحرف المغيّرة ، مثل . نهق ونعق ، وعنوان وعلوان :

لكن تتبعات اللغويين هدت إلى عدم لزوم هذا القيد (تناسب المخارج) كما يظهر لك من الزمر الآتية :

أ ــ صرير البكرة وصريفها ــ الخَرْق والخَرْب (كل ثقب مستدير والخرب ثقب الأذن) ـ هديل وهدير .

ب — الحرف المضعف مع آخر : كدّ وكدح ، رصّ ورصف ، زحّ وزحل ، رجّ ورجف ، ضمّ وضمد ، ردّ وردع .

حـ — الناقص مع حرف آخر : رسا ورسب ، سما وسمق ،زجاوزجر هذى وهذر ، محا ومحق ، احتفى واحتفل ، دهدى ودهدم ، أسى وأسف ، رخا ورخص ،الحجى والحجر ، هباء وهباب .

د — المضعف يحول ناقصاً : ربّ وربا،طمّ وطمى،تمطط وتمطى تقضض وتقضّى ، تظنّن وتظنّى .

هـ — المضعف يحول أجوف : ضرّ وضار ، كعّ وكاع[1] .. الخ .

ومن المحدثين من حذا حذوابن جني الذيسيأتي بيانه بعدُ فيالكلام على الاشتقاق الكبير ، فاستقرى بعض الكلم التي تشترك في الحرفين الأولين فوجد فيها كلها معنى مشتركا ، ولو تيسر له مواصلةاستقرائه لطلع علينا — فيما أقدر — بنظرية تؤيد القائلين اليوم بأن الأصل في الكلمات العربية ثنائي لاثلاثي ، قال :

« والذي يتقرى كلم اللغة العربية بإنعام نظر يجد ان لمعظم موادها أصلاً يرجع إليه كثير من كلماته إنلم نقل كلها ،خذ على ذلكمادة (فل) وما يثلثها تجد الجميع يدور حول معنى الشق والفتح مثل : فلح، فلج،فلع فلق ،فلد ، فلى . ومثل ذلك مادة (قط) ومايثلثها تقول : قطّ ، قطع

---

(١) كتاب الاشتقاق والتعريب

قطر ، قطف ، قطن . وكلها بمعنى الانفصال . »(١)

واليك مثلا آخر لمحدث أيضاً :

الهمزة والباء مدلولهما النفور والبعد والانفصال بين الشيئين :

أَبَّ للسير : تهيأ له. | أبز الظبي : وثب وانطلق .

أَبت اليوم : اشتد حره فقطع الناس عن أعمالهم . | أبق العبد : نفر عن مولاه .

| أبل : توحش .

أَبد الوحش : نفر . | أَبه عن الشيء : تنزه عنه .

أبر النخل : قطع منها شيئاً | أَبي عن الضيم : فرعنه .(٢)

ولأمر ماجرى صاحب (المصباح المنير) في أبواب معجمه على أن يقول مثلاً (الهمزة والباء ومايثلثهما) ...هكذاالى آخر الأبواب،فهل كان يشير إلى أن وراء كل أصلين معنى مشتركاً يكمن في كل ماتفرع منهما من كلم ؟ وإذاً تكون نظرية (المعجمية الثنائية)التي يشيدبها بعض المصريين قد فطن اليها لغويو العرب ومروا بهـا غير متلبثين لقلة جدواها العملية .

٣ ـ الاشتقاق الكبّار :

زاده بعضهم(٣) مطلقاً إياه على مايسمى بالنحت ، فجعل منـه :

(١) المرحوم الاستاذ طه الراوي : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٢٢٠/١٣

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٢٤٥/٢

(٣) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ٢٨٣/١ : بحث الاستاذ عبد الله أمين

(عبشمي من : عبد شمس) و (حولق من : لا حول ولا قوة الا بالله).

ومراعاة معنى الاشتقاق تنصر جعل النحت نوعاً منه، وإن فضل المتمسكون بالاصطلاح الفني إفراده من الاشتقاق .

وهذا النحت ذو انواع أربعة :

١ ـــ فعلي : ينحت من الجملة دلالة على النطق بها أو حدوث مضمونها فأمثلة الحالة الأولى : بأبأ = قال بأبي أنت ، جَعْفل = قال : جعلت فداك ، سبْحل = قال : سبحان الله ، دمعز = قال : أدام الله عزك ، سمْعل = قال : السلام عليكم ، فذْلك = قال : فذلك .. الخ

ومثال الحالة الثانية : بعثر = بعث وأثار ،

٢ ـــ وصفي : ينحت من كلمتين دلالة على صفة بمعناهما أو أشدمنه : ضَبْطر : من الضبط والضبر (الاكتناز) ، صلْدم (شديد الحافر) : من الصلْد والصدم ، صهْصَلِق : من الصهيل والصلق (وهو الصوت المرتفع) .. الخ .

٣ - اسمي : ينحت من اسمين جامعاً بين معنييهما :

جلمود : جلد + جمد ، حبْقُر (بمعنى البرَد) = حَبّ قُرّ ، عقابيل (بقايا العلة في الجسد)=عقبي الحمى وعقبي العلة..الخ ، وهي كلمة لامفرد لها.

٤ ـــ نسبي : ينحت نسبة إلى علمين :

طبرخزي : نسبة إلى طبرستان وخورازم، شفعنتي : نسبة إلى الشافعي

وأبي حنيفة (١)

وسمع عن العرب : عبشمي : نسبة إلى عبد شمس ، عبدري: نسبة إلى عبد الدار ، مرقسي: نسبة إلى امرىء القيس ، تيملي إلى تيم اللات ..الخ ،

. . .

هذا ويتعلق النوع الأول من الاشتقاق بعلم الصرف ، أما الأنواع الثلاثة الباقية فتتعلق ببحوث اللغة .

وسنعرض بشيء من الافاضة إلى الاشتقاق الكبير خاصة لشأنه المرموق دون بقية الأنواع .

في الاشتقاق الكبير

إذا قلّبت فعلاً ثلاثياً على أوجهه الستة ، فأنت واجد بين معانيها قدراً تشترك فيه الكلمات المستعملة منها ؛ فكأن هذا القدر هو المعنى الأساسي لها جميعاً ، ثم تنفرد كل منها بمعنى ليس في سائرها ، وهذه حال تشبه حال المشتقات مع المصدر في الاشتقاق الأصغر .

مؤسس هذه (النظرية) ومبدعها وواضع اصطلاحها الفيلسوف اللغوي ابن جني أحد الأئمة الأعلام في المئة الرابعة الهجرية، فقد صرح

---

(١) الاشتقاق والتعريب

في كتابه الخصائص في (باب الاشتقاق الأكبر) (١) بما يلي :

«هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن أبا علي (الفارسي) رحمه الله كان يستعين به ويخلد اليه مع إعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع هذا لم يسمه (٢) وإنما كان يعتاده ويستروح إليه ويتعلل به ، وإنما هذا التلقيب لنا نحن وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن ، وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين : كبير وصغير ، فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم : كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه ، وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو : سلم ويسلم وسالم وسلمان وسلمى والسلامة السليم ..

---

(١)١٣٣/٢ . « وهو البحث الذي لايزال يؤتي ثمره الى اليوم ، والذي يختص بمادة الكلمة دون هيئتها ، ولم يكن لعلماء اللغة من العرب إنتاج أعظم من هذا »— آدم متز في كتابه (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/ ٣٣٠ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ .

هذا ويريد ابن جني بـ(الاشتقاق الأكبر) ما اصطلحنا في تقسيمنا على تسميته بـ(الكبير) كما تقدم آنفاً فتنبه الى ذلك .

(٢) قلت : في الفهرست لابن النديم ص ٩٥ (المطبعة الرحمانية بمصر) أن للرماني كتاب : (الاشتقاق الصغير) وكتاب (الاشتقاق الكبير) ، والرماني من أتراب الفارسي وأقرانه ، فلعل ابن جني لم يطلع على كتابيه هذين . هذا اذا كان قوله (الصغير ، والكبير) صفتين للاشتقاق لا للكتاب . توفي الرماني سنة (٣٨٤) وهو ممن كان يمزج النحو بالمنطق ، حتى كان الفارسي يقول : « إن كان النحو مايقوله الرماني فليس معنا منه شيء ، وإن كان مانقوله نحن فليس معه منه شيء ».

وأما الاشتقاق الأكبر فأن تأخذ أصلاً من الاصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وإن تباعد شيء من ذلك (عنه) رد بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد .» ثم مضى ابن جني يضرب الامثلة على قاعدته وإليك نمطاً منها :

مادة (قول) في جميع تراكيبها الستة تدل على الإسراع والحركة :

قول : وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له ... وهو بضد السكوت الذي هو داعيه الى السكون .

ق ل و : القِلْو حمار الوحش وذلك لخفته وإسراعه ، ومنه (قلوت البسر والسويق) وذلك لأن الشيء إذا قلي جف وخف ، وكان أسرع الى الحركة وألطف .

وقل : الوَقْل للوعل وذلك لحركته ، توقل في الجبل إذا صعد فيه وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

ولق : ولق يلق إذا أسرع .

لوق : في الحديث (لا آكل من الطعام إلا ما لوّقلي) اي ما خدم وأعملت اليد في تحريكه ، ومنه اللوقة : الزبدة وذلك لخفتها وإسراع حركتها وأنها ليست لها مسكة الجبن .

لقو : اللَّقْوة للعُقاب ، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها[١] .

وقد احتذى المتأخرون من عصريينا حذو ابن جني فقدموا لنا أمثلة كثيرة على منواله ، وبعضهم انحرف في تطبيقها فأتى بجديد كما رأيت في صنيع الاستاذ طه الراوي رحمه الله وغيره . وإليك مثالاً آخر :

انظر تقاليب مادة (ن ج د) تجدها كلها تفيد القوة فهي المعنى المشترك لها:

فالنجد : الشجاع ، وما ارتفع من الأرض، والنجدة القتال، والنجدة الفزع ؛ وفي كل ذلك قوة .

والجند : بهم تكون القوة .

والجَدَن : حسن الصوت وهو قوة ، وأجدن استغنى بعد فقر ؛ وفي الاستغناء قوة .

والدِناج : إحكام الأمر وهو قوة .

والدَجن : المطر الكثير وفيه قوة .

والدجنة : الظلمة والظلمة ترهب ففيها قوة[٢] .

على أن هذه النظرة العميقة مكنت الاشتقاقيين «من رد الكلمات التي اشتركت في معنى واحد بعضها إلى بعض بالقلب والإبدال ، وأطلعهم على سر تولد اللغة ونموها » .

---

(١) الخصائص ١/٥ ـ ١١ وقد فعل مثل ذلك بمادة (ك ل م)ص ١٣ — ١٧ فانظرها ثمة بإنعام .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ٢/٢٠٠

ولم يعدم هذا المذهب مبالغين فيه حملتهم قلة بضاعتهم وسوء بصارتهم على أن يخرجوا إلى غير الاعتدال ، فقد حكى السيوطي في (المزهر) (١) أن أحدهم سئل : «من أي شيء اشتق الجرجير ؟ » فقال : « لأن الريح تجرجره ... ومن هذاقيل للحبل الجرير لأنه يجر على الأرض » قال : « والجرة لم سميت جرة ؟ » قال : «لأنهاتجر على الأرض » فقال « لو جرت على الأرض لانكسرت»،«فالمجرة لم سميت مجرة ؟» قال :« لأن الله جرها في السماء جرا » قال : «فالجرجور الذي هو اسم المئة من الابل لم سميت به ؟ » فقال : « لأنها تجر بالازمة وتقاد » ..الخ

وقال آخر انما سمي الثور ثوراً لأنه يثير الارض ..

وركب هذا الهتر بعض العصريين فأولع برد الكلمات الاعجمية الى العربية،حتى ان بعضهم سئل عن (٢) (البنجرة) وهي الشباك بالتركية ، فقال إنها من (فنجر الرجل) إذا فتح عينيه والنافذة في الجدار فتحته (٢)

(٣)

مصدر المشتقات

ليست هـذه المسألة موضع اتفاق بين البصريين والكوفيين ،

---

(١) الجزء ١/٣٥٤ والخبر مفصل في ارشاد الاريب عن ابرهيم الزجاج فانظره ثمة ١/ ١٤٤ إذ زعم « أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وان نقص حروف احداهما عن حروف الاخرى فان احداهما مشتقة من الاخرى » وسرد امثلة عدة وقد روى ياقوت تنكيت المعترضين عليه

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي ١٣/ ٢٢٠ . ثم اتخذ بعض الظراف الدعابة مركباً في هذا الباب ، فذهب يرد كثيراً من الكلمات الاجنبية الى العربية تعريضاً بالمتقعرين فيقول مثلا أصل (الالكتريك): آلة تريك، واصل المادة الهاضمة (الكاربونات) (الكرب نط) .. الخ .

فالأولون يذهبون إلى أن المصدر أصل الفعل ، والكوفيون يرون أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه ، وللفريقين أدلة وردود سردها ابن الأنباري في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) في المسألة الثامنة والعشرين (١/١٤٤ — ١٥٢) وكان قد أفردها في تأليف مستقل .

فمن أدلة الكوفيين : أن المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن له فعل فاعل ، فينبغي أن يكون الفعل الذي يعرف به المصدر أصلاً للمصدر .

وأن المصدر يذكر توكيداً للفعل ورتبة التوكيد بعد رتبة المؤكَّد ،

وأنا نجد أفعالاً لا مصادر لها مثل: نعم ، بئس ، عسى ، ليس .. الخ

ومن أدلة البصريين : أن المصدر يدل على مطلق الزمان لا اختصاص له بزمان دون زمان ، فلما احتاجوا إلى الدلالة على زمن محدد اشتقوا منه الفعل ليدل على الحدوث والظرف معاً .

وأنه لو كان مشتقاً من الفعل لكان يجب أن يجري على سنن في القياس : كاشتقاق الأفعال وأسماء الفاعلين . .

وأنه لو كان مشتقاً من الفعل لوجب أن يدل على ما في الفعل من الحدث والزمان وعلى معنى ثالث هو سبب الاشتقاق ، كما دل اسم الفاعل مثلاً على معنى الفعل (الحدث والزمن) وعلى الذات الفاعلة . . الخ . . إلى أدلة كثيرة صناعية لكل من الفريقين . يجد المدقق فيها كلها اجتهاداً في النظر ووجهاً من الحق .

ومن الباحثين المحدثين من دعم رأي الكوفيين وعممه على كل اللغات

السامية . ذاهباً إلى أن القائلين بأن المصدر أصل الاشتقاق متأثرون بعقليتهم الفارسية .

قال إسرائيل ولفنسون مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية سابقاً :

« وقد رأى بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الاسمي هو الأصل الذي يشتق منه أصل كل الكلمات والصيغ ؛ ولكن هذا الرأي خطأ — في رأينا — لأنه يجعل أصل الاشتقاق مخالفاً لأصله في جميع أخواتها السامية .

وقد تسرب هذا الرأي إلى هؤلاء العلماء من الفرس الذين بحثوا في اللغة العربية بعقليتهم الآرية ، والأصل في الاشتقاق عند الآريين أن يكون من مصدر اسمي ، أما في اللغات السامية فالفعل هو كل شيء ، فمنه تتكون الجملة ولم يخضع الفعل للاسم والضمير ، بل نجد الضمير مسنداً إلى الفعل ومرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً » [١] .

ثم ذكر هذا المستشرق اليهودي أن هذه نظريته الخاصة إذ لم يشر إليها أحد من علماء الافرنج . ومع رغبته في أن يعم بنظريته هذه اللغة العربية ولغته العبرية يجدر بالمتأمل الوقوف وعدم القطع بما لم يقم عليه البرهان الساطع ، فما أكثر الظواهر التي خالفت فيها العربية أخواتها الساميات .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ١٤ (لجنة التأليف والترجمة والنشر — الطبعة الأولى ١٩٢٩)

وربما ذهب إلى تأييد نظرة الكوفيين غيره من الباحثين المحدثين ، والمسألة بعدُ نظرية صرف لم يقم فيها دليل حاسم ، ولا لنا منها اليوم جدوى عملية .

* * *

وأي كان فالذي نميل إليه الآن هو أنه إذا كان في المشتق زيادة معنى على المشتق منه ، وكان البسيط مقدماً على المركب ـ وذلك مسلم عند الفريقين ـ فأصل المشتقات كلها ـ صناعةً ـ المصدر لا الفعل ، لأن المصدر يدل على حدث والفعل يدل على حدث وزمن ، والأسماء المشتقة تدل على حدث وزمن مع زيادة ثالثة كالدلالة على الفاعل أو المفعول أو التفضيل أو المكان . فهذه الكثرة من المشتقات التي جعلت للغة سعتها ومرانتها أخذت من المصادر التي هي جميعاً أسماء معان . وقد مر بك (ص ٨٠) كلمة الفارسي في أن « رتبة المشتق أن يكون بعد » .

على أن العرب لم تحجم أحياناً عن الاشتقاق من غير المصادر ،فاشتقت من أسماء معان ومن ذوات حسية ومن اسماء الازمنة والامكنة ومن أسماء الاصوات ومن الحروف وإليك البيان [١] :

١ ـــ عمدوا إلى الأعداد وهي أسماء معان جامدة فقالوا : وحُد

---

(١) عن مجلة مجمع اللغة العربية ١/٣٨٥ فما بعد ، باختصار وتصرف

وتوحّد : بقي وحده ، وثنَّيته تثنية جعلته اثنين ، وثلثهم جعلتهم ثلاثة ، وربعتهم وخمستهم .. إلى (عشرتهم) ، وفي المخصص : « كانوا تسعة وعشرين فثلثتهم : أي صرت لهم تمام ثلاثين ، وكذلك جميع العقود إلى المئة ، فإذا بلغت المئة قلت : « كانوا تسعة وتسعين فأمأيتهم ، وكانوا تسعمائة وتسعة وتسعين فآلفتهم » .

٢ — واشتقوا من أسماء الأزمنة وهي أيضاً أسماء معان جامدة ، اشتقاقاً صريحاً يكاد يكون مطرداً . ففي اللسان : أَخرف القوم : دخلوا في الخريف ، وشتوت بموضع كذا وتشتيت : أَقمت به في الشتاء ، وأربعوا دخلوا في الربيع ، وتربعوا الموضع : أَقاموا فيه بالربيع ، وأصافوا : دخلوا في الصيف وصافوا بمكان كذا ، وأفجروا دخلوا في الفجر ، ومثلها أَصبحوا ، وأشرقوا : دخلوا في وقت الشروق ، وأظهروا وأعصروا وآصلوا ، وفي الحديث : (كان في سفر فاعتشى في أَول الليل أي سار وقت العشاء) واستحروا وابتكروا . وساوعه : استأجره الساعة أَو عامله بها ، وأليلوا .. الخ .

٣ — واشتقوا من أسماء الذوات كأعضاء الانسان ، فقالوا أَذنه ورآه وسره ، أي ضرب أذنه ورئته وسرته .. الخ وتأبط الشيء وضعه تحت إبطه .. ومن غير أَعضاء الانسان قالوا : أَبرته العقرب : لسعته بإبرتها ، وأَبَّل الرجلُ : كثرت إبله ، وأَزرته : أَلبسته إزاراً ، واستأسد وأَسد : صار كالأسد .. الخ .

وقالوا : أَورق الشجرُ ،وعقرب الصدغَ ، وفلفل الطعامَ الخ ومن الشجر قالوا : شجرت فلاناً بالرمح تأويله : جعلته فيه كالغصن في الشجرة (١) .

٤ ــ واشتقوا من أَسماء الأصوات حتى لقد ذكر ابن جني أنه « ذهب بعضهم إلى أَن أَصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير المياه ، ونعيق الغراب وصهيل الفرس ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل » (٢) .

وأَصل حكاية الاصوات في اللغة العربية على حرفين مثل (طَق ، قَب) أو ثلاثة أوسطها لين مثل (غاق) ومنها اشتقت الأفعال . فكلمة (صَلْ) يحكى بها صوت شيء يابس إذا تحرك والفعل المشتق منه (صلّ) ، فان تكرر قالوا (صلْصل) ، قالوا : صلّ اللجام إذا صوت . فاذا تكرر قلت : صلصل ، وسمي الطين اليابس (صلصالاً) لذلك . وكلمة (جِئْ جِئْ) دعاء الإبل للشرب فاشتقوا منه فعلاً فقالوا : « جأجأ بالابل » إذا دعاها للشراب ، وقال الراجز :

وما كان على الِهيء ولا الِجيء امتداحيكا

أَي على الطعام والشراب .

---

(١) المزهر ٣٥١/١

(٢) الخصائص ٤٦/١

ودعاء المعز بكلمة (عا ، عا) فجعل الراجز لاسم الصوت هذا فعلاً ومصدراً فقال :

يا عنز هـذا شجر وماءُ عاعيْتُ لو ينفعني العيعاء

وآخر الأمثلة التي نقدمها كلمة (صخْ) وهي حكاية صوت حادث من ضرب صخرة بصخرة ، فاشتق العرب منها فعل (صخّ) واستعملوا كلمة (الصاخَّة) وهي الصيحة تصخ الأسماع ، واشتقوا : أصاخ بمعنى استمع للصوت ، وربما كان اسم (الصخر) نفسه مشتقاً من اسم صوته ، ثم اشتقوا منه فقالوا : مكان مصخر كثير الصخر . وربما كان منه (صرخ) و (صخب) و (صخْد) وهو صوت الصرد . وقريب منه الصماخ للأذن لأنه جزء من أَداة السمع : وجميل ما ذكره بعض المحدثين [١] من جعلهم بعض الحروف اساساً في كلمات عدة يلاحظ صوته في معانيها جميعاً : كالنون في الطن والرن والقاف في الطرق والشق والدق .

٥ ـــ واشتقوا من حروف المعاني أفعالاً ومصادر فقالوا : أَنعم الرجل قال نعم ، سوّف الحاجة : إذا ما طل وقال مرة بعد مرة : سوف أَقضيها ،

---

(١) احمد امين بك في محاضرة له (القياس) بمجمع اللغة العربية في دورة ١٩٤٩ وقال عقب ذلك : « وعند تحري هذا الباب نراهم يحاكون أولا صوت المسموع بالأذن ، ثم ينقلونه الى المبصر بالعين ، ثم ينقلونه الى المحسوس بباقي الحواس الخارجية ثم الى المعقول بالعقل ، فمثلا لو نظرنا الى كلمة (حس)وتتبعناها وجدنا أن المصدر الاصلي لـ (حس) كان صوتاً سينيا تخيلوا انه يسمع عند الحس أي عند المس باليد=

وقالوا : (سألتك حاجة فلو ليت لي : قلت لي لولا ، [١] وقالوا : لالى الرجل : قال : لا ، وقالوا : لوى الكاتب لاء جيدة ، وقالوا : موّى إذا كتب (ما) ، وكوّف كافاً حسنة ، ودلّى دالا جيدة وزوّى زاياً قوية [٢] .

٦ — بل كان الاشتقاق عندهم كالعصارة المعدية تخالط كل غذاء فتهضمه و (تمثله) الجسم متحولاً إلى جنس دمه ، فقد صبت هذه العصارة على الأعلام العربية فقالوا تنزّر وتقحطن بمعنى انتسب الى نزار وقحطان [٣]

= ثم انتقلوا من الاحساس باليد الى الاحساس بغيرها فسموا كل ما يشعر به محسوساً وسموا الآلات التي يحس بها حواس ، ثم اطلقوها على العلم الحادث من الحواس، وعلى اليقين الحاصل من العلم بها ، واشتقوا أحس بالشيء إذا ادركه بحاسته ، ونقلوه الى أحسست بالشيء أي أيقنت به . ثم نوعوا هذا الصوت السيني فجعلوه مرة (حساً) ومرة (لمساً) ومرة (مساً) .. وتارة يلحظون مابين الحرف والمعنى من مناسبة فيلحظون في الحاء آخر الكلمة دلالة على الاتساع والانتشار : (ساح ، باح ، صاح شرح ، مرح) ، والكلمة المبدوءة بالشين على التشتت والتفرق مثل (شن ، شطر شعث ، شع).. والمبدوءة بالغين على الغموض : (غمض ، غاب ، غبش، غارغطس غم ..» ـ انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ٣٥٧

(١) الخصائص ٢/٣٤

(٢) انظر الخصائص ١/٢٧٥

(٣) جاء في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني : « ويدخل من تنزر بها مع الابناء ،ويدخل أهل البلدومن تقحطن بها مع بني شهاب » الابناء ابناء الفرس،—انظر الاكليل الجزء العاشرص ١٥ الحاشية «٤»

بل صبوها حتى على الأسماء الأعجمية وما زالت بها حتى لينتها للعربية وطوعتها فاشتقت منها ، قال أبو علي الفارسي :

« إن العرب اشتقت من الأعجمي النكرة كما تشتق من أصول كلامها ، قال رؤبة :

هل ينجيني حلفٌ سِخْتيت   أو فضة أو ذهب كبريت [١]

« فسختيت من السَخت كزِ حليل من الزحل ، » وحكى أيضاً عن ابن الاعرابي ... « يقال درْهمت الخُبّازى أي صارت كالدراهم فاشتق من الدرهم وهو اسم أعجمي » [٢] .

« ومما اشتقه العرب من كلام العجم ما أنشدناه من قول الراجز :

هل تعرف الدار لأم الخزرج   منها فظلْتُ اليوم كالمزرَّج

أي الذي شرب الزرجون وهي الخمر ، فاشتق المزرج من الزرجون [٣] .

أما (زنديق ، ودينار ، وديوان ، ولجام ، ومهرجان ... الخ). فأشهر من أن يجهلها أحد ، فقد عربتها العرب وأكثرت من استعمالها حتى ظُن أنها عربية صرف ، واشتقوا منها أفعالاً ومصادر وصفات فقالوا :زندقة

---

(١) في اللسان : هل ينجيني كذب سختيت . والسختيت : الصلب الشديد ، اصله فارسي ، والدقيق الحوارى ، والغبار الشديد الارتفاع — وانظر الديوان

(٢) الخصائص ١/٣٥٨ الزحليل :السريع

(٣) الخصائص ١/٣٥٩

تزندق ، ومدنّر ، ودوَّن تدويناً ، ومهرجونا كل يوم [١] . وقالوا من (الجوْرب) : (جوْربته فتجوْرَب) بمعنى (ألبسته الجورب فلبسه)[٢] وقالوا من (المنجنيق) : (جنّق الحجاج الكعبة [٣] .. الخ .

(٤)

أحكام تتعلق بالاشتقاق

المحقق وغيره — المطرد وغيره — أركان الاشتقاق — تغييراته — ما يمتنع على الاشتقاق — كتبه .

الاشتقاق المحقق وغير المحقق

الاشتقاق المحقق : أن تظهر الدلالة على المعنى المراد بالاشتقاق ، مثل اشتقاق (عالم) من (العلم) .

وهو ثلاثة أنواع :

الأول — المفرد : وهو الاشتقاق الذي لا يعارضه اشتقاق آخر كـ (ضارب) من (الضرب) .

---

(١) قالها علي بن ابي طالب لما قدموا اليه حلوى يوم المهرجان ،ولما قدمت اليه حلوى يوم النيروز قال : « نيروزنا كل يوم » ـ تاج العروس مادة «نرز»

(٢) انظر هذه المادة في لسان العرب

(٣) انظر محاضرات الراغب ٣٦٧/٢

الثاني — الراجح : وهو الاشتقاق الذي يعارضه اشتقاق آخر ،ولكن الأول أرجح ؛ وذلك مثل كلمة (الموسى) :

قيل : هي (مُفْعَل) من أَوسى بمعنى حلق ، وقيل هي (فُعلى) من ماس بمعنى تبختر (وقيل من رجل ماسٍ أي خفيف طيّاش) : إلا أَن كونها من (أوسى) أرجح من (ماس) ، لأن (مُفْعَل) في كلامهم أَكثر من (فُعْلى) وهو أَقيس لأن (مُفْعَل) يشتق من كل (أَفعَلَ) ، أَما (فُعْلى) فليس كذلك،ولأن مُفْعل منصرف و(فُعلى) غير منصرف .

الثالث — الواضح ، وهو الذي يعارضه اشتقاق آخر بلا ترجيح ، مثاله كلمة (الأولق) قيل هي من أَلِق بمعنى (جُن) فهي(فَوْعل) وقيل هي (أفعل)من (الولَق) وهو السرعة، ولا مرجح لأحدهما[1]

والاشتقاق غير المحقق أن تكون فيه شبهة اشتقاق فلا يكون اللفظ دالاً على المعنى المراد ، فكلمة (هِجْرِع) للرجل الطويل) قيل إنها من (الجرع) وهو السهل الطويل .

المطرد وغيره :

الاشتقاق المطرد عشرة أنواع : الافعال الثلاثة والاسماء المشتقة السبعة (اسم الفاعل واسم المفعول . والصفة المشبهة أَحياناً .واسم الزمان

---

(١) ابن جني يجعلها فوعلا على كل حال «أصلهاوولق» ثم قلبت

واسم المكان واسم التفضيل واسم الآلة) . وبقية المشتقات غير مطردة كالتي مرت بك وكـ (القارورة) للزجاجة التي يقر فيها الماء .

اركانه : لابد في الاشتقاق من أركان اربعة :١ ـ المشتق ٢ ـ المشتق منه ـ ٣ ـ تشاركهما في المعاني والحروف ٤ـ أن يكون بينهما تغيير لفظاً مثل (طالب من الطلَب) أو تقديراً مثل (طلَب من طَلَبٍ).ونعرف اشتقاق كلمة من أخري بتقليبها على جميع الصيغ ، حتى نرجع إلى صيغة توجد في جميع تصاريفها ، فكلمة (عالم) ليست مشتقة من معلوم لنقص بعض الحروف منها .

تغييراته : رد السيوطي تغييرات الاشتقاق إلى خمسة عشر :

١ ــ زيادة حركة : عِلم و عِلْم .

٢ ــ زيادة مادة :طالب وطلَب .

٣ ــ زيادتهما : ضارِب وضرْب .

٤ ــ نقصان حركة : الفرْس والفرَس .

٥ ــ نقصان مادة : ثَبت وثبات .

٦ ــ نقصانهما : نزا و نزوان .

٧ ــ نقصان حركة وزيادة مادة كـ غضبي وغضَب .

٨ ــ نقصان مادة وزيادة حركة كـ حرم وحرْمان .

٩ ــ زيادتهما مع نقصانهما كـ استنوق والناقة .

١٠ ــ تغاير الحركتين كـ بطِر وبطَراً .

١١ ـــ نقصان حركة وزيادة حركة وحرف كـ اضرب من الضرب.

١٢ ـــ نقصان مادة وزيادة أخرى كـ راضع من الرضاعة .

١٣ ـــ نقصان مادة وزيادة أخرى وحركة كـ خاف من الخوف .

١٤ ـــ نقصان حركة وحرف وزيادة حركة فقط كـ (عِدْ) من (الوعد) : فيه نقصان الواو وحركتها ، وزيادة كسرة العين.

١٥ ـــ نقصان حركة وحرف وزيادة حرف كـ (افخر) من (الفَخار) نقصت الف وفتحة وزادت الف [١] .

الممنوع من الاشتقاق :

قالوا : لا يدخل الاشتقاق ستة أشياء :

١ ـــ الأسماء الاعجمية .

٢ ـــ أسماء الاصوات .

٣ ـــ الاسماء المتوغلة في الإبهام مثل (من ، ما ، مهما) وماشابهها ،

٤ ـــ الالفاظ النادرة مثل : طوبى .

٥ ـــ الأسماء التي لها معان متقابلة كـ (الجَون) فهو الأبيض والأسود وكذا سائر أسماء الأضداد .

٦ ـــ الحروف .

---

(١) المزهر ٣٤٨/١ هذا والذي في الاصل كـ « فاخر » من الفخار نقصت ألف وزادت الف وفتحة ، ولم تظهر لنا صحته فرجحنا ماأثبتناه ،لانه هو المثل الذي يطابق الوصف المذكور .

وما ورد من ذلك فهو نادر مقصور على السماع ـ ١ هـ

وقد عرف مما تقدم لك أنهم يقتصرون على السماع ، فاشتقوا من الحروف والأسماء الأعجمية وأسماء الأصوات وغيرها .

كتب الاشتقاق :

قال السيوطي :

« أفرد الاشتقاق بالتأليف جماعة من المتقدمين : منهم قطرب(ـ٢٠٦) والاصمعي (ـ٢١٥) ، وابو حسن الاخفش (ـ ٢٢١) ، وابو نصر الباهلي (ـ٢٣١) ، والمفضل بن سلمة (ـ٢٥٠)والمبرد (ـ ٣٨٥) والزجاج (ـ٣١١) وابن السراج (ـ ٣١٦) ، وابن دريد (ـ ٣٢١) ، وابو جعفر النحاس (ـ٣٣٨) . وابن خالويه (ـ٣٧٠) ،والرماني (ـ ٣٨٤)له الاشتقاق الكبير و(الاشتقاق المستخرج)ويوسف الزجاجي الجرجاني(ـ ٤١٥)، وابو عبيد البكري (ـ ٤٨٧) . وجمال الدين الشريشي الاندلسي(ـ ٦٨٥) وعلي الخوارزمي حجة الافاضل (ـ ٦٨٦).ومن هؤلاء من قصر الكلام على ناحية خاصة هي اشتقاق الاسماء كالباهلي والمفضل ويوسف الزجاجي والبكري والخوازمي ، ومنهم من زاد في التخصيص كابن دريد فكسر كتابه على (اشتقاق اسماء القبائل)والكتاب مطبوع متداول [1]

---

(١) المزهر ٣٥١/١ وانظر انباه الرواة ١٠٣/١وص١٠٨،١٠٩،١٦٥،٣٢٥ .
هذا وفي الفهرست لابن النديم أن لنفطويه (ـ٣٢٣) كتاب الرد على من زعم أن العرب تشتق الكلام بعضه من بعض . انظر ترجمته فيه وفي كتاب «إنباه الرواة »=

وقلما نجد أَحداً من أَعلام العربية ممن يذكر في فهرست ابن النديم أو غيره من كتب الطبقات إلا عالج هذا الموضوع ، إن لم يكن في كتاب مستقل ففي ضمن بحث آخر . وعاد إلى طرقه في هـذا العصر المشتغلون باللغة في مناسبات شتى في الصحف والمجلات العلمية . من هؤلاء الشيخ عبد القادر المغربي فقد أخرج كتابه (الاشتقاق والتعريب) قبل أكثر من أربعين سنة (١) . .

(٦)

خاتمة

إذا صح أن ولد إسماعيل لم يزالوا « على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها » (٢) فالذي لا شك فيه أننا لم نجار هؤلاء العرب

=للقفطي حيث نسب اليه كتاباً يبطل الاشتقاق (١٨٠/١ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م) وجاء في هذا المصدر ص ١٧٨ أنه كان ينكر الاشتقاق ويحيله وله في ذلك مصنف وكل حجة فيه مدخولة وكان أبوبكر بن السراج في طرف آخر في هذا النوع : يتهافت في الاشتقاق واثباته واستعماله تهافتاً يخرجه عن حد الحقيقة الماشية على أصول من تقدم ١٠هـ

(١) طبع سنة ١٩٠٨ وأعيد طبعه سنة ١٩٤٧

(٢) ابن النديم في الفهرست ص ٧ (المطبعة الرحمانية بمصر) .

الأولين في عملهم ، ولعل في تحجير علماء العربية الأقدمين عاملاً هاماً في صدأ هذه الآلة الخيّرة : الاشتقاق .

كل من يتصفح معاجم اللغة يعرف بعد شيء من الممارسة ، أن مواد اللغة فيها ناقصة ، فلسنا نجد في مادة ما كل الصيغ المجردة والمزيدة في الأفعال والأسماء . وقد أحببت أن أورد لك مثالاً على ذلك مادة (الاشتقاق) نفسها ، فرجعت إلى هذه المادة في (لسان العرب) و(تاج العروس) وهما أكبر المعاجم المطبوعة على الإطلاق ، فوجدت فيهما من هذه المادة الصيغ الآتية وقد رتبتها لك مجردة فمزيدة :

الأفعال	الاسماء
شَقّ	شقاً
أَشقّ النخلُ : طلعت أكامه	شِقّ : نصف
شقّق الكلام	شَق
شاقّ	المشق
شقشق الفحل : هدر	الشقق : الطول
انشقّ	الشُقّة : البعد
تشقّق	المشقة
اشتق	الشِقة :من العصا والثوب ما شق طويلا

الأفعال	الأسماء
تشاقَّ الرجلان	الأشقّ : الطويل والانثى شقاء
استشق بالجوالق : حزمه على أحد شقيه	الشقيق
	الشقيقة : فرجة بين جبلين تنبت العشب
	الشقوقة : طائر
	الشُقاق : شق في الجلد من داء
	الشُقّاق : موضع
	الشِقْشِقة : للبعير شيء يخرجه من فيه كالرئة

فإذا عارضنا ماوجدنا من هذه الأفعال بالأوزان التي جمعها الصرفيون للفعل ، وجدنا هذه المعاجم سكتت عن الصيغ الآتية :

من مزيد الثلاثي : اشْقَقّ ، اشْقاقّ ، اشقوّق ، اشقوقق .

من مزيد الرباعي: تشقشق ، اشْقققّ ، اشقنقق .

ولئن كان حسنا اللغوي يميل إلى إهمال مثل (اشقوقق ، اشقققّ) لثقلها في النطق والسمع ، إن هذا الثقل أصاب هذه المادة خاصة لمكان القافات المتتالية ، والقاف وحدها حرف فخم غير خفيف .

أما الأسماء فاذا نحن قابلناها مثلاً بما حشر لنا السيوطي في مزهره من أوزان الاسماء والمصادر التي ذهب هو وغيره إلى قصرها على السماع وجدنا أكثر من سبعين صيغة لم يرد عليها من مادة (شق) ولا كلمة

من أمثال (فَعُّول ، فَعْلال ، فُعلى ، أفعلان ، أفَنْعل ، فُعاعيل ، فَعْلول ، فعليل ... إلخ)[١] .

إن هذه الصيغ ضربت عليها الأسداد حتى ماتت ، فاسنا نستعمل منها في لغتنا اليوم إلا قدراً ضئيلاً يستوي هو والعدم .

وما أكثر ما نجد في دواوين اللغة وكتب القواعد مثل قولهم (ليس في العربية على وزن كذا إلا كلمتان أو كذا كلمات) ، ولما قال بشار على هذا الوزن (الوَجلى والغزَلى) طعنوا عليه وقال الأخفش : « لم يسمع من الوجل والغزل : (فَعَلى) وإنما قاسهما بشار ؛ وليس هذا مما يقاس ، إنما يعمل فيه بالسماع »[٢] .

فيحار المرء ويتساءل : من جمع لهم العربية كلها في طبق فأحصوا كلما عداً ثم حكموا متثبتين : « ليس في العربية من كذا إلا كذا » ؟ ولو قال قائلهم : « لا أعرف من كذا إلا كذا » لكان أقرب إلى النصفة وأصدق قيلا . هذا وهم جميعاً موقنون أنه ما وصل إلى الرواة من اللغة إلا أقلها ، ولم تدون المعاجم كل ما روت الرواة .

وأبعد في الغرابة مما تقدم أنهم نقلوا الحظر إلى الاوزان المطردة في الافعال ، فذهبوا إلى أنه لا يشترط في كل مجرد أن تكون له كل

---

(١) ارجع إليها مسرودة في المزهر ٢/٤٩ — ٢و٦٩/ ١١٧ — ١٥٦

(٢) القياس في اللغة العربية ص ٥١

الاوزان المزيدة ؛ وغالى الرماني منهم فضرب في حظره الرقم القياسي — كما يقولون — حين منع ما أجمعوا على قياسه ، وهو اشتقاق اسم المفعول من الثلاثي المتعدي ، فقال : « لا يقـاس من (نفع) اسم مفعول ! ! » [١] .

وبعـد ، فالاعتدال أن نشتق ما نحتاج إليه اليوم على أوزان العرب وأساليبها في تشقيق الصيغ دلالة على تنويع المعاني ، فإذا أردنا أن ندل على الثبوت مثلاً في صفة ما من مادة لم يرد فيها عن العرب صفة مشبهة اشتققنا منها (فعيلاً) إذ كانت (فعيل) أكثر الصيغ دوراناً في الصفات المسموعة ، وكذلك نفعل في مزيدات الأفعال وصيغ الأسماء .

وقد خطا مجمع اللغة العربية خطا مباركة في طرده القياس ، في المصادر والصفات ، ورأيتَ نمطاً من قراراته في الاشتقاق آخر بحث القياس [١] فلا نعيد هنا منها شيئاً ،

فإذا خطونا خطوة تالية فأبحنـا للكتاب والشعراء اشتقاق المزيدات والصيغ كلها في الأفعال والاسماء من كل مادة ، بشرط الحاجة والتوفيق في الاشتقاق ، ومراعاة المعنى الذي أرادته العرب من كل صيغة ، إذا تم ذلك رجونا أن يكون على أيدي العبقريين من المطبوعين ، استجـابة

---

(١) القياس في اللغة العربية ص ٦٤

(٢) ابظر ص ١٠٨ فما بعد .

اللغة العربية لكل المطالب الحضارية في حياتنا المادية والوجدانية .

لا بد إذن من إعادة النظر في باب الاشتقاق ؛ والوقوف على استعداد اللغة العربية فيه ، والإفادة من مرانتها وطواعيتها وكنوزها المعطلة ، لتلبي حاجات عصرنا الحديث بل حاجات كل عصر ؛ فنطرد من قواعده ما كان غير مُطَّرد ، ونكمل المواد الناقصة في المعاجم ، ونشتق من الأعيان وغيرها كل ما تدعو إليه حاجة ؛ فلا تزال لغتنا غنية بإمكانياتها ، تنتظر إقدام المقدمين من الواقفين على مزاياها وأَسرارها بعد أَن طال بلاؤها من إحجام المحجمين أَحقاباً طوالاً .

ومن ينعم النظر في هذه المشتقات التي أَوردناها من أسماء المحسوسات ومن أسماء الأصوات والحروف . . . ويرد الفكر إلى القواعد التي وضعوها بين أَيدينا ، يجد العرب والعربية قد سبقا تلك القواعد أَشواطاً بعيدة جداً ، فقد أَفادوا من لغتهم أَضعاف ما يتصور القاعديون .

للغتنا غنى وافر وطبيعة مسعفة يحسدها عليهما كثير من اللغات ، فهي كنز يطلب من يكتشفه ويحسن استخدامه والافادة منه . وعلى أَن مجمع اللغة العربية بمصر قد التفت قليلاً إلى هذه الناحية ، لا تزال الشقة - كما قلت سابقاً - بعيدة بين همته وأَن يحسن الانتفاع بمزايا العربية حق الانتفاع.

الخلاف

بين نحاة البصرة والكوفة

الخلاف

لمحة تاريخية (مدرسة البصرة — مدرسة الكوفة) ٢ — نشأة الخلاف ٣ — الفروق بين المذهبين ٤ — أثر العصبية في الخلاف ٥ — كتب الخلاف ٦ — بعد المذهب البصري والمذهب الكوفي .

(١)

لمحة تاريخية (مدرسة البصرة — مدرسة الكوفة)

ما مضى لك بيانه من أحداث اللحن حمل القوم على الاجتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلمها للأعاجم . فشرعوا يتكلمون في الإعراب وقواعده حتى تم لهم مع الزمن هذا الفن . والذي تجمع عليه المصادر أن النحو نشأ بالبصرة وبها نما واتسع وتكامل وتفلسف ، وأن رؤوسه بنزعتيه كلهم بصريون .

أول من أرسل في النحو كلاماً أبو الأسود الدؤلي ، وقيل إن علياً هو الذي ألقى على أبي الأسود شيئاً من أصول النحو ثم قال له : (انح هذا النحو) ؛ وقيل ان أول من تكلم فيه : نصر بن عاصم ، وقيل : عبد الرحمن بن هرمز ، وقيل لم يصل الينا شيء عن أحد قبل يحيي بن يعمر وابن أبي إسحق الحضرمي . . الخ .

ومن يقرأ بإمعان ترجمة أبي الأسود في تاريخ دمشق لابن عساكر مثلاً . ثم يفكر في توارد أكثر المصادر على جعله واضع الأساس في بناء النحو لا يستبعد ذلك ، فالرجل ذو ذكاء نادر وجواب حاضر ، وبديهة نيّرة ، ثم هو بعد بليغ أريب مرن الذهن ،وحسبك اختراعه (الشكل)(١) الذي عرف بنقط أبي الأسود للدلالة على الرفع والنصب والجر والتنوين ، وهو ما أجمعوا عليه قديماً ولم يشكّ فيه حديثاً أحد. و(الشكل) أعود على حفظ النصوص من حدود النحو ؛ ولعله أعظم خدمة قدمت للعربية حتى الآن ، وكان الخطوة الأولى إلى النحو كما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين (٢) .

ونص أبو الطيب اللغوي على أن أبا الاسود وضع النحو ليتعلم بنو

---

(١) اختار ابو الاسود كاتباً وأمره أن يأخذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد وقال له : « إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين » فهذا نقط أبي الاسود . — أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافي (ص ١٦) (المطبعة الكاثوليكية في بيروت). وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١٠٩/٧ . والفهرست لابن النديم ص ٦٠
وهذا سبب اطلاق الفتح والكسر والضم على الحركات المعروفة فيما أرى، إذ كان أبو الاسود أول من استعملها . أما السكون في هذا المصحف فعلامته التجرد من العلامة

(٢) ضحى الاسلام ٢٨٧/٢ وانظر مراتب النحويين ص ١٠

زياد [١] « واختلف الناس إليه يتعلمون العربية وفرّع لهم ما كان أصّله فأخذ ذلك عنه جماعة » .

وليس يعنينا هنا تحرير هذه الأولية فذلك بتاريخ النحو أشبه [٢] ، ولكننا لا نرى بداً من أن نشير إلى أن اتفاقهم على أنه واضع (الشكل) وأن شبه الاجماع على أنه أول من تكلم بالنحو وأنه كان يتصدر لإعراب القرآن » [٣] ، وأن هؤلاء الذين تزعم لهم الأولية في بعض الأقوال : نصر بن عاصم ، ويحيي بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، . .

---

(١) مراتب النحويين ٨ ، ١٠

(٢) وما أقرب رواية أبي الفرج من الواقع والاعتدال حين سلسل لنا الخطوات في عبارة فيها كثير من الاقتصاد قال راوياً عن المدائني :

« أمر زياد أبا الأسود الدؤلي أن ينقط المصاحف فنقطها ،ورسم من النحو رسوماً ثم زاد فيها بعده عنبسة بن معدان ثم جاء عبد الله بن ابي اسحق الحضرمي وابو عمرو ابن العلاء فزادا فيه ، ثم جاء الخليل بن احمد الأزدي وكان صليبة فلحبه ، ونجم علي ابن حمزة الكسائي مولى بني كاهل من أسد فرسم للكوفيين رسوماً فهم الآن يعملون عليها . » — الاغاني ١٠١/١١ ، وسيمر بك بعض تفصيل عن هؤلاء الاعلام ، ولا بأس في تنبيهك الى أن ابا الفرج نص في اول ترجمته لابي الاسود، على أنه «كان الاصل في بناء النحو وعقد أصوله .»

وابن سلام يقول : « أول من استن العربية وفتح ابوابها لابي الاسود ... » — طبقات فحول الشعراء ص ١٢ طبعة دار المعارف ،

(٣) في ترجمة حر بن عبد الرحمن القاري النحوي أنه : سمع أبا الاسود وعنه طلب إعراب القرآن أربعين سنة . — بغية الوعاة ص ٢١٥

كلهم تلميذ أبي الأسود أو تلميذ تلميذه ، عنه أخذوا العربيـة والقراءة بالبصرة ؛ كل أولئك مع ما عرف عن أبي الاسود من ذكاء وقـاد ، وفكر متحرك ، وعقل وروية يجعلنا نقطع بأنه وضع أساساً بنى عليه من بعده . ولكن ، ما هو هذا الأساس ؟

لسنا نجد لهذا السؤال جواباً يشفي الغليل , فصحيفة أبي الأسود تعرف عند النحاة بـ (التعليقة) ،فإذا أردنا معرفة محتوياتها لم نحظ بمايطمأن إليه (١) ، بل فات معرفتها العلماء منذ المئة الرابعة مع شدة حرصهم عليها

---

(١) أما ابن الانباري فقد اطمأن الى خبر ذكره في أول كتابه (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص ٥) حين روى أن علي بن أبي طالب دفع الى ابي الاسود رقعة فيها : « الـكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ماأنبأ عن المسمى ، والفعل ماأنبىء به ، والحرف ماأفاد معنى . واعلم ان الاسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر ، واسم لاظاهر ولامضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولامضمر ...» ثم يذكر ابن الانباري ان ابا الاسود وضع ابواب (العطف ، والنعت ، والتعجب ،والاستفهام)إلى ان وصل الى باب إن واخواتها ماخلا لكن ، فلما عرضها على علي امره بضم لكن اليها،وكلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه عليه ، » اهـ

ولست ادري هل ابقت امور الخلافة والحروب والفتن لعلي وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها واختراعها ؟ ولعل الاستاذ أحمد أمين لم يكن بعيداً من الصواب حين روى هذا الخبر فعلق عليه بما يأتي :

« وكل هذا حديث خرافة فطبيعة زمن علي وابي الاسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية ، والعلم الذي ورد الينا من هذا العصر في كل فرع علم يتناسب مع الفطرة ليس فيه تعريف ولا تقسيم ، انما هو تفسير آية اوجمع لاحاديث ليس فيها ترتيب ولاتبويب ، فأما تعريف واما تقسيم منطقي فليس في شيء مما صح نقله الينا عن عصر=

فيروي ابن النديم خبراً طريفاً عن رجل جمّاعة للكتب له خزانة لم يُرَ لأحد مثلها بما جمعت من خطوط العلماء الأولين ونوادر الكتب والرقاع فهي متحف كل ما فيه نادر ثمين ، قال الذي شاهدها :

«... ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط امير المؤمنين علي عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل ابي عمرو بن العلاء وابي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم

=علي وابي الاسود واخشى ان يكون ذلك من وضع بعض الشيعة الذين أرادوا ان ينسبوا كل شيء الى علي واتباعه » — ضحى الاسلام ٢/٢٨٥

وانا مع عدم استبعادي كثيراً صدور كلام مثل هذا عن ابي الاسود بعد موت علي بسنين حين اعتزل العمل الرسمي وفرغ لمثل هذه الشؤون ،لاأطمئن الى ماروى ابن الانباري

حتى ابن فارس الذي ذهب الى قدم النحو قبل زمن ابي الاسود بكثير لاينكر إمامته وتجديده فقد قال : « فان قال قائل : لقد تواترت الروايات بان ابا الاسود اول من وضع العربية وان الخليل اول من تكلم في العروض »قيل له : نحن لاننكر ذلك ، بل نقول : إن هذين العلمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الايام وقلا في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الامامان . » — الصاحبي في فقه اللغة ص ١٠ ونقله بنصه السيوطي في المزهر ٢/٣٤٥

لكني اقف عند قولة المبرد «قرأت اوراقاً من كتابي عيسى بن عمر فكان كالاشارة الى الاصول » واقول إذا كانت كتب الطبقة الثالثة هذه كالاشارة الى الاصول فما حال نحو ابي الاسود » ؟ [توفي ابو الاسود سنة ٦٧ وعيسى بن عمر سنة ١٤٩ هـ] .— انظر نزهة الالباء .

ورأيت مايدل **على ان النحو عن ابي الاسود ماهذه** حكايته : وهي اربع اوراق احسبها من ورق الصين ترجمتها : **هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن ابي الاسود رحمة الله عليه** بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط علان النحوي ، وتحته : هذا خط النضر بن شميل .

ثم لما مات الرجل فقدنا القمطرة وما كان فيه فما سمعنا له خبراً ... على كثرة بحثي عنه .» (١)

فليسعنا من الأسف والحسرة على تعليقة أبي الأسود ما وسع العلماء قبلنا بألف عام إذ كان لا سبيل إلى المعرفة الشافية .

أخذ عن أبي الأسود : يحي بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ونصر بن عاصم وعطاء بن أبي الأسود ، وأبو نوفل بن أبي

---

(١) الفهرست ص ٦١

ثم تظهر فجأة بعد أكثر من مئة سنة عند ابراهيم بن عقيل القرشي (- ٤٧٤ هـ) فيزعم لأصحابه من أهل الحديث أن عنده تعليقة أبي الأسود التي القاها عليه علي ابن أبي طالب، ويعدهم بها ويستنجزونه ويرجئهم فلا يظفرون منه بطائل ، ثم يكتبها عنه — فيما رووا — فقيه مالكي اسمه ابو العباس أحمد بن منصور « وإذا به قد ركب عليها إسناداً لا حقيقة له ... وهذه التي سماها التعليقة هي في أول أمالي ابي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي النحوي نحو عشرة اسطر فجعلها هذا الشيخ ابراهيم قريباً من عشر اوراق . » اه — انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣١/٢ مطبعة روضة الشام ١٣٣٠ هـ .

قلت : ليس في أمالي الزجاجي المطبوعة من هذه التعليقة أثر ما .

وابن عساكر على حق حين يتوقف في توثيق إبراهيم بن عقيل بعد هذا التدليس .

عقرب[1]، وعن هؤلاء أخذ علماء البصرة طبقة بعد طبقة ، ثم نشأ بعد نحو مئة عام من تلاميذهم من ذهب إلى الكوفة فعلّم بها ، فكان منه ومن تلاميذه ما يسمى بمدرسة الكوفة[2] .

وهذا جدول[3] يوضح لك تتابع هذه الطبقات إلى المئة الثالثة للهجرة :

---

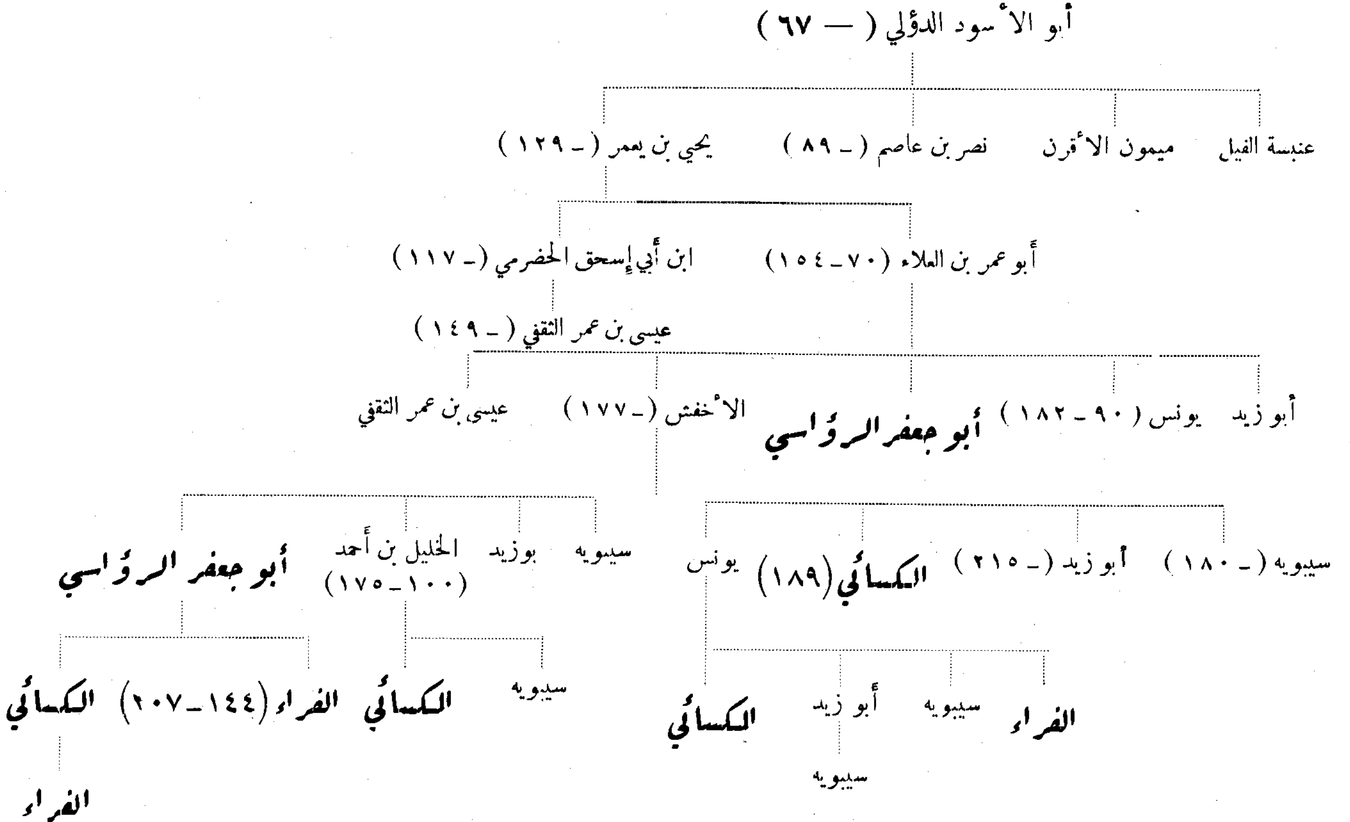
(١) إنباه الرواة ٢/٣٨٢

(٢) على أن هناك من ذهب إلى وجود مدرسة ثالثة هي مدرسة المدينة ، وأن رأسها عبد الرحمن بن هرمز الذي مر بك (ص ١٥٢) أنه أحد الذين نسبت إليهم أولية الكلام في النحو . وهذا شيء لم يشتهر ، لكن القفطي ذكر في هذا كلاماً أنا مثبته لفائدته فقد جاء في إنباه الرواة في ترجمته :

قال أهل العلم : إنه أول من وضع علم العربية والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأظهر هذا العلم بالمدينة ، وهو اول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش ، وما أخذ أهل المدينة النحو إلا منه ، ولا نقلوه إلا عنه ، وإليه أشار ابن برهان النحوي في أول شرحه في (اللمع) بأن قال : « النحاة جنس تحته ثلاثة أنواع : مدنيون ، بصريون ، كوفيون » ... ويروى ان مالك بن أنس إمام دار الهجرة تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارها.. مات سنة ١١٧ » — إنباه الرواة ٢/١٧٢

هذا واحد وأما الثاني فبشكست الذي مر بك خبره ص ١٢

(٣) عن ضحى الاسلام ٢/٢٨٤ . وتكرر الاسم معناه تعدد مشايخ صاحبه ، أما الاعلام المدرجة أسماؤهم بخط رقعي فهم كوفيون ، والباقون بصريون .


أبو الأسود الدؤلي (— ٦٧)
عنبسة الفيل
ميمون الأقرن
نصر بن عاصم (ـ ٨٩)
يحيى بن يعمر (ـ ١٢٩)
أبو عمرو بن العلاء (٧٠ ـ ١٥٤)
ابن أبي إسحق الحضرمي (ـ ١١٧)
عيسى بن عمر الثقفي (ـ ١٤٩)
أبو زيد
يونس (٩٠ ـ ١٨٢)
أبو جعفر الرؤاسي
الأخفش (ـ ١٧٧)
عيسى بن عمر الثقفي
سيبويه (ـ ١٨٠)
أبو زيد (ـ ٢١٥)
الكسائي (١٨٩)
يونس
سيبويه
بوزيد
الخليل بن أحمد (١٠٠ـ١٧٥)
أبو جعفر الرؤاسي
الفراء
سيبويه
أبو زيد
الكسائي
سيبويه
سيبويه
الكسائي
الفراء (١٤٤ـ٢٠٧)
الكسائي
الفراء

فأنت ترى أن أعلام الكوفة كلهم أخذوا عن أئمة البصريين بأخرة .

الطبقة الأولى من البصريين

وأما عنبسة فقد « تعلم النحو وروى الشعر وظرف [١] حتى صار ـ على ما يروى عن الخليل ـ أبرع أصحاب أبي الأسود » [٢]

وأما ميمون فرأس النـاس بعد عنبسة ويروون عن أبي عبيدة قوله : « أول من من وضع العربية أبو الأسود ، ثم ميمون الأقرن ، ثم عنبسة الفيل ، ثم عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي » [٣]

وأما نصر بن عاصم الليثي فـكان أحد القراء والفصحاء ، وأخذ عنه أبوعمرو بن العلاء والناس » قال عنه الزهري : « إنه ليفلق بالعربية تفليقاً » ، بل منهم من ذهب إلى أنه أول من وضع العربية » [٤]

وأما يحيى بن يعمر فقد عرفت علمه وفصاحتـه ، وعرفت شأنه مع الحجاج ، ووصفوه بالعلم والأمانة ، وقد روى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما [٥]

والذي يجب التنبيه إليه قبل الانتقال إلى الطبقة الثانية أن تلميذي أبي الأسود : نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر خطوا الخطوة الكبرى التي تلت خطوة أبي الأسود في ضبط الكتابة العربية ، إذ ابتكرا نقط الحروف أفراداً وأزواجاً لتمييز الحروف المتشابهة كالباء والياء والنون ، فعلا ذلك باشارة الحجاج على ما ذكروا ، وبعد تردد منهما في أن يزيدا شيئاً على رسم مصحف عثمان ، ثم بان لهما صواب الاصلاح بعد روية ، فأقدما عليه .

---

(١) اخبار النحويين البصريين ص ٢٤ .

(٢) المزهر ٣٩٨/٢ .

(٣) اخبار النحويين البصريين ص ٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١ ، ٢٠ والفهرست لابن النديم ص ٥٩ .

(٥) ص ٩ من هذا الكتاب و ص ٦٢ من الفهرست و ص ٢٢ من أخبـار النحويين البصريين .

بل إن ليحيى هذا أولية في التأليف فقد ذكروا أنه اتفق هو وعطاء بن أبي الأسود بعد موت أبيه « على بسط النحو وتعيين أبوابه وبعج مقاييسه ... ولما استوفيا جزءاً متوفراً من أبواب النحو نسب بعض الرواة إليهما أنهما أول من وضع هذا النوع . »[١]

ولكن المشهور أن نصراً هو الذي ميز بين الحروف المتشابهة بالنقط المتداول حتى اليوم وغير ترتيب (الأبجدية) إلى الترتيب المعروف ، ثم ألغى نقط أبي الأسود مستبدلا به (الشكل الحالي) الذي هو أبعاض الحروف (ا و ي) .

الطبقة الثانية من البصريين

وفيها ابو عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحق الحضرمي .

فأما الأول فمن أشراف مازن وأحد الأعلام في القرآن واللغة والنحو ،وهو أحد القراء السبعة ، قال فيه أبو عبيدة : « أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر ، وكانت دفاتره ملء بيته الى السقف[٢] » كان مرجع الناس في عصره ،وخير ما يعبر عن مكانته في عيون معاصريه حديث سفيان بن عيينة ، قال : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يارسول الله لقد اختلفت علي القراءات فبقراءة من تأمرني ؟ فقال : بقراءة أبي عمرو بن العلاء . »[٢] وأخذ عن نصر بن عاصم المتقدم ذكره ، وعن يحيى بن يعمر ، وعن قارىء مكة عبد الله بن كثير .

« وأخذ عنه عيسى بن عمر ويونس بن حبيب وابو الخطاب الاخفش فكان هؤلاء الثلاثة أعلم الناس وافصحهم »[٣] وأما عبد الله بن ابي اسحق الحضرمي ، فقد مر بك

---

(١) إنباه الرواة ٢ / ٣٨٠ .

(٢) بغية الوعاة .

(٣) مراتب النحويين ص ٢٣ .

امره مع الفرزدق ، وهو في زمن أبي عمرو والناس يفاضلون بينهما فيقدمون أبا عمرو في اللغة ويقدمون ابن أبي اسحق في النحو وهو « أعلم أهل البصرة وأعقلهم ، فرع النحو وقاسه ، وتكلم في الهمز حتى عُمل فيه كتاب مما أملاه [١] ويذكرون أنه أول من علل النحو .

ويمكن أن يلحق بهذه الطبقة عيسى بن عمر الثقفي مولى خالد بن الوليد ، أخذ العلم عن أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، وعد في القراء البصريين وهو امام في العربية والنحو ، ولعله أول من ألف فيهما كتاباً جامعاً ، وقد اشتهر اسم كتابيه دون أن يصل الينا منهما خبر أو أثر ، والغريب أن تلميذه الخليل بن احمد قرأهما ووعاهما ، وأعجباه حتى جعل مؤلفهما مجدد هذا الفن والمعفي على آثار من سبقه قال :

ذهب النحو جميعاً كلـه   غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك (إكمال) وهذا (جامع)   فهما للنـاس شمس وقمر

ثم « فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم يقعا الى أحد علمناه ، ولا خبر أحد أنه رآهما » ، وهذا السيرافي وليس بينه وبين زمن المؤلف إلا مئتان من السنين

---

(١) عن مراتب النحويين ص ٢٨ ، المزهر ٢ / ٣٩٨ . وشهادة يونس بن حبيب فيه .

أنه « لو كان في الناس اليوم من له ذهنه ونفاذه كان أعلم الناس » — طبقات فحول الشعراء ص ١٤ هـذا وللزبيدي كلام يشير الى نصيب عيسى بن عمر في تدريج النحو يقول فيه « وضع أبو الاسود باب الفاعل والمفعول لم يزد عليه ... فزاد رجل من بني ليث أبواباً ثم نظر فاذا في كلام العرب مالا يدخل فيه فأقصر عنه ، فلما كان عيسى بن عمر قال : « ارى أن أضع الكتاب على الاكثر وأسمي الأخرى لغات فهو أول من بلغ غايته في كتاب النحو ... وضع كتابين سمى أحدهما الجامع والآخر المكمل .» طبقات النحويين واللغويين ص ١٥ .

يقول : لم يقعا الينا ولا رأينا أحداً ذكر أنـه رآها »[١] فان تكن نسبة البيتين الى الخليل صحيحة يكن اختفاء هذين الكتابين من أعجب الامور في تاريخ النحو .

❋ ❋ ❋

إذا نحن انتقلنا الى الطبقة التي تلي هذه كنا ازاء ماسموه بالمذهب الكوفي ، فقد تتلمذ على عيسى بن عمر هذا : الخليل وسيبويه وأبو زيد الانصاري أئمة البصريين الأعلام ، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار فيما بعد رأس الكوفيين وخلفه في ذلك تلميذاه الكسائي والفراء .

ولسنا نفيض في الكلام عليهم فكلهم مشهور ، ولكننا نذكر بالنواحي التي تعنينا منهم بكلمات :

فأما الخليل « فقد كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، هو أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها ، وعمل أول (كتاب العين) المعروف المشهور الذي بـه تهيأ ضبط اللغة»[٢] الى نواح أخرى له مجيدة مشرفة ليس من غرضنا هنا الإشارة إليها . وقد مر بك نمط من آرائه في باب القياس . « وهو

---

(١) انظر الفهرست لابن النديم ص ٦٢ وبغية الوعاة . اما ابن الانباري في نزهة الالباء فقد نقل عن المبرد انه قال : قرأت اوراقاً من احد كتابي عيسى بن عمر ، وكان كالاشارة الى الاصول . » وبين هذه الكلمة الدالة على انه خطوة ابتدائية وتقريظ الخليل بون كما ترى . — هذا ويذكرون أنه كان فصيحاً ويتقعر أحياناً ، أمر والي العراق بحمله اليه ودعا بالحداد فأمر بتقييده ، فقيل له لا بأس عليك ، إنما أراد الأمير لتؤدب ولده . » قال « فما بال القيد إذاً ؟ ! » فذهبت بالبصرة مثلاً . وله الجملة المأثورة في كتب البلاغة حين سقط عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال « مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذى جنة ، افرنقعوا عني . » — بغية الوعاة واخبار النحويين البصريين ص ٣٢ .

(٢) أخبار النحويين البصريين ص ٣٨ .

استاذ سيبويه ، وعامة الحكاية في كتابه عنه . وكلما قال سيبويه : سألته ، او قال (قال) من غير ان يذكر قائله فهو الخليل . » [١] ونفع الله به الناس وعاش من قناعته وعفته وترفعه في عزة دونها عزة الملوك ،وصدق النضر بن شميل في قوله :اقام الخليل في خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الاموال » [١] .

واما ابو زيد الانصاري فقد كان ثقة صدوقاً راوية، وهو — وان قدم في النحو على الاصمعي وابي عبيدة — غلبت عليه اللغة والنوادر والغريب، وحولها يدور اكثر مصنفاته [١] .

مدرسة الكوفة

وندع سيبويه —لشهرة امره وكتابه وشيوخه وتلاميذه— إلى ابي جعفر الرؤاسي رأس الكوفيين :

طلب العلم في البصرة على أئمتها ، قرأ علي ابي عمرو بن العلاء ، وعلى عيسى بن عمر الثقفي ، لكنه لم يقارب احداً من تلامذتهم فلم ينبه وعاش بالبصرة غير معروف [٢] وكان اول كوفي الّف في العربية ، وكتابه (الفيصل) عرضه — فيما ذكروا — على اصحاب النحو بالبصرة فلم يلتفتوا اليه ولا جسر على اظهاره لما سمع كلامهم ، اما هو فيزعم ان الخليل طلب الكتاب فأطلعه عليه ، « فكل مافي كتاب سيبويه (وقال الكوفي : كذا)فانما عنى الرؤاسي هذا » [٣] وزعم جماعة من البصريين ان الكوفي

---

(١) بغية الوعاة .

(٢) انظر معجم البلدان ١٨/١٢٣ . وأخذ عن زهير الفرقبي (— ١٥٥) الذي تلمذ على ميمون الأقرن أحد اصحاب أبي الأسود — انباه الرواة ٢/١٨ ، ١٩

(٣) بغية الوعاة . وذكره أبو الطيب اللغوي في عداد من أخذ عن أبي عمرو فقال : « عالم أهل الكوفة ، وليس بنظير لهؤلاء الذي ذكريا ولا قريب منهم ... أخبرنا ابو حاتم قال: كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء .»— مراتب النحويين ص ٢٤ .

الذي يكره الأخفش في آخر المسائل ويرد عليه هو الرؤاسي » .(١)

ويعد من قراء الكوفيين وسترى من اسماء كتبه الموضوعات التي عني بها :

كتاب التصغير ، الأفراد والجمع ، الوقف والابتداء ، معاني القرآن .

ولما رجع الى الكوفة وجد فيها عمه معاذ بن مسلم الهراء (— ١٨٧) مرجع الناس في العربية وعني بالصرف ومسائله خاصة ، وتبعه في هذه العناية من قرأ عليه من الكوفيين ، حتى قيل إنهم فاقوا البصريين فيها ، ومن هنا عدهم بعد العلماء واضعي علم الصرف .

وتخرج بالرؤاسي تلميذاه المشهوران : الكسائي والفراء .

اما الكسائي فأنت تعرف أنه أعجمي الأصل وأحد القراء السبعة وإمام الكوفيين في العربية ، أخذ عن يونس أحد أئمة البصرة وجلس في حلقة الخليل ، ثم خرج إلى بوادي نجد والحجاز وتهامة يأخذ عن الأعراب « فأنفد خمس عشرة قنينة حبراً في في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ . فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس . فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدره في موضعه »(١) .

ثم انتقل الى بغداد فعاش في قصر الرشيد مؤدباً للأمين والمأمون ، ونال الحظوة وأقبلت عليه الدنيا : يخدمه وليا العهد ، ويعنى به ويعوده الرشيد نفسه . ولما خرج الرشيد إلى الري اصطحب معه الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني فاتفق أن ماتا سنة ١٨٩ في يوم واحد فقال الرشيد : « دفنت الفقه والنحو في يوم واحد » (١)

واما الفراء فقد قرأ بالبصرة على يونس بن حبيب ثم قرأ على الرؤاسي ، ثم لازم الكسائي في بغداد . والذي حثه على الخروج الى بغداد شيخه الرؤاسي .

ولندع الفراء نفسه يحدثنا بأول أمره ببغداد قال :

قال لي الرؤاسي : « قد خرج الكسائي [الى بغداد] وأنت أسن منه » فجئت إلى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي ، فأجابني بخلاف

المصدر السابق .

ماعندي ، فغمزت قوماً من علماء الكوفيين كانوا معي ، فقال: «مالك قد أنكرت؟ لعلك من أهل الكوفة؟» فقلت : « نعم» فقال : « الرؤاسي يقول كذا وكذا .. وليس صواباً وسمعت العرب تقول كذا وكذا .. » حتى اتى على مسائلي ، فلزمته . اهـ [١] .

والطريف تشادّ البصريين والكوفيين في قراءة الفراء على يونس بن حبيب البصري أستاذ سيبويه تشاداً على غير المنتظر ، فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه والبصريون يدفعون ذلك . ثم كان الفراء «زائد العصبية على سيبويه وكتابه تحت رأسه!»

صنف (معاني القرآن) الذي قال فيه مادحه « لم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه « . [١]

وكتبه التي تركها تدور حول مسائل من اللغة والنوادر والصرف والنحو والقرآن. اما كتابه الكبير في النحو المسمى بـ (الحدود) فقد ذكروا أنه يشتمل على ستة واربعين حداً في الاعراب . ويعنينا منه هنا قصته فهي تدل على بدع عجيب عرف به بعض النحاة وأثر في سير هذا العلم أثراً سيئاً ، ذلك هو الاغراب والتعقيد ، قالوا :

كان السبب في إملائه الحدود ان جماعة من اصحاب الكسائي صاروا إليه وسألوه ان يملي عليهم ابيات النحو ففعل ، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض : « إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان ! والوجه ان يُقعد عنه » فقعدوا ، فغضب وقال : « سألوني القعود فلما قعدت تأخروا ، والله لأُملين النحو ما اجتمع اثنان » فأملى ذلك ست عشرة سنة . [١]

وانا حائر في التوفيق بين نزعة التسهيل والتبسيط هذه التي في القصة وقولهم في ترجمته « كان يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته ، يعني يسلك في الفاظه كلام الفلاسفة .» [٢] وتكفينا هذه الالماعة عن رجال المدرستين [٣] محاولين تتبع الخلاف ومعرفة طبيعته.

---

(١) الفهرست ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٣) نشر بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب (مراتب النحويين) لأبي —

(٢)

نشأة الخلاف

أول ما يعرف من الخلاف بين البصريين والكوفيين ما أثبته سيبويه في (الكتاب) من حكاية أقوال (الكوفي) أبي جعفر الرؤاسي على ما علمت آنفاً. والظاهر أن مرافقة الرؤاسي للخليل في القراءة على عيسى ابن عمر جعلت بينهما نوعاً من الأنس سمح للخليل أن يطلب من الرؤاسي كتابه، فروى منه بعض أقوال لتلميذه سيبويه، فأثبتها هذا في كتابه.

ولم يكن في هذا الخلاف ولا في غيره مما حدث بين البصريين أنفسهم يومئذ، أكثر من المذاكرة وحكاية الأقوال المخالفة والرد عليها أحياناً فأنت كثيراً ما تجد سيبويه يورد لشيخيه يونس والخليل أقوالاً يخالفها

=الطيب اللغوي المتوفى سنة ٣٥١، جاء فيه بعد أن سرد فيه تراجم أعيان البصريين ثم الكوفيين قوله:

« والذين ذكرنا من الكوفيين فهم أئمتهم في وقتهم، وقد بينا منزلتهم عند أهل البصرة، فأما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعاً، ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل اصغرهم في العلم بالعربية، ولو كان لا فتخروا به، وباهوا بمكانه أهل البلدان، وأفرطوا في إعظامه كما فعلوا بحمزة الزيات ... يتخذونه إماماً معظماً مقدماً وليس يحكى عنه شيء من العربية ولا النحو، وإنما هو صاحب قراءة، وأما عند البصريين فلا قدر له. » ص ٢٦

فيقول : (. . وزعم الخليل) ، (. . وزعم يونس) .

ولم تدخل الدنيا بين المشهورين من رجال هـذه الطبقة ، فالخليل والرؤاسي مثلاً كلاهما صالح عفيف ، ومتى خلت المناقشات العلمية مما يورثها من حوافز المادة أو الجاه بقيت هادئة جميلة صافية .

فلما قرّب العباسيون الكسائي وتلاميذه وخصوهم بتربية أولادهم وبالإغداق عليهم إذ كان أهل الكوفة بالجملة أخلص لهم وأحسن سابقة معهم على عكس أهل البصرة . اجتهد المقربون بالتمسك بدنياهم التي نالوها ، ووقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علماً فحالوا بينهم وبين النجاح المادي أو المعنوي بكل ما يستطيعون من قوة ؛ وإذا كان لبصري كالأصمعي مثلاً حظوة عند خليفة ولم يقدروا على إبعاده مادياً ، اجتهدوا في الغض من علمه .

وأنا أعرض أنماطاً من خلافهم في المجالس الرسمية تفصح عن العصبية والحدة وحب النيل من المنافس ، أعرض ذلك ليكون مدخلاً للكلام على المذهبين بعـد أن عرفنا رجالهما الأولين . ولا تستغربن أن تكون الحدة والعصبية على الكوفيين أظهر ، وحب الغلبة عندهم أشد ، فهم عن دنياهم وجاههم يدافعون ، إذ علموا علم اليقين أن علمهم إزاء علم البصريين قليل [1] ، ولذا كان الخطر من هؤلاء ماثلاً أمام الكوفيين ، ولعين

---

(١) قال أبو حاتم : « لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، —

الكسائي منهم خاصة ، ولم يرو عن كوفي عنف مثل عنف الكسائي هـذا ، ولا حرص على الإجهاز على الخصم المنافس كما روي عنـه ، وإليك الشواهد :

١ — بين الكسائي والأصمعي :

حدث أحمد بن يحي ثعلب أحد أئمة الكوفيين قال :

كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد ، وكانا ملازمين له يقيمان بإقامته ويظعنان بظعنه ، فأنشد الكسائي :

أنى جزوا عامراً سُوءى بفعلهم أم كيف يجزونني السوءى من الحسن

أم كيف ينفع ما تعطي العَلوقُ به رئمـانُ أنف إذا ما ضن باللبن

فقال الأصمعي « إنما هو رئمانَ أنف ، بالنصب » فقال له الكسائي : « اسكت ، ما أنت وذاك ؟ يجوز بالرفع والنصب والخفض : أما الرفع

=ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل إلا حكايات عن الأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم وإليه يرجعون . » — مراتب النحويين ص ٧٤

هذا وقد علمت آنفاً أن الرؤاسي شيخ الكسائي أقام بالبصرة فلم يرتفع له فيها ذكر ، ولا عد علمه شيئاً إزاء علم البصريين . ومهما جعلت للمبالغة نصيباً في قول أبي حاتم فأنت مطمئن إلى ستر الكوفيين قصورهم عن منافسيهم بالشغب والسلطان الذي كان لهم.

فعلى الرد على (ما) لأنها في موضع رفع بـ (ينفع) فيصير التقدير (أم كيف ينفع رئمان أنف) ، والنصب بـ (تعطي) ، والخفض على الرد على الهاء التي في (به) . » فسكت الأصمعي ولم يكن له علم بالعربية ، وكان صاحب لغة ، لم يكن صاحب إعراب . [١] »

عدوا الكسائي فائزاً في هذه المناظرة ، ولعل المجلس تقوض على ذلك . ولكننا الآن لانعده كذلك . فالأصمعي راوية ثبت صدوق وهو في الرواية والاخبار أقوى من الكسائي، والكسائي اوردوجوه الاعراب المحتملة ، اما الاصمعي فانما يرد صاحبه الى الرواية [٢] ، وشتان ما بين الأمرين .

---

(١) إرشاد الاريب ١٣]١٨٣ وامالي الزجاجي ص ٣٤ (المطبعة المحمودية التجارية بالازهر بمصر) . والبيتان لأفنون التغلبي (انظر المفضليات للضبي ٢/٦٣ طبعة دار المعارف بالقاهرة) .

العلوق : الناقة تفقد ولدها بنحر او موت ، فيسلخ جلده ويحشى تبناً وتقدم إليها (لترأمه اي تعطف عليه) ويدر لبنها فينتفعون به ، فهي تشمه وينكره قلبها فتعطف عليه ولا ترسل اللبن ، فشبه ذلك بهذا .

والبيت مثل يضرب لمن يعدك بلسانه كل جميل ولم يفعل منه شيئاً لأن قلبه منطو على ضده ، كأنه قيل له : كيف ينفعني قولك الجميل إذا كنت لا تفي به . — اه من المصدر الأول بتصرف يسير .

هذا وقد علق ابن الشجري حين عرض هذه القضية بقوله :

« ولنحاة الكوفيين في اكثر كلامهم تهاويل فارغة من حقيقة » ١/٣٢ .

(٢) بل ان المغني لينصر رواية الاصمعي ويرفض رواية الرفع «وصوب ابن الشجري انكار الاصمعي فقال : لأن رئمانها للبو بأنفها هو عطيتها اياه لاعطية لها غيره ، فاذا رفع لم يبق لها عطية في البيت ،لأن في رفعه اخلاء (تعطي) من مفعوله لفظا وتقديراً ، والجر اقرب الى الصواب قليلا ؛ وانما حق المعنى والاعراب النصب . » انظر مغني اللبيب بحث (ام) .

=

وللاصمي مجلس آخر مع الكسائي امام الرشيد كال له فيه الصاع صاعين وحكم له الرشيد حكماً لزم الكسائي عاره :

قال له الأصمعي وهما عند الرشيد . « ما معنى قول الراعي :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أر مثله مخذولا ؟ »

قال الكسائي : « كان محرماً بالحج » قال الأصمعي : « فقوله :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتع بكفن

هل كان محرما بالحج ؟ !! ».

فقال هارون للكسائي : « يا علي اذا جاء الشعر فاياك والاصمعي . » [١]

٢ — بين الكسائي وسيبويه

قال الفراء : « قدم سيبويه على البرامكة فعزم يحيى بن خالد ان يجمع بينه وبين الكسائي وجعل لذلك يوما ، فلما حضر تقدمت وابن الاحمر [٢] ، فدخل فاذا بمثال

= وللكسائي مثل هذا التخبط مع عيسى بن عمر فقد القى عليه عيسى مسألة فذهب يوجه احتمالاتها فقال عيسى : « عافاك الله ، انما اريد كلام العرب ، وليس هذا الذي تأتي به بكلامها . » — انباه الرواة ٢/٣٧٧ .

(١) اخبار النحويين البصريين ص ٥٩ — محرم اي لم يحل من نفسه شيئا يوجب القتل ، وقوله (محرما)في كسرى يعني حرمة العهد الذي له في اعناق اصحابه. هذا وقد سجلوا للكسائي طلبه الهدنة من الأصمعي : قال الاصمعي : «ارسل الي الكسائي بأبي نصر وقال: «لست اعرض لك في الشعر والغريب والمعاني فدعني والنحو » فوجهت اليه : « ما كلمتك قط في النحو الا بحجة اصحابي وقد تركت ذلك لك . » — انباه الرواة ٢/٢٧٢ .

(٢) هو علي بن الحسن الاحمر تلميذ الكسائي وخليفته على تعليم اولاد الرشيد=

في صدر المجلس فقعد عليه يحيى ، وقعد الى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم ، وحضر سيبويه فأقبل عليه الاحمر فسأله عن مسألة فأجابه فيها سيبويه فقال له « اخطأت » ، ثم سأله عن ثانية وثالثة كل ذلك يقول له « اخطأت »، فقال له سيبويه : « هذا سوء ادب » .

فأقبلت عليه فقلت : « ان في هذا الرجل حدة وعجلة، ولكن ما تقول فيمن قال : « هؤلاء ابون ، ومررت بأبين » كيف تقول على مثال ذلك من (وأيت) او (أويت) فأجاب فأخطأ فقلت له :« أعد النظر ... ثلاث مرات تجيب ولا تصيب (١) . فلما كثر عليه ذلك قال : لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره . »

فحضر الكسائي فأقبل على سيبويه فقال : « أتسألني أم أسألك ؟ » فقال : « بل سلني أنت . » فقال له الكسائي : « كيف تقول : قد كنت أظن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو (فإذا هو إياها)؟ » فقال سيبويه : (فإذا هو هي) « ولا يجوز النصب » . فقال له الكسائي : « لحنت » .

ثم سأله عن مسائل من هذا النوع : (خرجت فإذا عبد الله القائمُ)

= كما سيأتي . وفي المغني وحاشية الدسوقي عليه (١٢٩/١) اه خلف الاحمر وهذا سهو منهما رحمهما الله، اذ ان خلفاً بصري ولا تعرف له تلمذة على الكسائي، بل اين هذا من هذا .

(١) قال ابن هشام الانصاري بعد شرحه هذه المسألة: وليس هذا مما يخفى على سيبويه ولا على اصاغر الطلبة ولكنه كما قال أبو عثمان المازني : « دخلت بغداد فألقيت علي مسائل فكنت أجيب فيها على مذهبي ويخطئونني على مذاهبهم » وهكذا اتفق لسيبويه رحمه الله . » — مغني اللبيب (مادة إذا) .

أو (القائمَ) ؟ فقال سيبويه في ذلك كله بالرفع دون النصب ، فقال الكسائي : « ليس هـذا من كلام العرب ، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب . » فدفع سيبويه قوله ، فقال يحي بن خالد : « قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن ذا يحكم بينكما ؟ » فقال له الكسائي : « هذه العرب في بابك قد جمعتهم من كل أَوب ، ووفدت عليك من كل صقع وهم فصحاء الناس ، وقـد قنع بهم أَهل المصرين وسمع أَهل الكوفة وأهل البصرة منهم ، فيُحضرون ويُسألون » فقال يحي وجعفر : « قد أنصفت » فأمر بإحضارهم فدخلوا فهم : أبو فقْعس وأبو دِثار وأبو الجراح وأبو ثروان فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله ، فأقبل يحي على سيبويه فقال : « قد تسمع أيهـا الرجل . » فاستكان سيبويه [1] .

---

(١) إرشاد الاريب ١٣/ ١٨٥ — ١٨٨ ومغني اللبيب في بحث اذا . — وأقبل الكسائي على يحيى فقال : أصلح الله الوزير ، انه قد وفد عليك من بلده مؤملاً فإن رأيت ألا ترده خائباً » فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فخرج وصيّر وجهه نحو فارس فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة . اه

فيقال إن هولاء الاعراب رشوا فوافقوا الكسائي ، وقيل تملقوه ارضاء للوزير ، وقيل لم ينطقوا بالنصب وإنما قالوا : القول قول الكسائي .

وقد ختم ابن الشجري هذا المجلس بأن الكسائي (انما قصد سؤاله عما علم أنه لا وجه له في العربية ، واتفق هو والفراء على ذلك ، ليخالفه سيبويه فيكون الرجوع الى السماع ، فيقطع المجلس عن النظر والقياس» امالي ابن الشجري ١/٢٠٦

ولم يختلف البصريون حتى اليوم في أن القول ماقال سيبويه وأن الموضع ليس بموضع نصب ، وأن هؤلاء الأعراب أعراب الحطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم. ثم جاء ثعلب فاحتال وجهاً للنصب فقال : « وإنما ادخل الفاء في قوله(فاذا هو اياها) لأن (فإذا) : مفاجأة اي (فوجدته ورأيته) و (وجدت ورأيت) ينصب شيئين ويكون معه خبر فلذلك نصبت العرب . » (١)

قلت : وهو وجه غير صحيح ولو صح ان (فاذا = وجدت) لوجب ان يقال (فاذا اياه اياها) . ولم يدّع ذلك حتى الكوفيين .

٣ — بين الكسائي واليزيدي

لقد سلط الله على الكسائي من يثأر منه للأصمي وسيبويه ، فأذاقه على يد يحيى ابن المبارك اليزيدي ما كان كفاء لعصبيته على البصريين . ويحيى هذا بصري قرأ على ابي عمرو بن العلاء والخليل بن احمد ، واتصل بخال المهدي يزيد بن منصور الحميري فأدب أولاده ، واليه نسب فقيل (اليزيدي) . ولم يستطع الكسائي أن يغلبه بجاهه، فعاش حياته تنزل عليه منه الضربات في المناظرة والهجاء بالأشعار . ثم كان مؤدب المأمون كما كان الكسائي مؤدب الأمين ، واليك مجلسين من مجالسهما ، أولهما قبل مناظرة سيبويه وثانيهما بعدها :

١ — قال اليزيدي

« كنا في بلد مع المهدي في شهر رمضان قبل أن يستخلف بأربعة أشهر فتذاكروا عنده النحو والعربية ، وكنت متصلاً بخاله يزيد بن منصور والكسائي مع ولد الحسن الحاجب ، فبعث إلي وإلى الكسائي ، فصرت

---

(١) المرجع السابق .

إلى الدار فإذا الكسائي بالباب قد سبقني فقال لي : « أعوذ بالله من شرك يا أبا محمد » فقلت : « والله لا تؤتى من قبلي أو أوتى من قبلك . »

فلما دخلنا على المهدي أقبل علي فقال : « كيف نسبوا إلى البحرين فقالوا : (بحراني) وإلى الحصنين فقالوا : (حصني) ؟ هلا قالوا حصناني كما قالوا بحراني ؟ فقلت : « أيها الأمير ، لو قالوا في النسب إلى البحرين (بحري) لالتبس فلم يدر : النسبة إلى (البحرين) وقعت أم إلى البحر . فزادوا ألفاً للفرق بينهما كما قالوا في النسب إلى الروح : روحاني ؛ ولم يكن لـ (حصنين) شيء يلتبس به فقالوا : (حصني) على القياس . »

فسمعت الكسائي يقول لعمرو بن بزيع : « لو سألني الأمير عنهما لأجبته بأحسن من هذه العلة . » فقلت : « أصلح الله الأمير ، إن هذا يزعم أنك لو سألته أجاب بأحسن من جوابي » قال : « فقد سألته . » قال : « كرهوا أن يقولوا (حصناني) فيجمعوا بين نونين ، ولم يكن في البحرين إلا نون واحدة فقالوا (بحراني) لذلك . »

قلت : « كيف تنسب إلى رجل من (بني جنان) ؟ إن لزمت قياسك فقلت : (جني) جمعت بينه وبين المنسوب إلى الجن ، وإن قلت (جناني) رجعت عن قياسك وجمعت بين ثلاث نونات . »

ثم تفاوضنا إلى أن قلت له : « كيف تقول . إن من خير القوم وأفضلهم أو خيرهم بتة زيد ؟ فأطرق مفكراً وأطال الفكرة فقلت : « أصلح الله الأمير ، لأن يجيب فيخطىء فيتعلم أحسن من هذه الإطالة . »

فقال « : إن من خير القوم وأَفضلهم أو خيرُهم بتة زيداً » فقلت :«أَخطأَ أَيها الامير . » قال : « وكيف ؟ » قلت : « لرفعه قبل أن يأتي باسم إن ، ونصبه بعد الرفع ، وهذا لا يجيزه أحد . »

فقال شيبة بن الوليد عم ذفافة متعصباً له : « أَراد بـ (أَو) : بل » فقلت : « هذا لعمري معنى » ، فلقنه الكسائي فقال : « ما أردت غيره. » فقلت : » أخطأتما جميعاً ! لأنه غير جائز أن يقال : إن من خير القوم وأفضلهم ، بل خيرهم زيداً » فقال المهدي: « يا كسائي ، ما مر بك مثل اليوم . » قال : « فكيف الصواب عندك ؟ » فقلت : « إن من خير القوم وأفضلهم أَو خيرَهم بتة زيد ، على معنى تكرير إن . » فقال المهدي : « قد اختلفتما وانتما عالمان ، فمن يفصل بينكما ؟ » قلت : « فصحاء العرب المطبوعون . » فبعث إلى أبي المطوق ، فعملت ابياتاً إلى أن يجيء ، وكان المهدي يميل إلى أخواله من اليمن (ومنصور الحميري حاضر) فقلت :

يا أَيها السائلي لأُخبره عمن بصنعاء من ذوي الحسب
حمير ساداتها ، تقر لها بالفضل طراً جحاجح العرب
فإن من خيرهم وأُفضلهم أو خيرَهم بتة أبو كرب

فلما جاء أبو المطوق أنشدته الأبيات وسألته عن المسألة، فوافقني (١)

---

(١) أمالي الزجاجي ص ٤٠ ثم قال الزجاجي : المسألة مبنية على الفساد للمغالطة فاما جواب الكسائي فغير مرضي عند احد . وجواب اليزيدي غير جائز عندنا لانه أضمر (ان) وأعملها وليس من قوتها ان تضمر فتعمل....والصواب عندنا في المسألة=

٢ ـــ في حضرة الرشيد :

سأل الرشيد اليزيدي والكسائي عن قصر (الشراء) ومده فقال الكسائي : « مقصور لا غير » وقال اليزيدي : « يقصر ويمد » فقال الكسائي : « من أين لك ؟ » فقال اليزيدي : « من المثل السائر :

= ان يقال : « إن من خير القوم وافضلهم أو خيرهم البتة زيد » فتضمر اسم ان فيها وتستأنف مابعدها . اهـ — قلت : يريد ان اسمها ضمير شأن محذوف .

هذا والقصة في الاغاني (٧٦/١٨) وفيها ثمة اختلاف يسير وبعض نقص واخلال، أما الزيادة فيها فطريفة لدلالتها على أن العصبية في النحو لم تقتصر على النحاة بل تناولت كبار رجال الدولة واغرتهم بالتحيز ، ولم ينج شيبة بن الوليد هذا وهو أحد قواد المهدي من شرها واليك تتمة الخبر برواية الاغاني على لسان ابي محمد نفسه :

« فقال لي المهدي : كيف تنشده أنت ؟ فقلت : « أوخيرَهم بتة أبو كرب » على إعادة (إن) كأنه قال : (أو إن خيرهم بتة أبو كرب) » فقال الكسائي : «هو الله قالها الساعة . » فتبسم المهدي وقال : « انك لتشهد له وما تدري » ثم طلع الأعرابي الذي بعث اليه وألقيت عليه المسائل فاجاب فيها كلها بقولي فاستفزني السرور حتى ضربت بقلنسيتي الارض وقلت : « أنا أبو محمد » فقال لي شيبة : « أتتكنى باسم الامير » فقال المهدي . « والله ماأراد بذلك مكروهاً ، ولكنه فعل مافعل للظفر ، وقد لعمري ظفر » فقلت : « إن الله عز وجل أنطقك ايها الامير بما انت اهله وانطق غيرك بما هو اهله » فلما خرجنا قال لي شيبة : « أتخطئني بين يدي الامير ؟أما لتعلمن» قلت : « قد سمعت ماقلت وأرجو ان تجد غبها . » ثم لم اصبح حتى كتبت رقاعاً عدة، فلم أدع ديواناً إلا دسست اليه رقعة فيها أبيات قلتها فيه ، فاصبح الناس يتناشدونها وهي :

عش بجد ولا يضرك نوك ‏ إنما عيش من ترى بالجدود
عش بجد وكن هبنقة القيسي ‏ نوكاً او شيبة بن الوليد ! الخ

لا يغترّ بالحرة عام هدأتها ولا بالأمة عام شرأتها . » فقال الكسائي : « ما ظننت أن أحداً يجهل مثل هذا » فقال اليزيدي : « ما ظننت أن أحداً يفتري بين يدي أمير المؤمنين مثل هذا . » (١)

٣ — في حضرة الرشيد أيضاً :

سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الرشيد قال : « انظر ، في هذا الشعر عيب ؟ » وأنشده :

ما رأينا خَرَباً نـقَّر عنه البيضَ صقر (٢)
لا يكون العَيْر مهراً لا يكون ، المهر مهر

فقال الكسائي : « قد أقوى الشاعر . » فقال له اليزيدي : « انظر فيه . » فقال : « أقوى ، لا بد أن ينصب المهر الثاني على أنه خبر كان . »

فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض وقال : « أنا أبو محمد ، الشعر صواب ، وإنما ابتدأ فقال : المهر مهر ».

فقال له يحي بن خالد : « أتكتني بحضرة أمير المؤمنين وتكشف

---

(١) قوله (مثل هذا) ساقط (من المصباح المنير) وعنه روينا الخبر وهو موجود في التاج نقلاً عن المصباح فلعل الكلمة سقطت من مطبوعة المصباح الاميرية .

(٢) ارشاد الاريب ١٣/١٧٨ . — الخرب ذكر الحباري، والمعنى لايحاول الصقر استخراج صقر من بيضة الحباري . و (يكون) الثانية توكيد لفظي للاولى . واراد بـ أقوى : لحن .

رأسك ؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك . »

فقال : « لذة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن . » (١)

٤ — بين المازني ونحاة كوفيين

حضر المازني ونحاة كوفيون مجلس الواثق يوماً فقال الواثق — وهذه رواية المازني نفسه — :

« يامازني هات مسألة . » قلت : « ماتقولون في قول الله تبارك وتعالى : « وما كانت أمك بَغِيّـا » [سورة مريم الآية ٢٨] : لم لم يقل : (بغية) وهي صفة لمؤنث؟ فأجابوا بجوابات غير مرضية ، فقال لي :« هات » قلت : « لو كان (بغي)على تقدير (فعيل) بمعنى(فاعلة للحقتها الهاء مثل كريمة وظريفة ، وانما تحذف الهاء اذا كانت في معنى مفعولة في نحو (امرأة قتيل ، وكف خضيب) ؛ و (بغّي) هاهنا ليس بفعيل انما هو (فعول) لاتلحقه الهاء في وصف التأنيث نحو (امراة شكور وبئر شطون اذا كانت بعيدة الرشاه) ، وتقدير (بغيّ) : (بغويْ) قلبت الواو ياء ، ثم أدغمت الواو في الياء فصارت ياء ثقيلة نحو (سيدوميت) فاستحسن الجواب .»(٢)

٥ — بين المازني وابن السكيت

قال المازني :

حضرت يوماً مجلس المتوكل وحضر يعقوب بن السّكيت ؛ فقال المتوكل : «تكلما في مسألة نحوية . » فقلت له : « اسأل » فقال : « اسأل انت » فقلت له :

---

(١) المصدر السابق

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٩٥

ـــ ما وزن (نكتل) اللفظة الواردة في الآية المذكورة فيها قصة إخوة يوسف ؟

فتسرع وقال : ـــ وزنها (نفعل) .

فقلت له : « اتئد وانظر . » فأفكر ثم قال :

ـــ وزنها (نفتعل .)

فقلت : — (نكتل) أربعة أحرف و (نفتعل) خمسة أحرف ، فكيف تقدر الرباعي بالخماسي ؟ فبهت ولم يُحِر جواباً .

فقال المتوكل : فما تقول أنت يا مازني ؟

قلت : ـــ وزنها في الأصل (نفتعل) لأنها (نكتَال) فلما تحرك حرف العلة وهو الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفاً فصارت (نكتال) ، ولما دخل الجازم صارت (نكتل) .

فقال المتوكل : هذا هو الحق وانخزل ابن السكيت ووجم،وظهر ذلك عليه . فلما خرجنا قال ابن السكيت في الطريق : « بالغت اليوم في اذاي » فقلت له : « لم اقصدك بشيء مما جرى ، وانما مسألة كانت قريبة من خاطري،فذكرتها.»(١)

٦ - بين المبرد وثعلب

هذا مجلس يرويه ثعلب نفسه وأنا أشك فيه كل الشك ، قال :

« دخلت يوماً الى محمد بن عبد الله بن طاهر وعنده أبو العباس محمد

---

(١) انباه الرواة ١/٢٥٠ وطبقات النحويين واللغويين ص ٩٤

ابن يزيد (المبرد) وجماعة من أشباهه وكتابه ، وكان محمد بن عيسى وصفه له فلما قعدت قال لي محمد بن عبد الله : «ما تقول في بيت امرىء القيس :

لهـا متنتان خظـاتا كما أكب على ساعديه النمِرْ»؟

فقلت:«...خظابظا إذا كان صلباً مكتنزاً ، ووصف فرساً ، وقوله (كما أكب على ساعديه النمر) أي في صلابة ساعدي النمر إذا اعتمد على يده . والمتن الطريقة الممتدة عن يمين الصلب وشمـاله ؛ وما فيه من العربية أنه قال (خظاتا) فلما تحركت التاء أعاد الالف من أجل الحركة والفتحة . » . . .

فقال محمد بن يزيد : « أعز الله الأمير ، أراد في (خظاتا) الاضافه أضاف (خظاتا) إلى (كما) » .

فقلت له : « ما قال هذا أحد . »

فقال محمد بن يزيد : « بل سيبويه يقوله . »

فقلت لمحمد بن عبد الله : « لا والله ما قال هذا سيبويه قط ؛ وهذا كتابه فيحضر . » ثم أقبلت على محمد بن عبد الله فقلت له : « وما حاجتنا إلى كتاب سيبويه ؟ أيقال (مررت بالزيدين ظريفي عمرو) فيضاف نعت الشيء إلى غيره ؟ » فقال محمد بن عبد الله بصحة طبعه : « لا والله ، ما يقال هذا . »

ونظر إلى محمد بن يزيد فأمسك ولم يقل شيئاً وقمت ونهض المجلس»[١]

---

(١) طبقات النحويين اللغويين ص ١٦٠

٧ ـــ بين المبرد وثعلب أيضاً

« حكى ان بعض الأكابر من بني طاهر سأل ابا العباس ثعلباً ان يكتب له مصحفاً على مذهب اهل التحقيق ، فكتب (والضحى) بالياء ،ومذهب الكوفيين انه اذا كان كلمة من هذا النحو اولها ضمة او كسرة كتبت بالياء وان كانت من ذوات الواو . والبصريون يكتبون بالألف . فنظر المبرد في ذلك المصحف فقال : «ينبغي ان يكتب (والضحا) بالألف لانه من ذوات الواو ، فجمع ابن طاهر بينهما :

فقال المبرد لثعلب : « لم كتبت (والضحى) بالياء؟ » فقال : « لضمة أوله . » فقال له : « ولم إذا ضم أوله وهو من ذوات الواو تكتبه بالياء؟ »

فقال : لأن الضمة تشبه الواو ، وما أوله واو يكون آخره ياء ، فتوهموا أن أوله واو » فقال المبرد : « أفلا يزول هذا التوهم إلى يوم القيامة ؟ ! ! ! » (١).

---

(١) ارشاد الاريب ١٩/١١٨ .

هذا وقد تمثلت في الخصومة بينهما الخصومة بين البصريين والكوفيين عامة واشترك فيها الشعر على هوى، قائليه : فحب للوفاق يقول :

أيا طالب العلم لاتجهلن ... وعذ بالمبرد أو ثعلب

وبصري يقول :

رأيت محمد بن يزيد يسمو ... الى الخيرات في جاه وقدر ...

وكان الشعر قد أودى فأحيا ... ابو العباس داثر كل شعر

وقالوا ثعلب رجل عليم ... واين النجم من شمس وبدر

وقالوا ثعلب يفتي ويملي ... واين الثعلبان من الهزبر. الخ

والظاهر أن حيوية هذه الخصومة جلبت اليها الوقود الكافي من المتعصبين حتى =

٨ — بين ثعلب والزجاج

قال الزجاج :

دخلت على أبي العباس ثعلب في أيام المبرد وقد أملى شيئاً من (المقتضب) فسلمت عليه وعنده أبو موسى الحامض وكان يحسدني شديداً ويجاهرني بالعداوة وكنت ألين له وأحتمله لموضع الشيخوخة .

فقال لي ثعلب : « قد حمل إلي بعض ما أملاه هـذا الخلدي (يعني المبرد) فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة فقلت له : « إنه لا يشك في حسن عبارته اثنان ، ولكن سوء رأيك فيه يعيبه عندك . » فقال : « ما رأيته إلا ألكن متغلقاً » .

فقال أبو موسى : « والله إن صاحبكم (يعني سيبويه) ألكن » فأحفظني ذلك ثم قال :

« بلغني عن الفراء أنه قال : « دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة ، فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح ، سمعته يقول لجارية : « هات ذيك الماء من ذاك الجرة فخرجت من عنده ولم أعد إليه » .

فقلت له : « هذا لا يصح عن الفراء ، وأنت غير مأمون في هـذه

— ذهبت مثلاً في الأدب فقال أحد المحبين يحن ويتشوق :

فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كأنا ثعلب والمبرد

— انظر بغية الوعاة ص ١١٦

الحكاية ، ولا يعرف أَصحاب سيبويه من هذا شيئاً ، وكيف تقول هذا لمن يقول في أَول كتابه : (هـذا باب علم ما الـكلمُ من العربية) ؟ وهـذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء فضلاً عن النطق به »

فقال ثعلب : « قد وجدت في كتابه نحواً من هـذا : يقول : (حاشا) حرف يخفض ما بعده كما تخفض حتى وفيها معنى الاستثناء . »

فقلت : هذا كذا في كتابه ؛ وهو صحيح : ذهب في التذكير إلى الحرف ، وفي التأنيث إلى الـكلمة . »

قال : « والأجود أن يحمل الـكلام على وجه واحد » .

قلت : « كلٌ جيد ، قال الله تعالى : « ومن يقنتْ منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً . . . » [1] .

وقرىء : « وتعمل صالحاً » وقال عز وجل : « ومنهم من يستمعون إليك . » [2] ذهب إلى المعنى ، ثم قال « ومنهم من ينظر إليك . . » [3] ذهب إلى اللفظ ، وليس لقائل أن يقول : لو حمل الـكلام على وجـه واحد في الاثنين كان أجود ، لأن كلاً جيد .

فأما نحن (يريد البصريين) فلا نذكر (حدود) الفراء لأن صوابه فيه أكثر من أن يعد ؛ ولكن هذا أنت (يا ثعلب) عملت كتاب

---

(١) سورة الاحزاب ٣٣ الآية ٣١

(٢) سورة يونس ١٠ الآية ٤٢

(٣) الآية التالية ١٠/٤٣

(الفصيح) للمبتدي المتعلم وهو عشرون ورقة أخطأت في عشرة مواضع منه . . . الخ » .

وفصّل هذه المواضع مستشهداً بكلام العرب فانظرها في مظنتها[١] ، ثم قال الزجاج : « . . . فما قرىء عليه كتاب (الفصيح) بعد ذلك علمي ، ثم بلغني أنه سئم ذلك ، فأنكر كتاب (الفصيح) أن يكون له . »[١]

وهم يصفون ثعلباً بغزارة الحفظ لكنه « لم يكن مع ذلك موصوفاً بالبلاغة وإذا كتب كتاباً إلى بعض أصحاب السلطان ما خرج عن طبع العامة »[٢] .

* * *

في أكثر هذه الاخبار مجال لمن شك فيها أو توقف ، فما فاز فيه الكسائي على خصمه عرفناه من رواية أنصاره الكوفيين ، فراوي خبر الأصمعي والكسائي : ثعلب وهو من أئمتهم ، وراوي خبر سيبويه والكسائي : الفراء تلميذ الكسائي ، وراوي خبر اليزيدي والكسائي : اليزيدي نفسه ولم نسمع رواية الطرف الآخر ممن شاهد الوقائع ؛ ومع هذا نستطيع اعتبارها واقعة كما رووها لنا ونمضي في بحثنا ، جاعلين عدم

---

(١) ارشاد الاريب ١/١٣٧ — ١٤٣ وانظر انباه الرواة ٣/١٤١

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ١٥٧

نقض البصريين لهذه الروايات إقراراً منهم بمضمونها . ونلاحظ بعد ذلك الأمرين الآتيين :

١ ــ لا يحتاج القارىء إلى كثير روية حتى يطمئن إلى أن الحق في كل هذه المناظرات كان بجانب البصريين : الأصمعي ، وسيبويه ، واليزيدي والمبرد . وأن حجج الكوفيين في هذه المسائل واهية .

٢ ــ لم تكن أكثر هذه المجالس عادلة ، فميل السلطان إلى أحد الخصمين وتقريبه له ومكانته عنده . كل ذلك قوى نفسه فاستطال على خصمه بدالته ولسانه وجاهه في القصر وعند الشهود ، وتحدثت هذه المجالس بغلبته ، إلى أن مضت الأيام وانقضت تلك الاعتبارات وحكم التاريخ فرد الحق إلى أهله .

. . .

وبعد ، فقد بلغ هذا الخلاف أجله ، ودرج العلماء والمؤرخون على أن هناك مذهباً بصرياً وآخر كوفياً ، فما معالم كل من المذهبين وما أهم الميزات لهذا وذاك ؟

أبادر قبل بسط هذه المعالم إلى تسجيل أمرين لا بد منهما إذا أردنا الدقة في البحث والاحتياط في الأحكام :

١ ــ نحن اليوم نملك من كتب البصريين عدداً صالحاً يساعدنا في إرسال الأحكام بشيء من الاطمئنان ، فقد راجت في الأقطار منذ تأليفها

حتى اليوم ، وشرح منها الشيء الكثير ، وتداولته الطلبة على مر السنين .
ثم كان الذين ألفوا في طبقات النحويين وأخبارهم ممن طبعت كتبهم ينصر أكثرهم المذهب البصري ، وكان النحو في الشام ومصر والمغرب والأندلس .. بصري الطابع في أكثر مسائله أغلب الأزمان ، وهذا كله قد خدم كتب البصريين ونحوهم خدمة لم يحظ ببعضها المذهب الآخر .

أما الكوفيون فلم يطبع من كتبهم النحوية حتى الآن شيء فيما أعلم (١) وإنما اطلعنا على أقوالهم في كتب المتأخرين منثورة على المسائل ، أي إن آراءهم وردت في كتب خصومهم – مع شيء من التجوز – للرد عليها ؛ فإن نحن اعتمدنا على ذلك في إصدار الأحكام لم نكن إلى العدل في شيء . والحق يقضي ألا نرسل حكماً بين فريقين إلا بعد الاستماع إلى حجج كلٍ من فيه . وهذا مع الأسف ليس ميسوراً الآن .

٢ ـــ هذه الميزات والمعالم الآتية بعد ، ليست جامعة مانعة ؛ فليست هناك قاعدة أجمع عليها نحاة البصرة وتوارد على معارضتها نحاة الكوفة ، أو قال بها الآخرون جميعاً وعارضها الأولون جميعاً . بل كثيراً ما نجد العالم الواحد من أهل الكوفة مثلاً يذهب إلى أحكام يوافق فيها مذهب

---

(١) بل إني سردت تراجم النحاة في (بغية الوعاة) فلا أذكر أنه مر بي كتاب في النحو الكوفي بعد أئمته الاولين غير ما جاء في ترجمة ابي جعفر التنوخي (–٣١٨) من ان له مؤلفا في النحو على مذهب الكوفيين ، إلا ان يكون مر شيء وغفلت عنه.

خصومه ويخالف أهل مصره . وطالما تجد هذه الظاهرة في كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري)[١] وفي كتب النحو الأخرى[٢] . وما أكثر ما نقرأ فيها : « قال البصريون إلا فلاناً وفلاناً كذا ، وذهب الكوفيون إلا فلاناً إلى كذا . »[٣]

ولم يطرد الصواب في أحد المذهبين اطراداً ، بل تجده تارة مع هؤلاء وتارة مع اولئك ، وحيناً وسطاً بينهما .

(٣)

الفروق بين المذهبين البصري والكوفي

بعد الاحتياط المتقدم نحصر الكلام على المذهبين في ناحيتين اثنتين إليهما مرد الأمر كله ، وهما السماع والقياس .

---

(١) انظر مثلا المسألة الثالثة (١/١٩) في خلافهم حول الالف والواو والياء التثنية والجمع : هل هي اعراب كالفتحة والضمة والكسرة او هي حروف اعراب ، فتجد الكوفيين قالوا بالاول ، والبصريين بالثاني ، ووافق قطرب (البصري) مذهب الكوفيين . وانشق المازني والمبرد والاخفش عن البصريين برأي ثالث .

(٢) انظر مثلا مغنى اللبيب : مادة (كلا) فقد اختلف في معناها الكسائي والفراء وكلاهما كوفي: قال الاول هي بمعنى حقاً وقال الثاني : هي بمعنى (ألا) الاستفتاحية

(٣) وأطرف مفارقة اطلعت عليها امر نحوي اسمه علي بن الحسن الهنائي معروف بكراع النمل مات بعد سنة ٣٠٧ فقد كان مصرياً اخذ عن البصريين وكان نحوياً على مذهب الكوفيين ـ انظر الفهرست لابن النديم ص ١٢٤

أمر السماع

تقع البصرة على سِيف البادية ، وأكثر عربها من قيس وتميم ، وقد عرفت شأنهما في الاحتجاج ، وتحف بها قبائل عربية سليمة السليقة لم تفسد لغتها بمخالطة الأعاجم ، فكانت هذه القبائل ترد سوق البصرة المشهورة (المِربد) . وأنت تعلم أن المربد كانت عكاظ الإسلام ، ففيها تناشد وتفاخر كما فيها تجارة وبيع [١] . وذلك له أثره في فصاحة أهل البصرة وسلامة لغتهم . ثم كانت هناك رحلات متبادلة ، فعلماء البصرة دائمو الترحال إلى البادية والجزيرة يتلقون عن أعرابها ، والأعراب دائمو الورود إلى البصرة لشؤون معايشهم ، فقد ضرب في بوادي الجزيرة الأصمعي وأبو عبيدة ويونس وأبو زيد والخليل وغيرهم ، ثم كانوا يتحرون في الأخذ : أما العربي فيتحرون فيه سلامة لغته وسليقته [٢] وأما الراوي فالصدق والضبط ، ثم كانوا لا يعتدون بالشاهد إذا لم يعرف قائله أو لم يروه عربي يوثق بلغته [٣] ، ومن هنا مجت بلدهم بفصحاء

---

(١) انظر بسط ذلك في كتابنا (اسواق العرب في الجاهلية والاسلام) .

(٢) استضعف ابوعمرو بن العلاء فصاحة ابي خيرة الاعرابي لما سأله: كيف تقول استأصل الله عرقاتهم ؟ ففتح ابو خير التاء ، فقال له ابو عمرو : « هيهات ابا خيرة ، لان جلدك . » — الخصائص ٢/١٣

(٣) في كتاب سيبويه (١٠٥٠) شاهداً خمسون منها لم يعرف قائلوها ، فاعتذروا بأن سيبويه وثق برواتها . ومع هذا كان بين هذه الخمسين ماوضع وضعاً . وهو نزر يسير لا يعتد به .

الأعراب المعروفين في كتب الأدب ، الذين كانوا من مفاخر البصرة التي يعتدها البصريون .

أما الكوفة فهي أدخل في العراق وأقرب إلى الاختلاط بالأعاجم ولغة أعرابها ليست لها سلامة لغة أعراب البصرة و فأكثرهم يمن وبها قليل من قبائل أخرى ، واليمن - كما رأيت في بحث الاحتجاج - لا يحتج بلغتها لتغيرها بالاختلاط بالفرس والأحباش ، ثم بين الكوفة وجزيرة العرب صحراء السماوة الشاسعة فلذا لم تكن رحلات علمائها إلى الجزيرة كرحلات علماء البصرة ، والكسائي الذي ارتحل لم يرتحل إلا لما تتلمذ على الخليل وسأله فأرشده إلى الرحلة، بل نقلوا أن الكسائي « حمل إلى الاخفش خمسين ديناراً وقرأ عليه كتاب سيبويه سراً » [١] . نعم كان للكوفة سوق أرادوا بها أن تحاكي مربد البصرة وهي (سوق كُناسة)، لكن لم يكن لها ذلك الشأن ، وهي إلى أن تكون داعية إفساد اللغة أقرب منها إلى أن تكون عاملاً في صيانتها ، لأن الأعراب الذين يؤمونها غير سليمي السلائق . كل هذه العوامل صرفت الكوفيين إلى رواية الشعر ، فذلك هو الميسور لهم ، وزعموا أن سبب علمهم بالشعر وسبقهم فيه أهل البصرة : أن المختار بن أبي عبيد لما خرج بالكوفة قيل له: « إن تحت القصر الأبيض الذي كان للنعمان كنزاً » . فاحتفر فوجد الطنوج التي كان النعمان أمر أن ينسخ فيها أشعار العرب فأخرجها ،قالوا:

---

(١) انظر مثلا مراتب النحويين ص ٧٤

فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالشعر ، هذه رواية حماد الراوية الكوفي [١].

هذا حال من ينقلون عنه من حيث السليقة وسلامة اللغة ، وأما الجهة الثانية وهي صدق الراوي وضبطه فلم يعنوا بها ، ولذا كثر الموضوع المصنوع في أكثر رواياتهم ، قال أبو الطيب اللغوى : « الشعر بالكوفة أكثر وأَجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بيّن في دواوينهم » [٢] وأبعد من ذلك في الدلالة قصة خلف ابن الأحمر راويتهم الكبير فقد قال :

« أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم : « ويلكم ، أنا تائب إلى الله تعالى ؛ هذا الشعر لي . » فلم يقبلوا مني وبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب . [٣]

أَما راويتهم الأكبر « حماد » فهو الشمس شهرة في كذبه ووضعه ، و « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ... فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل من الأقدمين ويدخله في

(١) انظر الخصائص ١/٣٨٧ . الطنوج : الكراريس . والخبر كله اسطورة من الصعب تصديقها ولعله وضع كما توضع اشباهه من الاخبار النافخة في العصبية للبلدان

(٢) عن مراتب النحويين ٧٤

(٣) وفيات الاعيان ١/٣٩٣

شعره ، ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد ، وأين ذلك »[١] ولا ننسى استشهاده باللحن أيضاً حتى امتنع الكميت الشاعر عن إملاء شعره وقد طلب ذلك منه وقال له : « أنت لحان ولا أكتبك شعري »[٢].

وقد عجب يونس « كيف يأخذ الناس عن حماد وهو يلحن ويكسر الشعر ويكذب ويصحف »[٣] ولا ننسى أنه ديلمي من السبي .

كان من الطبيعي إذاً أن يطرح الثقات روايات أهل الكوفة وقد ملأها حماد وخلف وغيرهما بالمصنوع ، وصار ذلك مما يميز مدرسة الكوفة من مدرسة البصرة ، وعرف ذلك الخاص والعام ، حتى أتى من ألف في طبقات النحويين فسجل الظاهرة الآتية :

« لا يعلم أحد من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة إلا أبا زيد الانصاري البصري ، فقد روى عن المفضل الضبي الكوفي[٤]

---

(١) كلمة المفضل الضبي — ارشاد الاريب ١٠/٢٦٥ . وعلى ان المفضل الضبي هذا « اعلم من وردعلينا من غير اهل « البصرة» بتعبير ابن سلام (انظر طبقات الشعراء ص ٢١) فقد وقع هو نفسه فيما خاف منه، فذكر ابن سلام في كلامه على عدي بن زيد انه « حمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد واضطرب فيه خلف وخلط فيه المفضل فاكثر !! » ص ١١٧

(٢) الموشح للمرزباني ص ١٩٥

(٣) مراتب النحويين ص ٧٣

(٤) نزهة الالباء لابن الانباري ص ١٧٥

وحتى كانوا إذا بالغوا في الثناء على علم كوفي شبهوا روايته برواية أهل البصرة فقالوا في ترجمة ابن الاعرابي تلميذ المفضل الضبي : « ولم يكن أحد من الكوفيين أشبه روايةً برواية البصريين منه . »[١]

أَما أهل الكوفة فيروون عن أهل البصرة إذ كانوا أساتذتهم ، حتى الكسائي الذي قرأ على الخليل ويونس وعيسى بن عمر ، ورأى تحريهم فيما ينقلون وفيمن يشافهون ؛ زايل التحري حين انتقل إلى بغداد[٢] وكان أمره كما قال أبو زيد الانصاري : « قدم علينا الكسائي البصرة فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً . ثم صار إلى بغداد فلقي أعراب الحُطَمية فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك

---

(١) بغية الوعاة ١٤٢ سأله ثعلب عن بضع عشرة مسألة من شعر الطرماح في مجلس واحد فقال في كلها : « لا ادري ولم اسمع ، افأحدث لك برأيي ؟ » هذا مع وصفهم له بالاتساع في العلم جداً وانه «لم ير احد في علم اللغة والشعر كان اغزر منه » انظر الصفحة نفسها وفي امالي اليزيدي (ص ٩٠ طبعة حيدر آباد ١٣٦٧ هـ) ان ابن الاعرابي قال : أصير في كل شهر إلى أبي الوليد محمد بن ابي أحمد بن ابي دؤاد أربعة مجالس وآخذ منه ألف درهم وأصرفها الى الاعراب الفصحاء لأستفيد منهم . » قال ثعلب : « مارأيت أعطى للأعراب الفصحاء من ثلاثة : إسحق الموصلي واحمد بن ابراهيم الكاتب ، وابن الاعرابي . »

قلت : وفي هذه الصفات كلها التي اسبغت على هذا العالم الكوفي ما فيها من الدلالة على شأن مدرسة البصرة في صحة الرواية .

(٢) انظر ص ١٤٩ .

ما كان أخذه بالبصرة كله . » (١)

كل ما تقدم مشهور متعارف عند أهل العلم قديماً ، حتى إن ابن سلام لما نقل قول المفضل الضبي : « للأسود بن يعفر ثلاثون ومئة قصيدة . » عقب عليه بقوله : « ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه ؛ وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي ويتجوزون في ذلك بأكثر من تجوزنا . » (٢)

هذا فرق ما بين المدرستين في أمر السماع وصحته والتحري فيه .

أمر القياس

رسم البصريون خطتهم في النحو بعد أن جعلوا نصب أعينهم الهدف

---

(١) ارشاد الاريب ١٣/١٨٢ . الحطمية قرية على فرسخ من شرقي بغداد . وذكر الاصمعي « ان الكسائي يأخذ اللغة عن اعراب الحطمية ينزلون بقطر بل (قرية بين بغداد وعكبرا) وغيرهامن قرى سواد بغداد ، فلما ناظر سيبويه استشهد بكلامهم واحتج بهم وبلغتهم على سيبويه » ١٣/١٨١ . وانظر فيما وقع له من لحن حتى في قراءة القرآن انباه الرواة ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣وهو – وإن كان سهواً – دليل على ضعف ملكته.

(٢) طبقات الشعراء ص ١٢٣ . هذا وكان ابو حاتم السجستاني يقول مريداً البصريين : « فاذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها ، او حكيت عن العرب شيئاً فانما أحكيه عن الثقات عنهم مثل ابي زيد والاصمعي وابي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الاعراب وحملة العلم ؛ ولا ألتفت الى رواية الكسائي والاحمري والاموي والفراء ونحوهم ، وأعوذ بالله من شرهم .» – مراتب النحويين ص ٩٠

الذي إليه يرمون ، وهو عصمة اللسان من الخطأ ، وتيسير العربية على من يتعلمها من الأعاجم . ولذا تحروا ما نقلوا عن العرب ثم استقروا أحواله فوضعوا قواعدهم على الأعم الأغلب من هذه الأحوال ، فإن تناثر هنا وهناك نصوص قليلة لا تشملها قواعدهم سلكوا بها – بعد التحري من صحة نقلها عن العرب المحتج بكلامهم – إحدى طريقتين : إما أن يتأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة . وإما أن يهملوا أمرها لقلتها فيحفظوها ولا يقيسوا عليها ، جاعليها من الصنف الذي سموه مطرداً في السماع شاذاً في القياس ، وقد مر بك شذا (ص ٨٤) . وذلك مثل (استحوذ واستصوب) والقياس فيها الإعلال مثل (استقال ، استجاد ، استطال . . الخ) فقالوا : تحفظ الكلمات النادرة التي وردت عن العرب في هذا الباب ولا يقاس عليها ، بل منهم من ذهب إلى أن اتخاذ القياس فيها (استحاذ ، استصاب) غير خطأ .

وهم الذين أمعنوا في أحوال الكلام العربي ، واستنبطوا علله ، وحكّموا فيها المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم في القياس والنحو الذي بني عليها متماسكة متناسقة في الجملة ، ولا بد في كل تنسيق من تشذيب يخرج بعض النتوء من الهيكل المشذب . ولم يكن إلى الصواب من عاب عليهم من المحدثين أنهم بتعميم هذه القواعد قد أهدروا شيئاً من اللغة ، فهم حين يختارون بين اللغتين أشيعهما وأقربهما إلى القياس ، قد قاموا بخير ما يمكن أن يقوم به من يريد حفظ اللغة ، ومع أن

الكوفيين جمعوا ماهب ودب ولم يفرطوا شيئاً مما وصل إليهم ، لم يدّعوا ولم يدّع لهم أحد أنهم لموا اللغة من أطرافها وأحصوها ، وأنا نجد عندهم كل لغات العرب بلهجات قبائلها ؛ بل نحن أحرى أن نجد عند البصريين المنظمين المنسقين ما لا نجده عند غيرهم ، فالنظام يحفظ في نسق ما لا يستطيع غيره أن يحفظه .

أما الكوفيون فلم تكن لهم أصول يبنون عليها غير ما أخذوه عن أساتذتهم البصريين ولم يحسنوه ، ثم جعلوا من اللامنهج في سماعهم منهجاً خاصاً لهم ، فسمعوا الشاذ واللحن والخطأ ، وأخذوا عمن فسدت لغته من الأعراب وأهل الحضر ؛ فلما اقتضتهم المنافسة أن يكون لهم قياس كما لأولئك بنوه على ما عندهم مما يتنزه عن روايته البصري ، ثم جعلوا كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه ، فانتشرت قواعدهم ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق ، وضاعت الغاية من وضع النحو فلم يعد - في أيديهم - أداة تيسير لتعلم العربية ، بعد أن أصبحت له قواعد بعدد ما جمعوا من شواهد ، وهذا شيخهم وكبيرهم الكسائي : « كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة ، والضرورات فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو »[١] وحتى ضاق به

(١) ارشاد الاريب ١٣/١٨٣ . ويقول ابن درستوية . «كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز الا في الضرورة فيجعله أصلا ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك.» — بغية الوعاة ص ٣٢٦ .

وبقياسه وبسماعه اليزيدي فقال :

كنا نقيس النحو فيما مضى   على لسان العرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه   على لغى أشياخ قطربل
فكلهم يعمل في نقض ما   به يصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأشياعه   يرقون بالنحو إلى أسفل(١)

وغلب هذا الانحراف على الكوفيين حتى قال الأندلسي شارح المفصل: « الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه . »(٢)

أما قياسهم نفسه ومقدار جودته فقد مر بك في المناظرات نمط منه ، وعرفت وهيه حين يعللون بالتوهم مرة (في رسم والضحى) ، وبتسليط فعل مقدر على أحد المتعاطفين دون الثاني في قضية (فإذا هو إياها) .

* * *

اتجه بعض الباحثين المحدثين إلى عد المذهب الكوفي مذهب سماع على حين عدوا المذهب البصري مذهب قياس ؛ فذهب الاستاذ أحمد أمين إلى أنهم « يحترمون كل ما جاء عن العرب ويجيزون للناس أن

---

(١) أخبار النحويين البصريين ص ٤٤ وبغية الوعاة ص ٣٣٦ وإرشاد الاريب ٢٠ / ٣١ .

(٢) الاقتراح ١٠٠ .

يستعملوا استعمالهم »(١) . وبالغ المرحوم الاستاذ طه الراوي فقال : أَما « مذهب الكوفيين فلواؤه بيد السماع ، لا يخفر له ذمة ولا ينقض له عهداً ، ويهون على الكوفي نقض أَصل من أُصوله أَو نسف قاعدة من قواعده ، ولا يهون عليه اطراح المسموع على الاكثر . »(٢)

وأَود هنا - بعد ما مر بك - أَن أُحرر هذا الأمر فأفرق بين القياس ذي الأصول المقررة ، والقياس المشوش الذي لا ضابط له . فالصحيح أَن الفريقين كانا يقيسان ، وربما كان الكوفيون أكثر قياساً إذا راعينا (الكم) فهم يقيسون على القليل والكثير والنادر والشاذ ، ولم نعلم لهم مناهج محررة في القياس . أَما البصريون فهم أَقيس إذا راعينا (الكيف) — والحق مراعاته — فهم لا يقيسون إلا على الأعم الأغلب ، ولهم في القياس اصول عامة يراعونها . والزمن حكم لعلمهم بالبقاء إذ كان الأنسب والأضبط ، فكان نحو الناس حتى هذا اليوم بصرياً في أَغلبه . تصرفت الحياة في هذا الأمر بما لا يشعر به البصريون ولا الكوفيون ، إذ أَن لها اختيارها الخاص الملائم : تقبل ما يروقها وتحييه غير آبهة لما يقول هؤلاء ولا ما يقول اولئك ، وإنما السليقة اللغوية الخفية في نفوس المتكلمين هي التي احتفظت بما كان أَقرب لروح العربية الأولى : فمات

---

(١) ضحى الاسلام ٢/٢٩٥ ،

(٢) نظرة في النحو : مجلة المجمع العلمي العربي ١٤/٣١٩ .

بل لم يولد ما جانف هذه السليقة ، فما احد قال ولا يقول اليوم (الرجال قام) وإن قال المذهب الكوفي بتقديم الفاعل على الفعل .

اما السماع فهل كان الكوفيون (يحترمونه) حقاً كما قال الأستاذ احمد امين ؟ ، أوهل كان (لواؤهم بيده لا يخفرون له ذمة) كما قال المرحوم الاستاذ طه الراوي ؟ لعلك بعد ما سبق لك موقن معي ان السماعيين هم البصريون لا الكوفيون ؛ فمن احترام السماع صيانته وحفظه من كل موضوع ، ومن احترامه تحري حال المسموع منه ، فلا يُدس فيه كلام الذين فسدت لغتهم من أعراب الحطمية وأشياخ قطربّل ، ومن احترامه ألا نساوي فيه بين القليل النادر والأكثر الشائع فنغمط حق هذا الأخير . وإنّ حشرنا فيه الضعيف والشاذ واللحن والخطأ مما يقع فيه أعراب السواد ، والشعر المصنوع مما دسه حماد وخلف الكوفيان ؛ خفر لذمته ونقض لعهده [١]

الحق أن البصريين عنوا بالسماع فحرروه وضبطوه (واحترموه) ، على حين زيفه الكوفيون وبلبلوه ، والأمر في القياس على هذه الوتيرة ، نظمه وحرر قواعده وأحسن تطبيقه البصريون . على حين هو في يد

---

(١) كان يونس بن حبيب يقول : « إن لم يكن بُزرج النحوي (الكوفي) أروى الناس فهو أكذب الناس . » كان كذاباً ، كثيراً ما يحدث بالشيء عن رجل ثم عن غيره . — انظر ترجمته في الفهرست وفي إنباه الرواة .

الكوفيين مشوّش غير واضح المعالم رلا منسجم في أَجزائه ، ولا مطرد. بل تجد فيه ظاهرة غريبة جداً ، وهي إطلاقهم ـ وهم المتقيدون بالسماع ـ الاشتقاق فيما لم يسمع عن العرب ، فقد ذهبوا إلى قياس (مَفْعل وفُعال على نحو مثنى وثلاث) من خمسة إلى تسعة على حين لم يسمع عن العرب ذلك إلا من واحد إلى اربعة ، والبصريون أنفسهم ـ وهم القياسيون ـ منعوه (إلا المبرد منهم) لعدم السماع ، ولَأن يكون ذلك من البصريين أحْرى إذ هو بمذهبهم أَشبه وعن مذهب الكوفيين أبعد . وهذا يؤكد لك ما ذهبت إليه من أَنه مذهب غير منسجم .

أميل إذاً إلى أن المذهب الكوفي لا هو مذهب سماع صحيح ولا مذهب قياس منظم . لكن التاريخ يؤيد وجود المذهبين مذهب السماع ومذهب القياس وهما حقاً وجدا ، ولكن في البصرة لا في الكوفة أما القياس فليست بصريته موضع خلاف ، وأَما السماع الصحيح فإني أوثر أن أنقل فيه كلام الأستاذ أحمد أمين نفسه في أَن هذه المدرسة مدرسة بصرية ، قال :

« كانت هاتان النزعتان في البصرة في أيامها الأولى ، فهم يقولون : إن ابن أبي إسحق الحضرمي وتلميذه عيسى بن عمر كانا أَشد ميلاً للقياس وكانا لا يأبهان بالشواذ ولا يتحرجان من تخطئة العرب ؛ وكان أبو عمرو ابن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أَيضاً على عكسهما : يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت النزعة الأولى على من أتى

بعد من البصريين ، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعد من الكوفيين ولا سيما الكسائي الكوفي . »

وهـذا حق مع استدراك واحد ، هو أن أبا عمرو ويونس يعظمان قول العرب بعد التحري والتثبت من أنه كلام العرب المحتج بهم ، أما الكوفيون فلا يتحرون ، ولو قال الأستاذ (فغلبت النزعة الثانية مشوهة الخ . .) لطبق المفصل ، وجميل ما حكم به بعد ذلك بين المذهبين :

« ونرى في هاتين النزعتين أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً ، وأن طريقتهم أكثر تنظيماً وأقوى سلطاناً على اللغة ، وأن الكوفيين أقل حرية وأشد احتراماً لما ورد عن العرب ولو موضوعاً (كذا) ، فالبصريون يريدون أن ينشئوا لغة يسودها النظام والمنطق ، ويميتوا كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة أو قول لا يتمشى مع المنطق والكوفيون يريدون أن يضعوا قواعد للموجود حتى الشاذ ، من غير أن يهملوا شيئاً حتى الموضوع » (١)

---

(١) ضحى الاسلام ٢ / ٢٩٦ .

هذا وللقاضي الجرجاني في كتابه (الوساطة) الذي ألفه للدفاع عن المتنبي الكوفي والحكم بينه وبين خصومة ، حكم يسرني إثباته له لما فيه من توضيح الأمر هنا على رغم سوقه مساق الدفاع عن الكوفيين قال :

ولأهل الكوفة رخص لا تكاد توجد لغيرهم من النحويين .... غير انهم لا يبلغون بها مرتبة الاهمال » للقواعد العامة . انظر الوساطة ص ٤٦٦ .

وبهذا لا يكون من الدقة – في رأيي – إطلاق النزعة السماعية على المذهب الكوفي والنزعة القياسية على المذهب البصري . والدقة التي يؤيدها التاريخ والإمعان فيه وفي أقوال الكوفيين والبصريين ألا يكون مذهب بصري يقابله مذهب كوفي . بل نزعة سماعية يقابلها نزعة قياسية يختلف حظ كل منهما صحة وحالاً ومقداراً بين البلدين . بل بين نحاة كل بلد على حدة . على ذلك الأساس يصح أن نعيد النظر في النحو وتاريخه ورجاله بهذا التصنيف الجديد ، بعد أن علمنا أن النزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة .

. . .

وبعد فهذه أحكام تقريبية لا مطردة ، إذ أن في المذهب الكوفي مسائل جيدات تختار على مثيلاتها في المذهب البصري ، كإعمالهم مثلاً اسم المصدر عمل المصدر . فحكمهم في ذلك صحيح واضح تؤيده روح القواعد والمنطق ، وشاهداهم عليه صحيحان قويان (١) وما اتجهوا إليه في إعراب

---

(١) قول القطامي يمدح زفر بن الحارث الكلابي :

أكفراً بعد رد الموت عني ... وبعد عطائك المئة الرتاعا

والحديث الشريف : « من قبلة الرجل امرأته الوضوء . »

ففزع البصريون في رد القاعدة الى أن الحديث مروي بالمعنى ، وإلى ان البيت فيه ضرورة .

لكن الزمن حكم للكوفيين فصحت قاعدتهم وسار عليها الناس وقبلها النحاة حتى =

(نعم وبئس)[١] أيسر وأقرب إلى الفطرة اللغوية من مذهب اخوإنهم البصريين ، وكذهاب بعضهم في قضية (أشياء) وأنها جمع لشيء منعت من الصرف لشبه ألفها بألف التأنيث[٢] ، ولهم أشباه هذه المسائل .

وبذلك تدرك صواب الظاهرة التي قدمت بها هذا الكلام من أن الحق يصيبه هؤلاء تارة وهؤلاء تارة .

ونختتم هذه الفقرة بمثل صغير من الخلاف بين المدرستين ننتزعه من كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري) نموذجاً لقضايا جاوزت المئة في هذا الكتاب ، يبسط في كل منها رأي الكوفيين وحججهم ثم رأي البصريين وحججهم مع ردودهم على حجج الكوفيين غالباً.

٩٢ — مسألة سوف

ذهب الكوفيون الى ان السين التي تدخل على الفعل المستقبل نحو (سأفعل) أصلها (سوف) ، وذهب البصريون الى انها أصل بنفسها.

أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن سوف كثر استعمالها في

=يومنا هذا . ونحو من هذا : القاعدة التي وضعها البصريون في وجوب إعادة الجار قبل المعطوف على المجرور وقد عرفت أمرها ص ٣٥ .

(١) انظرها في كتاب (الانصاف في مسائل الخلاف) ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٢ فقد ركب البصريون في هذه المسألة متن عمياء واضطروا الى الاستغاثة بأوهى العلل حتى بانحراف اللسان وكان من حججهم قول بعض العرب (ما أيطبه) بدل (ماأطيبه) !

كلامهم وجريها على ألسنتهم ، وهم ابداً يحذفون لكثرة الاستعمال كقولهم : «لاأدر ولم أبل ، ولم يك ، وخذ ، وكل » واشباه ذلك ، والاصل :

« لا ادري ، ولم أبال ، ولم يكن ، والأخذ ، والأكل » فحذفوا في هذه المواضع وما أشبهها لكثرة الاستعمال فكذلك ها هنا : لما كثر استعمال (سوف) في كلامهم حذفوا منها الواو والفاء تخفيفاً .

والذي يدل على ذلك انه قد صح عن العرب انهم قالوا في (سوف افعل):(سو افعل) فحذفوا الفاء ، ومنهم من قال(سف افعل) فحذف الواو واذا جاز ان يحذف الواو تارة والفاء اخرى لكثرة الاستعمال جاز ان يجمع بينهما في الحذف مع تطرق الحذف اليهما في اللغتين لكثرة الاستعمال . والذي يدل على ذلك ان السين تدل على ما تدل عليه سوف من الاستقبال ، فلما شابهتها في اللفظ والمعنى دل على انها مأخوذة منها . وفرع عليها .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأن الاصل في كل حرف يدل على معنى ألا يدخله الحذف وان يكون اصلا في نفسه ، والسين حرف يدل على معنى ؛ فينبغي ان يكون اصلا في نفسه لا مأخوذاً من غيره .

وأما الجواب عن كلمات الكوفيين :اما قولهم « ان(سوف) لما كثر استعمالها في كلامهم حذفوا الواو والفاء لكثرة الاستعمال » قلنا هذا فاسد ؛فان الحذف لكثرة الاستعمال ليس بقياس ليجعل اصلاً لمحل الخلاف ، على ان الحذف ولو وجد كثيراً في غير الحرف من الاسم والفعل فقلما يوجد في الحرف ، وانوجد الحذف في الحرف في بعض المواضع فهو على خلاف القياس فلا يجعل اصلاً يقاس عليه .

واما ما رووه عن العرب من قولهم في (سوف افعل) : (سو افعل) و(سف افعل) فالجواب عنه من ثلاثة اوجه :

الوجه الأول: انهذه **رواية تفرد بها بعض الكوفيين**؛ فلا يكون فيها حجة

والوجه الثاني انصحت الرواية عن العرب **فهو من الشاذ الذي لا يعبأ به لقلته**.

والثالث : ان حذف الفاء والواو على خلاف القياس ؛ فلا ينبغي ان يجمع بينهما في الحذف لان ذلك يؤدي الى مالا نظير له في كلامهم ؛ فانه ليس في كلامهم حرف حذف جميع حروفه طلباً للخفة على خلاف القياس حتى لم يبق منه الا حرف واحد ، والمصير الى مالا نظير له في كلامهم مردود .

وأما قولهم « إن السين تدل على الاستقبال كما أن (سوف) تدل على الاستقبال » قلنا : هذا باطل ؛ لأنه لو كان الأمر كما زعمتم لكان ينبغي أن يستويا في الدلالة على الاستقبال على حد واحد ، ولا شك أن (سوف) أشد تراخياً في الاستقبال من السين، فلما اختلفا في الدلالة دل على أن كل واحد منهما حرف مستقل بنفسه غير مأخوذ من صاحبه ، والله اعلم .»[1]

(٤)

أثر العصبية في الخلاف

جرى بعض الباحثين قديماً وحديثاً على رد الخلاف النحوي بين هذين المصرين العربيين إلى السياسة ، وهو رأي سطحي لا يثبت عند التدقيق: فأهل النظر في كل فن تتباين أنظارهم كثيراً دون أن يكون للسياسة أو غيرها في ذلك أثر ، وإنما هو الاجتهاد المحض ، وهؤلاء أئمة البصريين يختلفون — فيما بينهم — اتجاهاً واجتهاداً في مسائل كثيرة من مسائلهم . نعم ربما كان للسياسة أثر ما في ميل الأمراء العباسيين إلى الكوفيين ، لكن هذا شيء وتوجيه الفن إلى اتجاه خاص شيء آخر .

---

(١) الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري ص ٣٧٩ (مطبعة الاستقامة في القاهرة).

أما هذه الاحداث التي كانت تكون بين كوفي وبصري في قصور الحكام فنوع من الدفاع عن القوت أولاً وميل إلى العصبية البلدية (١) آخراً . ولا تظن أن ما مر بك من مشاحنات بينهم كان يصرف بعضهم عن الانتفاع بعلم بعض ، وحسبك أن تعلم أن الفراء مات « وتحت رأسه كتاب سيبويه » وأن الكسائي وهب للأخفش سبعين ديناراً لقراءته كتاب سيبويه عليه وأنه « سلخ كتابه في معاني القرآن من كتاب الأخفش » (٢) ، وأن الجاحظ لما عدد مفاخر البصرة على الكوفة قال : « وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان وبسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله » ولما اشترى الجاحظ كتاب سيبويه من ميراث الفراء رآه أثمن ما يهدى إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، فلما دخل عليه وقد افتصد سأله « ما أهديت لي يا أبا عثمان ؟ » قال ؟ « أطرف شيء : كتاب سيبويه بخط الكسائي وعرض الفراء !! » . . إلى غير ذلك من الأخبار التي

---

(١) لما نعي الاحمر الى الفراء وكلاهما كوفي (وكانت بينهما وحشة) ، ذكره بخير واثنى عليه ، فقال اهل زمانه : « لم يذكره لمحبة له ، وإنما ذكره ليكاثر اهل البصرة بأهل الكوفة — إنباه الرواة ٢/٣١٧ .

(٢) بغية الوعاة ص ٢٥٨ واذكر إنباه الرواة ٢/٣٧ حيث قول الاخفش : سألني الكسائي ان اؤلف له كتاباً في معاني القرآن ، فألفت كتابي في المعاني فجعله اماماً ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما . » هذا وذكروا ان (معاني الكسائي لو قرىء عشر مرات لاحتاج من يقرؤه أن يقرأه — إنباه الرواة ٢/٢٦٥ .

إن صدقتها فدلالتها على العصبية البلدية ظاهرة ، وإن ذهبت إلى وضعها أو التزيد فيها فالدلالة أظهر .

لم يختلف نحاة المصرين تبعاً لاختلاف سياسة بلديهما ، فليس للسياسة تأثير مباشر في ذلك ، وإنما كان التكتل استجابة للعصبية ليس غير :

أنشئت البصرة والكوفة على عهد عمر بن الخطاب ؛ وانقضت سنون من عهد عثمان والمصران كالبلد الواحد ولبعض القبائل جماعات في كل منهما ، فلما كان الشغب أيام عثمان أسهم العراقيون فيه ؛ وآلت الأمور إلى قتل الخليفة والفتن المتلاحقة بعد . وكان أن انضم البصريون في وقعة الجمل إلى عائشة وطلحة والزبير ، وانضم الكوفيون إلى علي ، وكانت الملحمة بينهما واستحر القتل وكان لكل فريق مجزرة هائلة في الفريق الآخر .

فمن ثم العداوة والتخاصم والتنافس بين البلدين . فلما انقضى عهد القلاقل خلف في أذهان الفريقين قصصاً وأدباً وشعراً ووقائع تذكر بالفخر تارة وبالوجيمة تارة اخرى (١)

---

(١) انظر اخبارها في معجم البلدان لياقوت، وفي كتاب البلدان للهمداني ففيهما طرائف ، وانظر على سبيل التمثيل ابيات اعشى همدان ينتصر للكوفة على البصرة:

اكسع البصري إن لاقيته	إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا	تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا	ماصنعنا بكمُ يوم الجمل =

فهذا ما ولدت العصبية والتنافس بين وفود الفريقين ورجالاتهم في الأسمار ومجالس الأمراء .

ولئن كانت أحداث سياسية خاصة هي المفرقة قديماً ، إنها تطورت مع الزمن وتحول اتجاهها ، حتى تبلورت في عصبية للبلد [١] وثبتت عليه كما نجد أنماطاً من ذلك في مثل كتاب البلدان للهمداني ، بل إن بعضهم كان يؤلف في مفاخر بلده كما فعل الهيثم بن عدي الكوفي (ـــ ٢٠٩) فألف كتابه (فخر أهل الكوفة على أهل البصرة) [٢] .

المدافعة عن اسباب العيش أولا وقبل كل شيء ثم العصبيـة للبلد لا للسياسة (عاملاً ثانوياً) هما اللذان لوّنا الخلاف النحوي ولم يوجداه ،

= بين شيخ خاضبٍ عثنونه ... وفتى ابيض وضاح رفل
جاءنـا يخطر في سابغـة ... فذبحناه ضحى ذبـح الجمل
وعفونا فنسيتم عفونـا ... وكفرتم نعمة الله الاجل

كسعه : ضربه بصدر قدمه على مؤخره — الرفل : المتبختر ، الكثير اللحم — السابغة : الدرع الطويلة . وانظر في ذلك كتابنا (عائشة والسياسة) .

(١) قال الجاحظ في كتاب (البلدان) وقدذكر فضل البصرة ورجالها : وفينا اليوم ثلاثة رجال لغويون ليس في الارض مثلهم ، ولا يدرك مثلهم — يعني في الاعتلال والاحتجاج والتقريب — ابو عثمان المازني والثاني العباس بن الفرج الرياشي ، والثالث ابو اسحق ابراهيم بن عبد الرحمن الزيادي . وهؤلاء لا يصـاب مثلهم في شيء من الامصار . » ! وكتب كتابه هذا في شهر ربيع الاول ٢٤٨ هـ — عن انبـاه الرواة ١/٢٤٨ .

(٢) إرشاد الاريب ١٩/٣١٠ .

لوّناه بشيء من العنف رأيت أنماطاً منه في المنـاظرات التي مرت بك ؛ وفي مثل قول اليزيدي يمدح نحويي البصرة ويهجو الكسائي وأصحابه :

ياطالب النحو الا فابكه ... بعـد ابي عمرو وحمـاد

وابن ابي إسحق في علمـه ... والزين في المشهد والنادي

عيسى وأشباه لعيسى ، وهل ... يأتي لهم دهر بأنـداد

هيهات ، إلا قائلاً عنهم ... أرسوا له الأصل بأوتاد

فهو لمنهاجهم سالك ... لفضلهم ليس بجحّاد

ويونس النحوي لاتنسه ... ولا (خليلاً)حية الوادي

وقل لمن يطلب علماً : الا ... ناد بأعلى شرف ناد:

« ياضيعة النحو بـه مغرب ... عنقاء أودت ذات إصعاد

افسده قوم وأزروا بـه ... من بـين أغتام واوغاد

ذوي مراء وذوي لكنة ... لئام آبـاء واجداد

لهم قيـاس احدثوه هـمُ ... قياس سوء غير منقـاد

فهم من النحو ـ ولو عمروا ... اعمار عاد — في (ابي جاد)

اما الكسائي فـذاك امرؤ ... في النحو حار غير مرتاد

وهو لمن يأتيـه جهلا به ... مثل سراب البيد للصادي[(١)]

»

وهجا المبرد البصري ثعلباً الكوفي بقوله :

أقسم » بالمبتسم العذب ... ومشتكى الصب الى الصب

لو أخذ النحو عن الرب ... ما زاده إلا عمى القلب

فتمثل ثعلب :

---

(١) اخبار النحويين البصريين ص ٤ — رجل أغتم من قوم اغتام : لايفصح . الحار : الحائر . (أبي جاد : أبجد، هوز الخ) يريد أنهم لا يتجاوزون أول العلم لضعف استعدادهم كما أن الصبي في الكتاب أول مايتعلمه حروف (أبجد هوز) .

يشتمني عبد بني مسمع ... فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لا حتقاري له ... من ذا يعض الكلب إن عضا[1]

وأراد ثعلب هذا أن يقرأ على المبرد البصري ، فأنكر عليه أصحابه الكوفيون وقالوا : « مثلك لا يصلح أن يمضي إلى بصريّ فيقال غداً : إنه تلميذه [2] » ، فاستجاب لهم عصبيةً وحرم نفسه الخير .

لكن ختنه (زوج ابنته) أحمد بن جعفر الدينوري لم يبال ذلك ، فكان يخرج من منزل ثعلب وهو جالس على باب داره ، فيتخطاه ويتخطى أصحابه ، ويتوجه إلى المبرد ومعه محبرته ودفتره ليقرأ عليه كتاب (سيبويه) ، وكان ثعلب يعاتبه على ذلك ويقول : « إذا رآك الناس تمضي إلى هذا الرجل وتقرأ عليه ، يقولون ماذا ؟ » فلم يكن يلتفت إلى قوله [3] .

وما بلغت العصبية والنضال عن أسباب الرزق بين الفريقين مدى سافراً هذا السفور الذي تراه في الخبر الآتي :

« لما أصاب الكسائي الوضح (البرص) كره الرشيد ملازمته أولاده فأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، وقال : « إنك كبرت ، ولسنا نقطع راتبك » فدافعهم خوفاً أن يأتيهم برجل يغلب على موضعه ،

---

(١) ترجمة ثعلب في بغية الوعاة ص ١٧٣ .

(٢) إرشاد الاريب ٥/١١٥ ، ثم ذكر ياقوت أن ابن الانباري أورد هذه القصة ليرفع من ثعلب والكوفيين عصبية ، فوضع منهم .

(٣) انظر ترجمته في إنباه الرواة للقفطي (١/٣٣) وبغية الوعاة للسيوطي .

إلى أن ضيق الأمر عليه وشدد ، وقيل له : « إن لم تأت برجل من أصحابك اخترنا لهم من يصلح » ، وكان بلغه أن سيبويه يريد الشخوص إلى بغداد والأخفش ، فقلق لذلك ، وعزم على أن يدخل عليهم من لا يخشى غائلته ، فقال لعلي الأحمر : « هل فيك خير ؟ » قال : « نعم » قال قد « عزمت على أن أستخلفك على أولاد الرشيد » فقال الأحمر : « لعلي لا أفي بما يحتاجون إليه ! » فقال الكسائي : « إنما يحتاجون كل يوم إلى مسألتين في النحو ، وثنتين من معاني الشعر وأحرف من اللغة ، وأنا ألقنك (ذلك) كل يوم قبل أن تأتيهم فتحفظه وتعلمهم. » وكذلك كان [١] .

هذا ومن الخير ألا نغفل هنا خبراً يرد الأمور إلى نصابها فيما عرف عن بعض الكوفيين من أعمال علمية ، فقد قال سعيد بن مسعدة الأخفش « سألني الكسائي أن أؤلف له كتاباً في (معاني القرآن) فألفت كتابي في المعاني ، فجعله إماماً لنفسه ، وعمل عليه كتاباً في المعاني ، وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما ! » [٢] وقد مر بك الخبر آنفاً .

* * *

---

(١) بغية الوعاة ص ٣٣٤ عن إرشاد الأريب . وقد اعترض أصحاب الرشيد وقالوا « انما اخترت رجلاً من أهل النوبة (الجند) وليس متقدماً في العلم » ، فدافعهم وشهد له . ولم يزل الاحمر يتعلم من الكسائي ويعلم ابناء الرشيد حتى صار مع طول الايام نحوياً وقد أتحفنا هذا الخبر بنموذج من برامج التعليم الخاص يومئذ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٧١ .

أُثرت العصبية ما رأيت فيما كان بينهم ، أما النحو نفسه فلم يتأثر بشيء من ذلك ، وإنما حمل طابع العلماء أنفسهم في التفكير والتنسيق سعةً وضيقاً ونظاماً وبلبلة .

ولما تقدم الزمن ، واستوى عند الحكام نحويو البصرة ونحويو الكوفة ، غاب السبب الأول ، وبقيت العصبية للبلد تخالط بعض النفوس حتى صرت ترى العالم الذي ينبغي أن يتنزه عن العصبية في العلم - ولو بعد ذهاب أسبابها المادية على الأقل - تداعبه هذه النزعة ، فيجمع بين شيئين متنافرين لا لسبب إلا أنهما نبتا في بلد يعزه . وأنا أقدم لك نموذجاً لهذه الظاهرة : الخليل بن أحمد السجزي القاضي المتوفى سنة (٣٧٨ هـ) ، فقد كان حنفياً في الفقه وكوفياً في النحو ، وفاخر بذلك يقول :

سأجعل لي النعمان في الفقه قدوةً ... وسفيان في نقل الأحاديث سيّدا
وأجعل في النحو الكسائيّ قدوةً ... ومن بعده الفراء ما عشت سرمدا
وإن عدت للحج المبارك مرة ... جعلت لنفسي كوفة الخير مشهدا (١)

ومن كان حنفياً فأشبه مذاهب النحو بالمذهب الحنفي مذهب البصرة لإحكام القياس فيه ، ولكنه الميل النفسي الشديد إلى الكوفة ، والولوع بكل ما أنتجت حدوا القاضي على أن يكون كوفياً في النحو والفقه والحديث مهما تنافرت أصول هذه الفنون في الكوفة .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (مطبعة روضة الشام) ٥/١٧٣ .

وقد كان لهذه العصبية شيء من (رد الفعل) عند العلماء جعلهم يشكون في كل ما ينقل من علم كوفي : هذا أبو حاتم السجستاني يسمع تغالي الكوفيين في حمزة الزيات - أحد قراء الكوفة - فيسأل عنه أبا زيد والأصمعي ويعقوب الحضرمي وغيرهم من العلماء ، فيجمعون على أنه لم يكن شيئاً « ولم يكن يعرف كلام العرب ولا النحو ولا كان يدّعي ذلك .... قال أبو حاتم : « وإنما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون ، فقد صيره الجهال من الناس شيئاً عظيماً بالمكابرة والبهت ، وقول ذوي اللحى العظام منهم : « كانت الجن تقرأ على حمزة » .... وكيف يكون رئيساً وهو لا يعرف الساكن من المتحرك ، ولا مواضع الوقف والاستئناف ، ولا مواضع القطع والوصل والهمز ؟ وإنما يحسن هذا أهل البصرة ، لأنهم علماء بالعربية ، قراء رؤساء . » (١)

وكان يكفي أن يشوب علم العالم أو تأليف الكتاب أخذ عن الكوفيين حتى ينبز بذلك عند النقاد (٢) .

والظاهر أنه كان بين أهل البلدين فيما بعد ، تنكيت وإرسال قصص وأخبار يحمل فيها أهل البلد على أهل البلد الآخر ، وراجت هذه النكات - على نحو ما نرى اليوم بين بلدتين متجاورتين كحمص وحماة في الشام -

---

(١) مراتب النحويين ص ٢٧

(٢) انظر كلامهم على أبي عبيد القاسم بن سلام وعلى كتابه المشهور (الغريب المصنف) - مراتب النحويين ص ٩٣ .

وزاد هذا الأمر حتى استحق أن تؤلف فيه المؤلفات ، فهذا ابن حبان البستي (ـــ ٣٥٤) على جلالة قدره يؤلف كتاباً في عشرة أجزاء في (ما أغرب الكوفيون عن البصريين) ، وكتاباً في ثمانية أجزاء في (ما أغرب البصريون عن الكوفيين) [١]

تستطيع بعد هذا البيان أن تطمئن إلى شيئين :

١ — ليست السياسة عاملاً في تكوين النحو الكوفي على ما كان عليه .

٢ — إن الصورة التي في نفوس الناس قديماً وحديثاً عن حدة التجاذب والتدافع بين النحو الكوفي والنحو البصري مبالغ فيها .

٥ — كتب الخلاف

عرفت أن النحاة ـ والبصريين منهم خاصة ـ قد انتزعوا علل النحو من كتب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة بالملاطفة والرفق (ص ٩١) . فاعلم الآن أن منهم من ألف في الخلاف بين النحاة ، على نمط ما صنع الفقهاء في كتبهم التي ألفوها في الخلاف بين الحنفية والشافعية ، وهذا ابن الأنباري يقول في مقدمة كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) بصراحة :

---

(١) معجم البلدان : (مادة بست) . ولم اطمئن الى كون هذين الكتابين في الخلاف النحوي ، اذ لم ينقل عن ابن حبان تأليف في النحو ولا تصدر لتدريسه ، أما الاخبار فله بها ولوع وله فيها تأليف .

« ... سألوني أن ألخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويي البصرة والكوفة ، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة ، ليكون أول كتاب صنف في علم العربية على هذا الترتيب ، وألف على هذا الأسلوب ، لأنه ترتيب لم يصنف عليه أحد من السلف ، ولا ألف عليه أحد من الخلف ... واعتمدت في النصرة على ما أذهب إليه من مذهب أهل الكوفة أو البصرة ، على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف ... »

وهكذا تجد تأثير العلوم الدينية واضحاً بارزاً في علوم اللغة كلها مادتها ومنهجها . وإذا رجعت إلى كتاب الاقتراح للسيوطي وجدتهم يصرحون تصريحاً سافراً أيضاً بأنهم وضعوا للخلاف في النحو ولمناقشات مسائله أصولاً كأصول الخلاف بين الشافعية والحنفية [١] .

أقدم من ألف في الخلاف ، فيما علمت ، أحمد بن يحيي ثعلب الكوفي (سنة ٢٩١) ، ولم نعرف هل أداره على أصول الخلاف الفقهي أم لا ، وأي كان فإليك ما عثرت عليه من أسماء الكتب التي ألفت في الخلاف ، مرتبة على وفيات أصحابها :

١ — اختلاف النحويين — لثعلب (— ٢٩١) .

٢ — المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون

---

(١) انظر ص ٧٩ فما بعد .

والكوفيون [١] ـ لابن كيسان (ـ ٣٢٠) وقد ردّ فيه على ثعلب .

٣ ـ المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين ـ لأبي جعفر النحاس (ـ ٣٣٨) [٢] . وقد ردّ فيه على ثعلب .

٤ ـ الرد على ثعلب في (اختلاف النحويين) ـ لابن درستويه (ـ ٣٤٧) .

٥ ـ كتاب الاختلاف لعبد الله الأزدي (ـ ٣٤٨) .

٦ ، ٧ ـ الخلاف بين النحويين للرماني (ـ ٣٨٤) . وله كتاب آخر أخص هو (الخلاف بين سيبويه والمبرد) .

٨ ـ كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين لابن فارس (ـ ٣٩٥) [٣] .

٩ ، ١٠ ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ـ لأبي البركات الأنباري (ـ ٥٧٧) وقد طبع . وله كتاب آخر في الخلاف اسمه : (الواسط) ، ذكره ابن الشجري في أماليه ونقل منه . (انظر ٢/١٢٠ ، ١٤٨ ، ١٥٤) من الأمالي لابن الشجري .

وقد استدرك ابن إياز على ابن الأنباري مسائل خلافية كثيرة فاتته

---

(١) في بغية الوعاة : (ما اختلف فيه البصريون والكوفيون) فأثبتنا الاسم كاملاً من الفهرست لابن النديم .

(٢) بغية الوعاة وإرشاد الاريب ٤/٢٢٨ . وفي بغية الوعاة : (المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين) .

(٣) إرشاد الاريب ٤/٨٤ وذكر في بغية الوعاة باسم (اختلاف النحاة) .

في كتابه (الإسعاف) الآتي ذكره قريباً .

١١ — التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين [١] لأبي البقاء العكبري (— ٦١٦) .

١٢ — الإسعاف في مسائل الخلاف — لابن إياز (— ٦٨١) [٢]

والظاهر أن هناك كتباً كثيرة في الخلاف ، وأنه كانت له ضجة في المجالس والبيئات العلمية . وكان التعصب على أحد الفريقين بادياً في بعض هذه الكتب ، ولذا استدرك صاحب (الإنصاف) لذي قدمت لك فقرة من مقدمته محترساً بقوله(على سبيل الإنصاف لا التعصب والإسراف) .

٦ - بعد المذهب البصري والمذهب الكوفي

كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية هي السوق التي كان يروج فيها

---

(١) في بغية الوعاة (التعليق في الخلاف) . وقد رأيت هذا الكتاب مخطوطاً في دار الكتب المصرية وهو رسالة صغيرة في ١٨ ورقة ضمن مجموع رقمه (نحو ش ٢٨) اوله : هذا كتاب مسائل خلافية في النحو تكلم فيها باختصار على ١٤ مسألة .

(٢) وممن تكلم على الخلاف ولم يخصص له كتاباً مستقلاً أحمد بن جعفر الدينوري (— ٢٨٩ هـ) ختن ثعلب مر ذكره ص ٢١٠ فذكروا أنه ألف كتاباً في النحو سماه « المهذب » وذكر في صدره اختلاف الكوفيين والبصريين ، وعزا كل مسألة الى صاحبها ، ولم يعتل لواحد منهم ولا احتج لمقالته ، فلما أمعن في الكتاب ترك الاختلاف ونقل مذهب البصريين — إنباه الرواة ١/ ٣٤ وبذلك يكون أول الخائضين في هذا الموضوع وواة ممن ذكرناهم .

العلم والأدب ، فكان يرتحل إليها العلماء من الأقطار كافة ، كل يحمل إليها طابع بلده الخاص ، أو بتعبير آخر مدرسة بلده في الفن المختص به ، فالتقت لكل علم وفن ألوان وطوابع مختلفات ، احتكت وتمازجت وكان منها ألوان جديدة مطبوعة بالسمة البغدادية العامة . وذلك ما كان في النحو ، فقد نشر الكوفيون فيها نحوهم وقصدها نحاة بصريون أيضاً ، ونشأت طبقة جديدة في بغداد اختارت من المذهبين وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي الذي أرخه ووصفه أبو الطيب اللغوي بهذه الكلمات الموجزات :

« فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً ، وغلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدثوا الملوك ، فقدموهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول ، واعتمدوا على الفروع ، فاختلط العلم . »[1]

وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال . ولما عرض أبو الطيب لأشهر أعلام المذهب البغدادي ، وهو ابن قتيبة ، نقده بما لا يخرج عما تقدم فذكر الذين أخذ عنهم ، ثم قال : « إلا أنه خلط بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات ، وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا . وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله و (عيون

---

(١) مراتب النحويين ص ٩٠ وانظر فيه أيضاً ص ١٠١ حيث يقول : « بغداد مدينة ملك وليست بمدينة علم ، وما فيها من العلم فمنقول اليها .. الخ » .

الأخبار) و (المعارف) و (الشعر والشعراء) ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء ، وإن كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له . »[١]

وقد عقد ابن النديم لهذه الطبقة باباً عنوانه (من خلط بين المذهبين) عد منهم ابن قتيبة (ـ ٢٧٠) وأبا حنيفة الدينوري (ـ ٢٩٠) وابن كيسان (ـ ٣٢٠) ومحمد بن احمد بن منصور الوراق (ـ ٣٢٠) ونفطويه (ـ ٣٢٣)[٢] . وتستطيع أن تزيد على هؤلاء : سليمان الحامض (ـ ٣٠٥) وأبا علي الأصفهاني الملقب بلغدة ، وابن السراج (ـ ٣١٦) ، وأبا بكر بن الخياط (ـ ٣٢٠) وأبا عبدالله الكرماني (ـ ٣٢٩) وكلاب ابن حمزة العقيلي وغيرهم . وللكشي كتاب (تخليط المذهبين) . والطابع البصري أغلب على المذهب البغدادي في الجملة كما هو الشأن في بقية الأمصار . ولاعجب في ذلك فإن الأصالة التي فيه فرضت نفسها كما

---

(١) المصدر السابق ص ٨٥ .

(٢) الفهرست ص ١١٥ وقال ابن النديم « كان ابن قتيبة يغلو في البصريين الا أنه خلط بين المذهبين ، وحكى في كتبه عن الكوفيين وكان صادقاً فيما يرويه ، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف ، وكتبه في الجبل مرغوب فيها . » اه

وما أصدق ماقال مقدم كتابه (المعاني الكبير) : ابن قتيبة اول من جمع بين مذهبي الكوفيين والبصريين ، ولا يقوم لذلك الا من أتقن المذهبين وعرف الاصول التي تبنى عليها العلل والمقاييس عند الفريقين . » ـ (ه) مقدمة الكتاب (طبعة حيدر آباد . وانظر في فهرست ابن النديم ترجمة نفطويه أيضاً .

يقولون ، وكان ما أخذ من المذهب الكوفي مسائل اتجهوا فيها اتجاهاً أصح وأيسر .

وكان للنحو في الأندلس نشاط ملحوظ مر بشبه الخطوات التي سارها في المشرق ، بدأ علماء العربية يدرسون النصوص الأدبية شعراً ونثراً دراسة فيها لغة وأدب ونحو وحديث وقرآن ، ثم بدأت الفنون تتميز مع الزمن ، وكان أول كتاب دخل الأندلس من كتب النحو كتاب الكسائي[1] ، ثم كتاب سيبويه ثم بدأ الأندلسيون محاولاتهم في التأليف وعرف من أعلامهم ابو علي القالي مؤلف (الأمالي) و (البارع) و (فعلت وأفعلت) و (المقصور والممدود) ، ثم ابن القوطية صاحب كتاب (الأفعال) ، « وكانت أذيع كتب النحو على أيام ابن حزم في المئة الخامسة تفسير الحوفي لكتاب الكسائي » وتتابع علماء الأندلس على شرح كتب المشرق المشهورة وشرح شواهدها ، واشتهر من نحاتهم في المئة السابعة ابن خروف (ـ ٦٠٢) وابن عصفور الإشبيلي (ـ ٦٦٢) والشلوبيني ، بعد البطلوسي (ـ ٥٢١) وابن الطراوة والسهيلي (ـ ٥٨٣) من أعلام المئة السادسة .

وكان خاتمة علماء الأندلس اثنان رزقا الشهرة ورحلا إلى المشرق فبثا علمهما فيه وكثرت تواليفهما وكتب لهما الذيوع حتى عصرنا هذا ،

---

(١) انظر تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٨٥ ومابعدها.

عنيت الإمام ابن مالك الجياني صاحب الألفية والإمام أبا حيان الغرناطي صاحب التفسير الكبير البحر و (الارتشاف) في النحو .

عكف علماء الأندلس إذن وطلابه على كتب البصريين والكوفيين فدرسوهما واختاروا منهما ، وتكوّن لهم مذهب خاص [١] كانوا فيه إلى مذهب البصريين أميل ، وكذلك كان أكثر العلماء الوافدين عليهم من المشرق [٢] أو النازحين إليه منهم لطلب العلم . وهكذا كان رأس العلوم عندهم النحو والشعر . ويتحدث عن نزعتهم هذه ابن سعيد فيقول « النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة » [٣] .

فلما نزح متأخروهم بعد النكبة ، بعضهم إلى المغرب وبعضهم إلى الشام ومصر ، نشروا علمهم في هذه الأقطار ، وكان مذهبهم كذلك بصرياً في أكثره .. إلى أن جاء ابن مالك ثم ابن هشام الأنصاري فجددا في النحو بعض التجديد ، وكانا يميلان إلى التوسعة . فرجحا في بعض المسائل أقوال الكوفيين حين رأيا الرواية الصحيحة تؤيدهم ، ولم يتعبدا

---

(١) انظر تراجم اعلامهم ، مثلاً ابن الوزان القيرواني (— ٣٤٦) ذكروا أنه اعلم من المبرد وثعلب وانه بصري المذهب مع علمه بمذهب الكوفة ، وأن لـه أوضاعاً في النحو واللغة . — انظر ترجمته في (إنباه الرواة للقفطي) ١/١٧٢-١٧٥

(٢) في ترجمة ابي علي القالي الوافد على الأندلس والذي أملى في جامع الزهراء بقرطبة كتابه العظيم « الامالي » : أنه أظهر فضل البصريين على الكوفيين ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين . انظر إنباه الرواة ١/٢٠٥ .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/٣٣٠

بأقوال البصريين [١]، واستشهدا بالحديث، فكانا مجتهدين إلى حدّ ما، ذويْ أثر بالغ في الدراسات النحوية، ومازالت كتبهما تدرس حتى الآن في معاهد العلم، وخدمت بشروح وحواش وتقريرات كثيرة.

وكانت تضم البلدة الواحدة نحاةً من منازع مختلفة، يطغى عليها أحياناً مذهب أَهل البصرة. وأحياناً مذهب الكوفة، تبعاً لنزعة العالم ذي الأثر فيها. فهذه حلب ضمت عالمين في زمن واحد: ابن جني رأس مدرسة القياس الذي كان لمدرسة البصرة إمامها الأعظم، وابن خالويه الكوفي المنزع صاحب كتاب (ليس في كلام العرب)، الذي اتبع فيه السماع نافياً من اللغة ما جوّزه (فلسفةً) نحاة البصرة. وبعدهما كان في الشام المعري الذي كان واسع الرواية سماعياً إلى أَبعد حدود السماع، يضيق بنحو البصرة الذي كان في أَيامه ممتلئاً بالجدل والقياس والتعليل [٢] وهذه النزعة ظاهرة في كتبه كل الظهور، وحسبك أن تلم برسالة الغفران لترى نقمته على البصريين خاصة [٣].

هذه سطور موجزة ألممت فيها بحركة الخلاف بعد البصريين والكوفيين، لا مجال فيها لتفصيل ما، لأن ذلك من تاريخ النحو لا من أصوله.

---

(١) كلمة ابي حيان ـ الاقتراح ص ١٠٠.

(٢) انظر في ذلك بحثاً قيماً للاستاذ ابراهيم مصطفى نشره في «المهرجان الالفي لابي العلاء المعري من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق» ص ٣٦٢-٣٧٤.

(٣) الظاهر أن مذهب الكوفة انتعش في الشام حيناً من الدهر، وعلة ذلك عندي اعتماده على كثرة الرواية والسماع. والشاميون «أثريون» الى حد بعيد يحترمون =

الخاتمة

في صدور المشتغلين بالعربية وعلومها اليوم يقين بأن في قواعدها شيئاً من البلبلة والتداخل والتطويل ، وفي آرائهم إجماع على وجوب الاصلاح والتنسيق ، وفي قلوبهم إيمان بامكانه بل بيسره وسهولته .

ويحق لقارىء هذا الكتاب بعد أن ألم بطرف من صنيع الاقدمين أن يتساءل : ما صنعنا نحن لأنفسنا وللغتنا بعد أن مهدوا لنا الطريق ؟ ، هل تقدمنا بها الى الامام ولدينا من مواتاة الاحوال ما لم يكن لديهم ؟ »

= السماع عن العرب كثيراً ، فيهم أخصب علم القراءات وهو سماع محض ،ولا تنس أن أكثر أئمة البصرة والكوفة هم قراء أيضاً . وعندهم أخصب فن الحديث وهو أيضاً سماع محض وبقي حياً نشيطاً الى زمن قريب ، عنوا عناية بالغة به وبسماعاته وطبقات رجاله وإحصاء طرقه ، ونبغ فيهم كبار الأئمة فيه ، ولا تزال دار كتبهم الظاهرية بدمشق أغنى مكتبات الدنيا اليوم في فن الحديث ، وكثير من مخطوطاتها بخطوط مؤلفيها المحدثين أنفسهم لا يدانيها في ذلك مكتبة في العالم . وفيها عدة دور « مدارس » للحديث ولقراءات القرآن . نزعة عرفوا بها ، واستأنس اذا شئت بهذه الجملة قرأتها أخيراً في كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) للباحث الفاضل جواد علي :

« يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث ، وأما التلمود البابلي فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق التفكير وتوسع في المحاكمة وغنى في المادة وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني » ١/٢٤. ومهما تظن من أثر لحب البلد في هذا الكلام فما ذلك بمانعك الاستئناس به الى حد ما ، ولولا عزوفي عن التعميم وإطلاق الاحكام لشددت به ما أذهب اليه من أثرية الشاميين بعد التثبت من صحة الحكم .

مكتبات عامة وخاصة تزخر بالكتب مخطوطة ومطبوعة ، ووسائل للنشر والتعميم واسعة مختلفة ، ولجان في كل بلد ، فنية رسمية ذات فروع في كل ميدان من ميادين الاختصاص ، ومجامع تسمى علمية، وجامعات، ونواد وجمعيات، وحكومات تمد جميع هذا بالمال والسلطان ... ثم لاشيء ذا بال وراءذلك كله. حتى الرسم الاملائي وهو اصطلاح محض ما استطعنا الاتفاق فيه على وجه من الوجوه المتعددة الجائزة ، نتخذه قاعدة في مدارسنا الابتدائية على الأقل[1] .

«١» كنا عشرين عضواً في لجنة امتحان الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٠ ، وكان النظام يقضي بحسم علامتين من عشر على كل حرف يرسم خطأ واذا أخطأ طالب في خمس كلمات نال صفراً وحرم الشهادة عامه ذلك؛ ومع ان هذا النظام أثمر أطيب الثمرات في حمل الطلاب ومعلميهم على العناية بقواعد الاملاء . كان عيبه الفادح أن القواعد نفسها عند المعلمين غير حاسمة على وجه واحد ، وأن روح التنظيم كانت تلقى من كثير منهم عداء مراً : فاذا رسم طالب (مصطفا) هكذا بالألف واراد مصحح حسم العلامتين انبرى له زملاء يحتجون لها بمذهب الفارسي ، واذا رسم همزة (يقرأون هكذا على ألف اعتذروا له بأن المطابع المصرية ترسمها كذلك ، وإذا أسقط همزة (ابن) في غير موضع الاسقاط نبشوا قولاً يسوغ فعلته . ، الخ فكان المرء الفطن الطارىء عليهم يحار بينهم في أمر الرسم : ما الصواب فيه وما الخطأ ؟ ولا يجد القوم على بصيرة من أمرهم فيه . وقل نحواً من هذا في أخطاء النحو والصرف .

= ولم يؤت هؤلاء الشيوخ — رحمهم الله فقد مات اكثرهم — من كسل أو جهل ، وإنما من انطباع على البلبلة وولوع بها الى حد الجنون ؛ فقد ربوا على حفظ الإقوال المختلفة في كل مسألة وعزوها الى أصحابها دون الفكر فيها ومحاكمتها بغية الوصول الى الحكم الفصل الذي تطمئن اليه النفس .

ونحو سنة ١٩٤٠ ألفت لجنة عليا لحسم النزاع الذي كان يحدث كل عام عند تصحيح أوراق الامتحان ، وللاعتماد على وجه واحد في كل مسألة ؛ فما أشرف وضع =

وصرنا ـ ونحن أحوج ما نكون الى الوقت في عصر الذرة والتأميم والعالمية في كل شيء ـ نبدد أوقات الصغار والكبار في مناقشات طويلة لمسائل خلافية نتتهي منها إلى أن لكل وجهاً سائغاً !! . وبذلك لم يحظ الرجل العادي ببعض ما يجب أن يعود عليه من خير لقاء الاموال الطائلة التي تنفق على تلك المؤسسات .

❀ ❀ ❀

وبعد ، فاذا أردنا اليوم إعادة النظر في بناء القواعد العربية، وجب أن نتجافى المآخذ التي أخذناها في مباحثنا السابقة على الاقدمين ، علينا أولا أن نحدد هدفنا من القواعد ، فاذا حددناه وضعنا أخصر المناهج وأوضحها وأسرعها في ابلاغنا إياه .

لا جرم أن الاحاطة بكلام قبائل العرب القديمة أمر لا سبيل اليه اليوم، وأن تنسيق ما وصل إلينا منه على القبائل بدقة أمر متعذر الآن [1] ، ولا شك في أننا اليوم نصطنع لغة فصحى

= الخطة على الانتهاء بعد نقاش طويل حتى قضى على المشروع كله قول قائل : « وما سلطتنا نحن على بقية الاقطار العربية ؟ وأي جدوى في انفرادنا بهذا الاصطلاح وحدنا ومطبوعات جيراننا تغزو طلابنا بما يخالفه ؟ »

وهكذا ترى حتى البلد الواحد لا يستطيع حزم أمره اذا أراد ، لان اللغة العربية ملك شائع بين البلاد كلها ، بل بين الازمان أيضاً اذا جاز هذا التعبير .

(١) ولو أن الاقدمين فعلوا في اللغة ما فعله ابو عمرو الشيباني في الشعر لخدموا خدمة جلى وأراحوا من بلبلة كثيرة ؛ فقد جمع أشعار العرب مصنفة على قبائلهم وكانت نيفاً وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه — الفهرست ص ١٠١ .

ويظنون أن حماداً الراوية كان عنده شعر كل قبيلة ، يروي ابو الفرج الاصفهاني أن حماداً قال :

=

يفهمها الرجل العادي فيما بين المغرب الاقصى وخليج فارس ، بل يفهمها كل من تعلم العربية من الاعاجم ، وأن لنا تراثاً علمياً وادبياً ضخماً تحفل به المكتبات الخاصة والعامة في ديار الغرب والشرق ، هذه واحدة ؛ أما الثانية فان لغة القرآن والحديث النبوي بوجه خاص ولغة قريش بوجه عام هي الغالبة الشائعة ، نقرؤها في الكتب قديمها وحديثها ، وفي صحف اليوم ومجلاته وجميع اذاعاته العربية الصادرة في بلاد العرب او في البلاد الاجنبية ، يستوي في ذلك أبناء العربية والذين شدوا منها شيئاً من الاجانب عنها . وأظن بعد ذلك ان الطريق واضح ،فعلينا اهدار كل لغة لانستعملها نحن اليوم ولم تستعملها اللغة الشائعة في القرآن الكريم والحديث وكتب الادب والتاريخ وسائر الفنون الحضارية التي خلفها أسلافنا ، ثم نؤسس قواعدنا على هذا التراث الموثوق به والذي كفلت له اصالته الحياة ، نستقصي مفردات القرآن وتراكيبه في جميع قراءاته ، ونمعن النظر فيما اطمأننا الى صحة صدوره عن أهل الصدر الاول من الحديث ، ثم فيما نطمئن اليه من نثر الأقدمين ثم نبني بعد هذا الاستقصاء قواعدنا على ذلك كله متوخين أقصر الطرق وأسهلها ، والأشيع ثم الاقيس فيما فيه لغتان فصيحتان ، وأنا واثق بعد ذلك أننا نهدر ركاماً ضخماً من قواعد وتفريعات واستثناءات بنيت على شاهد مجهول او لغية محرفة ، او ضرورة شعرية ، ونهدر إزاءه مقداراً ضئيلاً لايعتد به من خلاف اللهجات . وتكون القواعد هذه اقرب الى روح العربية من القواعد القديمة التي أفقدها انسجامها حشر النحاة فيها ماهب ودب مما لا يرجع الى نظام ولا ولا يجمعه نسق . وأكبر دليل على قولي انك تجد كثيراً من الأحكام التي ضخمت النحو لم يستعمله احد منذ دونت تلك الاحكام حتى الآن ، ولم يستعمله أحد قبل ذلك

=« أرسل الوليد بن يزيد الي بمئتي دينار وأمر يوسف بن عمر بحملي اليه على البريد ، فقلت : لا يسألني الا عن طرفيه قريش وثقيف ، فنظرت في كتابي قريش وثقيف ، فلما قدمت عليه سألني عن اشعار بلي فأنشدته منها ما أحسنته الخ .. » الاغاني ١٦٥/٥

الا نادراً في الشواهد التي أثبتوها إن صحت .

إعادة نظر في أسس النصوص الشائعة الموثوقة، ومنهج علمي سهل في بناء القواعد عليها كفيلان بابلاغنا الهدف المنشود . وربما أهدرت في سبيل ذلك بعض لهجات عربية فصيحة هنا وهناك ، إلا أن ذلك إذا قيس الى مانستريح منه من اكوام القواعد القديمة بدا غير ذي بال .

هذا ما نقترحه خدمة للفصحى وتيسيراً لنشرها اليوم ، فاذا تم ذلك اقتصدنا اكثر من نصف الوقت الذي يقضيه الطالب في المدارس لدراسة النحو ، وانتفعنا به في الاكثار من دراسة النصوص الأدبية المختارة ، فذلك أعود على إحياء الفصحى وملكة الطالب .

أما النحو الحاضر بمطولاته وشروحه وحواشيه ، بقديمه وحديثه وتاريخه وطبقات أهله فيبقى موضوع الدرس والتثقف في المعاهد والكليات والجامع وعند أهل الاختصاص: يدرس مادة وتاريخاً وتطوراً ، على شرط تنسيقه على اساس الروح العلمية التي ألمعت اليها آنفاً : تحقق نصوص شواهده ، وتطبق بدقة أسس الاحتجاج بها، ثم تدرس بعد استقراء الموجود منها على ما قدمت من تصنيفها ثم يبنى عليها أحكام صحيحة تستند الى إحصاء الأحوال في هذه النصوص ، فتماز الأحكام المطردة من الأحكام الغالبة ، والاحكام القليلة من الاحكام النادرة ، وتنسب اللهجات الى أصحابها على قدر الامكان، وتفرد ما ألجأت اليه الضرورة الشعرية فلا يعيث بين الشواهد والاحكام بلبلة واضطراباً ، بل يصنف على حدة فللشعر رخصه الخاصة ، او بعبارة أدق : نحوه الخاص ، كما له لغته الخاصة ووزنه الخاص .

❀ ❀ ❀

الحاجة الى الاصلاح ماسة ، والطريق اليه سالكة. والامور مواتية ،والشعوب العربية تنفق بسخاء ،والعاملون الأكفياء كثيرون، وأكثرهم الغيرُ المخلصون ولكن..

فقدنا في الذين وضعهم الزمن أيام الاحتلال القذر في أعلى الهرم ووكل اليهم الخطوة الأخيرة ، أموراً ثلاثة: الوعي والاخلاص والمضاء، فضاعت بذلك كل الجهود المبذولة ، شأنهم في ذلك شأن الحلقة العليا في السياسة وفي الدين وفي الاقتصاد.. الخ فحرمت الأمة ببلادة هؤلاء كل خير، وذهبت جهودها وأموالها وأعمارها وجهادها وحتى بعض بلادها أدراج الرياح، وقد كانت على قاب قوسين من النجاح .

نسأل الله أن يمن عليهم جميعاً بهذه الثلاث : الاخلاص والوعي والمضاء ،



مسرد الأعلام (١)

(١) عمله مشكوراً السيد رضوان رضوان ، الطالب في شهادة علوم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة السورية ، يشمل اعلام الافراد والجماعات والامكنة والكتب .

ز

س

— غ —

— ف —

— ن —

مراجع الكتاب

المرجع	الطبعة
إتحاف البشر في القراءات الاربع عشر	طبع عبد الحميد احمد حنفي (بلا تاريخ)
الاتقان للسيوطي	المطبعة الازهرية بمصر ١٣٤٣ هـ
أخبار النحويين البصريين لابي سعيد السيرافي	» الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٦ م
إرشاد الاريب لمعرفة الاديب (المعروف بمعجم الادباء) لياقوت	مطبوعات دار المأمون بمصر ١٣٥٥ هـ
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام لسعيد الافغاني	المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٣٧ م
الاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي	لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٧ م
الاغاني لابي الفرج الاصفهاني	مطبعة التقدم بمصر (التزام ساسي)
الاقتراح للسيوطي	» دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣١٠ هـ
الاكليل للهمداني (الجزء العاشر)	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٦٨ هـ
ألف باء للبلوي	» الوهبية بمصر ١٢٨٧ هـ
الامالي للزجاجي	الطبعة الثانية بالمطبعة المحمودية بمصر ١٣٥٤ هـ
» لابن الشجري	مطبعة الامانة بالقاهرة ١٩٣٠ م
» للقالي	» دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م
» لليزيدي	» دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣٦٧ هـ
إنباه الرواة إلى أنباه النحاة للقفطي	» دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ
الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري	مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٤ هـ
بغية الوعاة للسيوطي	» السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ
البيان والتبيين للجاحظ	» لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٦٨ هـ
تاج العروس من جواهر القاموس	المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٠٦ هـ
تاريخ دمشق لابن عساكر	مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم (تاريخ ١/٢٦)
تاريخ الفكر الاندلسي لـ (بالنثيا) ترجمة حسين مؤنس	مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ م

تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون — مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٩ م

تذكرة داوود الانطاكي — المطبعة الازهرية بالقاهرة ١٣٢٤ هـ

التطور النحوي لبرجستراسر — (أملاه في كلية الآداب بالجامعة المصرية)

التفسير الكبير للفخر الرازي — المطبعة المصرية ١٣٥٢ هـ

تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : لعبد القادر بدران — ١ - ٥ مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ

» » » — ٦ ، ٧ مطبعة الترقي بدمشق

حاشية الامير على مغني اللبيب (الطبعة الثانية) — المطبعة الازهرية بمصر ١٩٢٨ م

» الدسوقي » » — دار الطباعة الاميرية بمصر ١٣٠١

حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي) — دار الطباعة ببولاق ١٢٨٢ هـ

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع لآدم متز — طبعة ثانية للجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ م

خزانة الادب للبغدادي — المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ

الخصائص لابن جني . — مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢ م

الرسالة للشافعي — المطبعة الاميرية ببولاق ١٣٢١ هـ

الروض الانف للسهيلي — » الجمالية بالقاهرة ١٣٣١ هـ

سراج القارىء المبتدي . . لابن القاصح — مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٢ هـ

شرح شذور الذهب لابن هشام الانصاري — » الاستقامة بالقاهرة (طبعة ثالثة) ١٩٤٦ م

شرح شواهد المغني للسيوطي — المطبعة البهية بمصر ١٣٢٢ هـ

الشعر والشعراء لابن قتيبة — دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ

الصاحبي لابن فارس — المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٢٨ هـ

صبح الاعشى للقلقشندي — المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣٣١ هـ

ضحى الاسلام لاحمد أمين — لجنة التأليف والترجمة النشر ١٩٣٨ م

الضرائر للالوسي — المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤١ هـ

طبقات الحنابلة لابن ابي يعلى (اختصار ابن قيم الجوزية) — مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٥٠ هـ

» الشعراء (طبقات فحول الشعراء في هذه الطبعة) — » دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٢ م

» النحويين واللغويين للزبيدي — طبع محمد سامي الخانجي بالقاهرة ١٩٥٤ م

عيون الاخبار لابن قتيبة — دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ

غيث النفع للصفاقسي — مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٢ هـ

الفهرست لابن النديم — المطبعة الرحمانية بمصر

القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة	مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٨ م
قواعد التحديث للقاسمي	« ابن زيدون بدمشق ١٣٥٣ هـ
القياس في اللغة العربية لمحمد الخضر حسين	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٣ هـ
الكتاب لسيبويه	« الأميرية الكبرى ببولاق ١٣١٦ هـ
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري	مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٥ هـ
لسان العرب لابن منظور الأندلسي	المطبعة الميرية ببولاق ١٣٠٠ هـ
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق	مطبعة الترقي بدمشق
« مجمع اللغة العربية	المطبعة الأميرية ومطبعة دار الكتب المصرية
محاضرات الراغب	
مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي	مطبعة نهضة مصر بالفجالة ١٣٧٥ هـ
المزهر للسيوطي	دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة (طبعة ثانية)
المصباح المنير للفيومي	المطبعة الأميرية بالقاهرة (طبعة سادسة) ١٩٢٥ م
المطالع النصرية للهوريني	المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠٢ هـ
المعرب للجواليقي	دار الكتب المصرية ١٣٦١ هـ
المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي	مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد ١٣٢٨ هـ
الموشح للمرزباني	المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ
نزهة الألباء لابن الأنباري	طبعة على الحجر ١٢٩٤ هـ
النشر في القراءات العشر لابن الجزري	مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٥ هـ
الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني	دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ
وفيات الأعيان لابن خلكان	مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٤٨ م

تصويبات [1]

ص	س	الصواب
٨	١٩	رجلاً
٩	٢٢	ابو عمرو
١٢	٨	وفد
١٣	٢٠	ويعد
٢١	١٣	بازورج
٢٣	١٧	الجرجاني
٢٥	٣	الى
٣٠	١٣	هم أنفسهم
٣١	٢	واللغويون
٣٢	٦	زمانه
٣٤	٣	سليقيون – ١٠ ابراهام
٣٧	٦	حكم
٥٥	١٥	أبي إسحاق
٥٦	٦	الملقب
٦١	١٧	عنا
٦٥	١٨	للسيوطي
٦٦	١٧	المذليين ـ ٢٠ ولفنسون
٦٨	١٦	إليه
٧٢	١	للعجاج ـ ١٧ والممدود
	٢٠	تَجزى . ٢١ الجزى
٧٣	٦	بابن أبي إسحق
	٩	وابن أبي «

ص	س	الصواب
٧٦	٤	الإمامان ... بمثلها
٧٧	٤	ذالك الحرف فيه
٨٣	٩	لِلّبَن
١٠٣	٦	الامتياز
١١٣	٦	ترتجله السوقة
١٢٥	٧	الوحش
١٤٢	٦	أخرى
١٥٥	٦	تعرف
١٦١	١٣	عيينة
١٦٤	٢١	الذين ذكرنا
١٦٥	٦	فاقوا ... بعض العلماء
١٦٨	٤	يؤرثها
١٧٤	٧	الكوفيون
١٧٦	١٢	وابن منصور
١٧٧	١٣	والله
١٧٩	١٧	بعيدة الرشاء
١٨٨	١٢	في التثنية
١٩٠	١١	أرادوا بها
٢٠٠	١٠	وجود
٢٠١	١٦	خصومه
٢٠٧	٧	منهما ،

(١) أحرف الطباعة هـذه مشرفة على البلى لكثرة الاستعمال ولذا كان يسقط أبعاض كثير منها أثناء الطبع وكذلك بعض النقاط ، فاضطررنا الى الاشارة الى بعضها مع بعض الاخطاء .

فهرس الموضوعات



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

آثار المؤلف المطبوعة

ـــ أ ـــ

	الناشر
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٣٧م
ابن حزم الاندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٠
الاسلام والمرأة .	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٥
عائشة والسياسة .	لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٧ ، (طبعة ثانية سنة ١٩٥٧)
في أصول النحو .	الجامعة السورية سنة ١٩٥١
مذكرات في قواعد اللغة العربية	» » » ١٩٥٥

ـــ ب ـــ

الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة : للزركشي .	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٣٩
في المفاضلة بين الصحابة : لابن حزم (نشرت مع كتاب ابن حزم الاندلسي) .	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٠
سير النبلاء : للذهبي (جزء خاص في ترجمة ابن حزم) .	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤١
سير النبلاء : للذهبي (جزء خاص في ترجمة السيدة عائشة) .	المكتبة الهاشمية بدمشق سنة ١٩٤٥
تاريخ داريا : للقاضي عبد الجبار الخولاني .	المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٠